MAYSALOON HADI

رواية
NOVEL

ميسلون هادي

جائزة التوأم

جائزة التوأم/ رواية عربيّة
ميسلون هادي / مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى، 2016

حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بيروت – لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف: ديمو برس / بيروت، لبنان
لوحة الغلاف: نبيل علي/ العراق
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN: 978-614-419-698-4

رواية
NOVEL

ميسلون هادي

◆

جائزة التوأم

(١)

المكان: بيت صوفي

الزمان: زمان صوفي

جاء الصيف مبكراً ، وجاءت معه الأوساخ والأتربة والحشرات ، وأصبحت صوفي زوجتي تسبح في الحمام بين ساعة وأخرى ، فتقول لها أمي حبيبة ، وهي تمشط شعرها بمشط الخشب :

– صوفي كافي عاد كل شوية تدخلين للحمام ، جلدك بربر من المي؟

– شنو يعني بربر هبيبة؟

– إبراهيم ترجم لصوفي شنو يعني بربر؟

وليس كل ما يخرج من فم أمي حبيبة يمكن ترجمته للإنكليزية . لا بربر ولا بطبط ولا جرجر ولا عرعر . . كما لا يمكن إقناعها بتمشيط شعرها الرمادي الناعم بالفرشاة بدلاً من المشط الخشبي . إنها تريد أن تشم رائحة الخشب المبلول . وأن تدفن ما يتجمع من شعرها بين أسنان المشط في أرض الحديقة ، فلا ينبغي للمسلم أن يترك مخلفات جسمه مهملة ، أو يرمي بها إلى القمامة . . وبالطبع فإن أبي عبد اللطيف يعتقد

أنها بطرانة وتحكي ستة بالشهر ، وإنه لا حرج على المسلم أن لا يدفن شعره أو أظافره بعد قصها ، بل يرميها إلى سلة المهملات .

– وما معنى ستة بالشهر يا إبراهيم؟

– إنه رابش يا صوفي . . سكست أوف ذي مونث إز رابش . .

مر العام الأول بخير ، واستقرت الأمور قليلاً خلال فصل الصيف الذي قضينا معظمه في دولش ، وهي المدينة التي لا زالت تقيم فيها أُم صوفي مع سوزان أختها ، ثم تبعه عام آخر ، واندلعت ثورة صيف جهنمي جديد أتى بعد ربيع جميل وخاطف . . . . فما من شيء يجمع بين الربيع والصيف عندنا أكثر مما يفصل بين النحنحة والكلام . . يتنحنح الربيع لوهلة قصيرة ، ثم يترك الوقت كاملاً للصيف لكي يثرثر على هواه ، ويجعل من الأيام والليالي الساخنة أواناً لاحتفال الحشرات وزحفها من أجل البقاء . . بارحت العناكب مخابئها بين الزواغير ، وخاضت هي الأخرى غمار ذلك الانقياد الجنوني للغريزة العمياء ، وما أن حل شهر حزيران حتى بدأت صغارها تدب على الجدران . . تسرح وتمرح بين الحواشي وفوق الخيوط المنسوجة التي لا يعترض طريقها أحد . .

كل الحشرات يمكن احتمالها بالنسبة لصوفي إلا العناكب التي تصيب قلبها بالهلع . . . وتجعلها تشعر بأنها معرضة لخطر

دائم يتربص بها ، وقد يدهمها بشكل مفاجئ . . إنها تستطيع نسج خيوطها للتنقل أينما تريد ، ولا يمكن تفاديها كما هو الحال مع أرتال النمل العاقلة التي تسير في أمان الله على الأرض . . ولا داعي ، وفقاً لصوفي ، لحمل جليكان النفط ، وسكبه فوق حافات الجدران وزوايا البيت للقضاء عليها .

أصبحت صوفي تمشي وهي تتقافز في البيت مثل الغراب ، وتتفحص فراشها ومناماتها قبل أن تنام ، أو تهز الأخفاف البيتية بقوة قبل أن تنتعلها . تحملت صوفي هذا الوضع على مضض لشهر حزيران كله ، وكانت تبكي بين يوم وآخر لأنها لا تستطيع احتمال عنكبوت واحد ، فكيف بجمهرة من العناكب تتجول بين النوافذ والأبواب . . هذا أمر لا يمكن قبوله ، أو العيش معه بسلام ، حتى وإن زعلت أمي حبيبة التي لا تفضل العناكب على زوجتي صوفي بالتأكيد ، ولكنها تعتقد أن صوفي تبالغ في خوفها ، ولا تدري بأن العناكب قد حمت نبي الله من الكفار .

لم ينفع كلام أمي في تهدئة مخاوف صوفي . . وكادت أن تضرب رأسها بالحائط جزعاً من العناكب التي لا تبارح مخيلتها في كل خطوة تخطوها بين الغرف والممرات ، ولأن خير الكلام ما لم تحتج بعده إلى كلام ، فقد حسمت أمرها بالانتقال إلى شقة علوية تكون نظيفة وحديثة البناء ، وقالت بأنها إذا لم تسكن بعيداً عن الحشرات ، فإنها ستقيم داخل

السيارة وتنام فيها ، وهذا التهديد ، مع المبالغة الكبيرة فيما ترى من أعداد العناكب وأعمارها وأحجامها ، كان جزءاً من تكنيكها للضغط باتجاه ما تريد .

– كم الساعة الآن؟

– لا أدري . . يوجد قربها عنكبوت . .

– حدثيني . . ماذا فعلت؟

– رحت إلى رأس الشارع مشياً ، ثم رجعت ورأيت عنكبوتاً قرب الباب . . .

– هل أكلت؟

– لا لم آكل . .

– متى تنامين؟

– سأدخل للسيارة لأنام بعد قليل .

– سيهجم عليك البعوض هناك .

– عادي لا تقلق . . إنه يأتي و يروح . . .

وفعلاً كانت تنفذ تهديدها ، وتهرب إلى السيارة مع مروحة صغيرة تعمل بالبطاريات ، غير آبهة بتوسلاتي ، وما أقوم به من تمشيط مكثف للغرفة قبل النوم في الفراش . . تقول لي : لا طريق إلى النجاة مع العطف على العناكب . . أقول لها : نحن لا نعطف عليها يا صوفي . . ولكننا ببساطة لا نتفاجأ بها مثلك ، فتقول لي : أعتقد يا ابراهيم بأنكم لا تتفاجؤون بأي شيء على الإطلاق . . وأصبحت لا تشعر بالحماية حتى

داخل السيارة . . تعطلت كل شؤون حياتنا من أجل أمر غريب كهذا . . ومضت الليالي بين نوم في السيارة ، أو تجوال بين الغرف والممرات ، حتى عثرنا على عمارة بثلاثة طوابق في مكان غير قريب من بيت أهلي الذي يقع على كورنيش الكاظمية . .

المسكن الجديد كان أقرب إلى البيت منه إلى العمارة . . بناية مصممة على شكل ثلاث شقق أنيقة تقع فوق كراج للسيارات ينزل قليلاً تحت مستوى الأرض ، وحديقة أمامية صغيرة مشتركة لجميع الساكنين ، وليس لساكن الشقة الأرضية فقط . . . الحديقة كانت جميلة وكثيفة الأشجار ، ويوجد في الطرف البعيد منها باب جانبي يطل على الشارع الفرعي ، وغرفة كبيرة بمطبخ وحمام يسكنها حارس سوداني اسمه عصمان مع زوجته ملَك . . وهذه الغرفة تقع على يمين الشقة الأرضية التي تركها شاغلها الطبيب لعدة سنوات أيام العنف الطائفي . .

تلك الشقة ظلت فارغة لفترة طويلة ، وأمي حبيبة عندما تأتي إلينا كانت تتوقف لتلتفت إليها ، وتلقّي السلام على ملائكتها ، وتظل في حالة إنشاد متواصل للغمغمات والتمتمات خلال معراجها درجات السلم للوصول إلينا في شقة الطابق الأوسط التي سكنتها أنا مع صوفي وتوأمنا صخر وبدر ، ولازلت أعيش فيها الآن ، لكن لوحدي .

(٢)

المكان: نخيل يتحرك

الزمان: أواخر العام ٢٠١١

مرت البيوت متشابهة بعد أن تحركت السيارة ، ولا زال إبراهيم يحدق بدهشة من النافذة ، ويبحلق في الوجوه التي تتابع على قارعة الطريق لعله يعثر بينها على وجه ابنه صخر . . والتفكير في أي شيء ممكن لغيره ، أما بالنسبة له فإنه لا يفكر سوى بصخر . . وحتى وإن لفتت نظره بعض الأجسام والوجوه التي تعبر الشارع بشكل عشوائي ، فإن باله مشغول ومشدوه به فقط . قلة من النسوة كن حاسرات الرأس . . والبقية يتغطين بأسمال وعباءات سوداء خالية من الذوق الرفيع . . أنقضى كل شيء جميل . . وحل عصر العقول التي جعلت البلد يتمزق إرباً إرباً .

التفجيرات لم تعد تعني شيئاً سوى لأهالي الضحايا المساكين الذين يُقتلون فيها . . ودخانها كان يصل الفضائيات فيتحول إلى أخبار عابرة . أما من كان يضعه حظه العاثر في طريق العصابات والمجرمين مثل ابني صخر فلا شرطة ولا أمل

قوي . . فقط أتوقع الحكمة من عصمان الدرويش كلما ضاقت بي السبل . . وهذا ما يمنحني الطمأنينة عندما يقول لي بصوته الرخيم :

– أنا متأكد أنه بخير . .

عصمان حارس العمارة وصاحب الأشعار والكرامات يؤكد لي ذلك ، ويدعو له ليل نهار بالعودة سالماً . . وبالرغم من رباطة جأشه وهدوئه العجيب فقد رأيت دموعه تنهمر أكثر من مرة عندما يراني . . كأنه يبكيني أنا الأب ، أكثر مما يبكي الولد . . كأنه فرط بالأمانة التي وضعتها عنده . . وأنه هو المسؤول عن اختفاء صخر طيلة تلك الفترة ، لأن الخطف حدث أمامه دون أن يستطيع فعل شيء حياله . . من المؤكد أن صخراً نظر إليه يستغيثه وهو يخرج مع المسلحين من باب العمارة . . من المؤكد أن نظرته تلك كانت شيئاً مهولاً لعصمان الذي حاول منعهم ، ولكنهم شهروا السلاح في وجهه ، ودفعوه إلى الأرض . .

عصمان ظل قريباً جداً منه طوال سنوات ، وعالجه بالرقية عندما انتابته نوبة صرع مفاجئة وهو صغير ، وأصبح يأخذه معه إلى الجامع في صلاة الجمعة . . وزوجته ملك جاءت بالكتاكيت إلى الحديقة من أجل أن يلعب معها . . كان لا يستطيع أن يمنع سجا طفلة الجيران من اللعب معها أيضاً ، ولكنها تريد الركض وراءها كعداءة مجنونة ، وأن تجعلها تتبعثر شذراً مذراً في أرجاء الحديقة . . سجا لا تكف عن الضحك

وهي ترى أجنحتها الصغيرة مفرودة في الهواء ، وريشها الناعم الأصفر يتطاير في جميع الاتجاهات . . بينما صخر يستطيع أن يجذبها كنشارة المغناطيس في لحظة واحدة عندما يناديها للطعام .

– سجا لا تركضين وراهم . . . . ليش تركضين؟

– أريدهم يطيرون . . يلّه طيروا عاد . . ليش ما تطيرون يا تكاتيك .

– خطية عوفيهم عاد . هذولة كتاكيت مو تكاتيك . . هذولة ما يعرفون يطيرون مثل العصافير .

تصورتُ أنه يمكن العثور عليه ، بعد أربعة أو خمسة أيام من خطفه ، مرمياً في بناية مهجورة بعيدة خارج المدينة ، مع وجود علامات التعذيب والخنق واضحة على جسده . وقد يكون هناك خز عميق فوق أنفه ، بسبب إحكام العصابة السوداء حول عينيه . . أو هناك أثر دم متيبس على عنقه ، بسبب حبل ربط بإحكام حول الرقبة . أتخيل أسوء أشكال العذاب ، وأشعر بكل ألم مفترض ومتخيل قد يشعر به صخر ، فأختنق بدلاً عنه ، وأتألم بدلاً عنه ، وينتابني ضيق لا شبيه له إلا عندما أصحو من النوم ، وقد قلعت سني في الليلة الفائتة . . دماء في الفم طعمها كطعم الصدأ ، وجرح مفتوح أخاف المساس به بلساني ، وقد أصرخ إذا طختته قطعة طعام صغيرة . .

ما أبشعه من شعور بالضيق والألم يسببه جرح مفتوح ومهلهل كنسيج قطنة ممزقة ، فكيف الأمر مع صخر الذي قلعوه من مكانه ، واخذوه إلى مكان مجهول منذ شهرين . . لم أسمع شيئاً عنه ، ولا أعرف أين هو الآن ، أو ماذا يفعل ، وما دام لم يظهر منذ ذلك الحين فلا بد من أحد أمرين ، إما أنهم تنظيم إرهابي يستثمر خبراته في مجال البرمجة ، أو أنهم من عصابات الخطف التي ستطالب فيما بعد بالفدية .

الوقت مضى ، ولم يطالبني أحد بالفدية ، وأكيد أنهم يعذبونه أو يجعلونه يستيقظ كل يوم بشعور أفظع وأكثر كراهة من تمزق نسيج السن بعد قلعه . الحرب لا زالت موجودة في كل مكان ، والوقت يذهب دون أن نعثر على أثر من صخر حتى بعد شهرين من اختفائه . . درنا أنا وعصمان على وسطاء العصابات وأرباب السجون ، وراحت جدته حبيبة تزور كل المراقد والمزارات ، وكانت تأتيني من هناك بقصص الأمهات اللواتي جئن يوفين النذور لأولادهن الذين عادوا من الخطف . . حتى وصلنا يوم عرفة ، فصامت هذا اليوم لما فيه من أجر عظيم وتكفير للذنوب ، وأفطرت وقت الغروب على النذور العظيمة ، والدعاء المستجاب . . أما عصمان فكان يصوم الليالي البيض الثلاث التي يتكامل فيها نور القمر من كل شهر في السنة الهجرية ، وما عدا تلك الأيام ، كان يصوم التسعة الأولى من ذي الحجة ، والستة الأولى من شوال . ويدعو الله في كل

ساعة من ساعات الفطور أن يُنجّي صخراً ويفك أسرَهُ من خاطفيه .

أنا لم أفعل ذلك ، و لم أستطع أن أسمع كل القصص التي روتها أمي ، ولم أهزأ أيضاً مما كنت أُسمّيه فيما مضى بالخزعبلات . بقيت أتأمل رجوعه سالماً بأية طريقة ممكنة ، وكنت أتخيل البيوت التي دارت فيها تلك القصص . . وأراها مختلفة تماماً عن بيتنا ، ولا شيء يربطني بها ، أو يجعلها تواسيني . . إنها مليئة بالأولاد مثل باقي البيوت ، ولكن ليس فيها من يشبه صخراً ، فما شأني بها؟ . . وكيف تشفيني تلك القصص ، أو تنفع في تهدئتي أو تهدئة أمه صوفي التي كانت تنظر إليّ من شاشة السكايب بعيون زجاجية زرقاء تحدقان في الفراغ أكثر مما تحدقان في وجهي؟ وأحياناً أجد وجهها أصبح شبيهاً بوجوه المشبوهين الذين تغطى عيونهم بمستطيل رفيع أسود في أخبار الصحف . . عيونها انطمست وأصبحت في واد من السواد .

تظن أمي حبيبة أن همي على حفيدها صخر يمكن أن يزيله فنجان من الشاي أو القهوة . . وأحياناً تسألني :

– أسوّيلك ورد ماوي؟

– لا .

يداها الذابلتان لا تزالان تستطيعان تذوق بعض الانتصارات التي يحققها شراب الرمان أو الزنجبيل . . ولا زالت

تدردم وتأكل نفسها بنفسها على كل صغيرة وكبيرة ، وبالكاد أستطيع الكلام معها وأنا أتناول الغداء مباشرة بعد أذان الظهر . حمداً لله أنها تتغدى باكراً ، وتعتقني من مهمة الجلوس ساهماً أنظر إلى مكان صخر فوق الجدران . . الكثير من الآيات القرآنية معلقة هناك ، وصوفي كانت تعتقد أنها تجعل البيت يبدو شعبياً وشبيهاً ببيوت الفقراء .

في بيتها شرفة تطل على كورنيش الكاظمية الذي يفصلنا عن نهر دجلة . ومن بعيد كنت أرى الدماء تسيل على الأكفان التي يلبسها الرجال . . وعندما يقتربون أرى رؤوسهم أيضاً تنزف الدم . . كل عاشوراء نشاهد مواكب التطبير تمر قادمة من صحن الإمام الكاظم إلى شارع الكورنيش المطل على نهر دجلة ، فتقول أمي بين الجد والهزل بأنها ظلت تلبس الأسود في شهر محرم وفاء لنذر نذرته أمها ، ثم توقفت عن تلك العادة عندما تزوجت رجلاً من بني أمية . . أتذكر في رمضان ، عندما كنا صغاراً ، كنت أفطر وقت الغروب على مدفع التلفزيون مع أبي عبد اللطيف ، وليس مع أمي حبيبة التي تنتظر أذان المغرب من الحسينية ، وتفطر بعدنا بعشر دقائق ، هذا التأخير في الفطور كان مقدروا عليه بالنسبة لها ، أما العيد فكانت أمي تضطر إلى أن تبدأه مبكراً مع زوجها وأولادها ، لا مع أخوتها وأخواتها وباقي أهلها . .

أغادر البيت فلا شيء أشعر به سوى الهواء ، أنفثه وأجرّه

كالماكنة العمياء في الطريق من كورنيش الكاظمية إلى شقتي في كرادة مريم . . حتى الآيات المكتوبة بريشة هاشم الخطاط ، والتي كانت تستوقفني في الطريق وأنا أمر بجامع بُنّية أو جامع القبانجي . . لم أعد أنتبه إليها ، أو أتأملها . . لا شيء يدعو للتأمل أو التوقف ما دام صخر ليس موجوداً معي ، أو ينتظرني في البيت .

كلما غادرتُ منزل أمي قبل صلاة العصر تأتي رائحة الكباب من منقلة جيرانها التي ينصبونها ويشعلون الفحم فيها كل جمعة من أجل الغداء . . يوم مثالي للشواء في الحديقة ، وقطرات الزيت التي تقطر من أسياخ اللحم على جمرات النار تطلق رائحة ساحرة تجعلني فيما مضى أشعر بالجوع ، وتفتح شهيتي للطعام ، ولكنها الآن لا تجعلني أشعر بالجوع لأني لا أجوع . . ولا تجعلني أشعر بالشبع لأني لا أشبع . . وكيف أشبع من الطعام وأنا لا آكل . . أو كيف استيقظ من النوم وأنا لا أنام .

لا ينام ولا يحلم ، ويقضي وقته متيقظاً بمراجعة الوجوه التي يراها تمر في النهار ، ولا تلبث أن تختفي وراء وجه صخر . . لا شيء في باله سواه . . وباقي الوجوه قريبة أو بعيدة يكاد لا يتذكرها ، حتى وإن كانت لزوجته صوفي التي أصبحت ذاهلة عن العالم وتخلط بين الأسماء وتنادي بدراً بصخر في أغلب الأحيان . . كل شيء أصبح كالهباءات

السوداء يمر من أمام عينيه . . وفوق الحائط كارت بريدي بعثْته له صوفي منذ زمن طويل ، منذ أن كان في حياته بريد وساعي بريد . .

Don't stray while I'm away.

هذا الكارت الأزرق بقي موضوعاً في إطار فوق حائط الهول . . حائط الهوة التي أعيش فيها منذ أن اختفى صخر ولحد الآن . . تلك الكلمات المكتوبة بلون أسود كلما ركزت عليها وجدتها تختصر ما حدث لنا منذ أن عدنا إلى العراق ولحد الآن . . سنوات من الوضع المؤقت بين دولش وبغداد . . وآخر المطاف تهنا وأصبحنا في جهتين . . هي وبدر في جهة . . وأنا وصخر في جهة أخرى . حزني يتصلد كقناع لا فكاك منه ، وأنا أحاول أن أزيح هذا القناع لكي استطيع التفكير في أحجية اختفاء صخر .

(٣)

المكان: شقة إبراهيم

الزمان: التسعينيات

ذهب الوقت سريعاً منذ أن هرول بدر وصخر على السلالم يحملان الحقائب والمناضد والكراسي من الشاحنة إلى الشقة الجديدة . . كان ذلك في منتصف التسعينيات عندما انتقلنا من بيت أبي في الكاظمية إلى شقتنا الجديدة في كرادة مريم . وكانت تقع في بناية بيضاء مؤلفة من ثلاثة طوابق ومطلة على شارعين . . انتشرت على السلم رائحة الخمر عندما سقطت من يدي قنينة ويسكي ملأت الأرض بالشظايا . . أسرعت لمسح الأرض قبل أن تنتشر الرائحة في العمارة ، أو تصل لغرفة الحارس ، وجرجرتْ صوفي التوأم بدراً وصخراً بعيداً عن قطع الزجاج المتكسر . . ثم جاءت بفرشاة ناعمة لتكنس ما تبقى من كزيز القنينة الذي تبعثر على أرض السلم .

كنا في شهر تموز عندما طفح بصوفي الكيل ، فانتقلنا إلى هذه الشقة الحديثة المعلقة في الهواء . . وبعد شهرين أندمجتْ مع المكان الجديد ، وصادقت نسوة الحي من شيماء التي تجلس على الكرسي المتحرك ، وحتى علياء التي تجلس على الحصير ،

وبدون أن تدفع صوفي فلساً واحدة في تكلفة البيت الجديد أصبح اسمه في الحي بيت الإنكليزية . بابه الأزرق تحول إلى شأنٍ من شؤون التأمل والاستغراق ، وإليه يتجه المشاة بأنظارهم أثناء الذهاب أو الأياب . . يتحدثون فيما بينهم بشتى الأحاديث ، ويذكرون الغانيات والعظماء ، ولكنهم ما أن يصلوا بابنا الأزرق حتى يتوقفوا قليلاً ، أو يبطئوا السير أكثر من اللازم ، وأحياناً يلتفتون وينظرون بإمعان إلى بيتنا الذي أعاد الجيران تعريفه من العمارة البيضاء إلى بيت الإنكليزية .

أصبحت صوفي حديثاً من أحاديث الكبار ، وحلماً من أحلام الصغار ، وفي أقل من ثلاثة شهور اكتمل تعارف الجميع على بعضهم البعض ، فعثروا هم فيها على ابتسامة عذبة ، وعيون زرقاء تبرق كالخرز في الأساور ، وعثرت هي فيهم على سر الشرق وسحره مختصراً في عيون منكسرة وقلوب طيبة ما أن تراها تمر حتى تجعلها تشعر بأنها وزيرة للداخلية أو التجارة . . يحتفون بها ، وينظرون إليها بفضول شديد مع ابتسامات خجول تعرف صوفي أنها تظل مرسومة على أفواههم حتى بعد أن تختفي من الزقاق .

أحياناً تطوف حولها سجا طفلة الميتم التي تبنتها زوجة جارنا محمود ، وجاءت بها إلى البيت رضيعة في الشهر الثاني من عمرها ، فلما أتّمت عامها الأول تبين أنها طفلة فائقة الجمال ، ولكن صحتها العقلية ليست على ما يرام . . . كانت

في الثالثة من العمر عندما استأجرنا الشقة الوسطية في هذه العمارة ، ولكن يوم ميلادها المضبوط غير معروف لأهلها بالتبني ، فتشفق زوجتي صوفي عليها ، وتحتفل بعيد ميلادها مع اليوم الذي نحتفل به بتوأمنا صخر وبدر . السكاكين على اليمين والشوكات على اليسار والملاعق في الوسط . . مع تشكيلة مدهشة من أطباق الحلويات المصفوفة فوق مفرش المائدة ، وقوالب الكيك التي تصنعها صوفي بنفسها على شكل سيارات ودمى ومكعبات . .

كل شيء يخرج من الفرن هو أساطير وأفانين بالنسبة لسجا وباقي أطفال المنطقة . . وأعصاباً مشدودة بالنسبة لأمي حبيبة التي لا تريد لهذه العروض أن تستمر وتتنوع في ظرف صعب من ظروف البلاد هو ظرف الحصار ، وسنوات عجاف عم فيها الشح ، فأصبح الناس يبيعون أغراض البيت وخواتم الزواج من أجل شراء البطاطا والباذنجان ، بل يستعيرون المقصات الكبيرة من أجل تحوير بطانيات النوم القديمة إلى قماصل ومعاطف يتقون بها برد الشتاء .

صوفي زوجتي كانت حينئذ في نهاية العشرينيات من العمر . . تمشي سريعاً كما الغزال . . وتوزع الابتسامات على الجميع بالعدل والقسطاس . . كما تلوّح للجيران بيديها طوال الطريق ماشية على قدميها ، أو جالسة في المقعد الأمامي للسيارة . ولا داعي للحديث مع الناس عن الطقس المتقلب

كنوع من أنواع الشيفرة التي تعارفت عليها في بلادها لفك أقفال الكلام مع الغرباء ، فالقواعد هنا معروفة فيما يتعلق بالطقس . . شتاء بارد قصير وجاف ، يليه ربيع خاطف ، ثم صيف جهنمي ساطع ، يبدأمن أوائل نيسان وينتهي في أواخر أيلول ، وتبدو شمسه مشرقة حتى في الليل من شدة الحر . .

تغير سكان الشقة العلوية التي فوقنا عدة مرات . . سكنها في البداية شاب ملحن مع عائلته الصغيرة ، وكنا نسمع كل يوم دندناته على العود ، أو عزفه لأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم القديمة ، فكان ذلك يشجيني ويطربني عندما أعود من العمل كل يوم وقد تحول رأسي إلى سوق هرج من جداول الضرب ، وركام الأرقام والحوالات ، والأسئلة التي لا تنتهي عن أسعار صرف الدولار وباقي العملات ، وكنت أحمد الله على هذه الجيرة الطيبة ، التي لا تزهد بها النفوس ، ولا يخفى منها شيء ضئيل أو عظيم ، إلى أن حدثت الحرب فانقفلت نافذته ، وتوقفت ألحان عوده .

المسكين ضربته هو وعائلته همر امريكية على الطريق الخارجي بين بغداد والأنبار ، فماتت زوجته وطفلته الرضيعة في الحال ، ورحل هو عن البيت واختفت موسيقاه من حياتنا إلى الأبد . قال صخر «الحمد لله خلصنا من تلك الطنطنة» ، وكان لا يحب سماع صوت العود ويضيق به بالرغم من أنه لم يكن عالياً . . نهرتُه بشدة عندما علق بهذه الطريقة على رحيل

الملحن . . كان عائداً للتو من المدرسة . . فظل واقفاً بقرب باب الشقة ، ثم أغمض عينيه بالمنديل . . ماذا يحدث؟ . . هل هو فعلاً يبكي؟ قُرع الجرس في تلك اللحظة ، وسألت أخاه بدر من في الباب ، فقال بغضب إنه الشحاذ؟ صخر لم يركض ليفتح له الباب . . بل ظل واقفاً في مكانه . . حاولت الاعتذار منه بأن احتضنته ، وقلت له هيا أركض جاء صديقك الشحاذ . . ولكن صخراً لم يركض ، وبدر أيضاً شعر بالإهانة نيابة عنه . . وكاد الأمر أن يتحول إلى مشكلة كبيرة لولا أن صالحت الجميع بالذهاب إلى مطعم القصر لتناول الشاورما التي يحبها التوأم كثيراً .

بعد ذلك توالت علينا المشاكل ، وسكنتْ الشقة العلوية مجموعة بشرية حامت حولها الشبهات ، وكثرت عنها الأقاويل ، فقد كنا نجدهم يرمون الحقائب والأحذية الفاخرة قرب الباب ، وتأتي إليهم الكثير من سيارات الرجال الفارهة ، ثم تنزل منها وتصعد إليها أشكال البنات المتبرجات بشكل صارخ . . سرعان ما حدسنا وحدس أهل المنطقة أمرهم ، وترددنا بإبلاغ الشرطة عنهم ، لئلا ترمى رؤوسن إلى المزابل ، كما حدث مع بعض فتيات الليل في مناطق أخرى ، ولم نكن نعرف أن تلك الأخبار قد وصلت إليهم ، إلا عندما رأيناهم يغادرون العمارة في جنح الظلام .

بعد الغجر سكنتْ الشقة العلوية مجموعة بشرية أغرب

من الأولى ، وكانت ترمي على شرفتنا قناني العرق الفارغة ، وعلب البيرة ، وأعقاب السكائر ، بل حتى النعلان والفانيلات الرجالية والصحون البلاستيكية ذات الاستعمال الواحد ، صعدت إليهم وأنا أزبد وأرعد وأشتم هذا البيت الملعون ، ولكنهم كانوا ينظرون من العين السحرية ، ولا يفتحون الباب .

أختي نهلة فار الدم في عروقها وساعدتها كثرة الفيتامينات والمعادن التي تتناولها على الوقوف على منضدة جاءت بها من داخل الشقة ثم وضعتها على أرضية الشرفة . . ولا عجب أنها استطاعت أن تتمدد بطولها الراهي على طول المسافة الواصلة بيننا وبينهم ، وبالتالي أطلت برأسها عليهم من الشرفة ، وطلبت منهم الكف عن رمي هذه الأوساخ على شرفتنا . . بلغتْ من العمر ستين عاماً ، ولكنها لا زالت تملك طاقة شابة في العشرين من العمر . وهي تستطيع التمدد والتقلص كما تشاء وفقاً لقوانين الوراثة التي سرت في العائلة العاشقة للأوميغا ثري ، والمسرفة في تناول السمك من أجل الصحة والشباب والعناصر المضادة للأكسدة .

نهلة تحب اللون الوردي كثيراً . . الفاتح والغامق والوسط . . وشعرها كان مصبوغاً بلون مقارب للون الأحمر . . وبسبب الشيب ، فقد كان يبدو ورديا تحت ضوء الشمس . وبما أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم ، فقد قال لها رجل عجوز من خلف سحابة من دخان السكائر :

- إنت ليش ما تغطين شعرك؟
- وأنت ليش مـا تجلد نفـسك أربعين جلدة بالجـريد ، وأربعين جلدة بالنعلان؟

ما قصرت نهلة في جوابها المفحم ، ولا قصّرتُ أنا في الشكوى عند صاحب البيت على سكان الشقة العلوية الذين اتضح أنهم من السكارى والمدمنين . . . أصبح وجودهم مثل كومة أوساخ يجب مسحها ، وبعد نصيب وافر من الهجمات الكلامية مني ومن عصمان ونهلة ، رحل الزكورتية الذين لم نعرف لهم عدداً ، وفرغت الشقة مرة أخرى . . فعرفنا بالصدفة سرها ، واكتشفنا لماذا لم تسكنها عائلة مرتبة سوى عائلة الملحن .

انكشف السر عندما طار الدخان من الشقة إلى باقي أرجاء العمارة ، واضطررت لكسر بابها لإطفاء الحريق الذي تسبب فيه حدوث تماس كهربائي تشممنا رائحته قبل أن يطير الدخان . كنت أظن أن خريطة البيت تشبه خريطة شقتنا ، أو هي نسخة فوتو كوبي منها ، ولكني ، بعد أن دخلت إليها ، وجدتها عبارة عن مسطح كبير توجد فيه فضاءات مقسمة بحواجز جاهزة وبشكل سيّئ جداً . . كان البيت بشع التصميم ، ولا يمكن ان يسكنه الا شخص غير مرتب وعديم الذوق . . شعرت صوفي باليأس أن يأتي ساكن لطيف و نظيف يعيد ترتيب هذه الشقة ويسكن فيها ، وقالت إنها لا تستطيع أن تقضي الوقت كله

وهي تمسح السلم والشرفة من أوساخ الآخرين . . ومن غير المعقول أن يكون الاستياء هو الشيء الوحيد الذي يربطها بهم .

أخيراً جاء الدكتور مصعب ، ومنذ اليوم الأول لاحظتْ صوفي أن زوجته تضع الأزبال في أكياس سوداء كبيرة ، ولا تُنزلها إلى باب العمارة إلا عندما تسمع صوت الهورن العالي لسيارة النفايات ، فكانت هذه الإشارة كافية لتزكية هذا الشاب الموصلي مع عائلته الصغيرة ، وحمداً لله فقد استقروا في تلك الشقة العلوية وقتاً طويلاً بعد عدة عوائل متعبة سكنتها منذ منتصف التسعينيات وحتى بعد بداية الحرب ، وكل شي من السوق إلا (المَحبي) من فوق ، كما يقول مصعب بلهجة أهل الموصل ، وهذا ما تحقق فعلاً منذ اللحظة الأولى التي التقيتُه فيها على سلم العمارة . ابتسم بوجهي وبادرني التحية ، فأحسست أني أعرفه منذ زمن طويل . .

أعاد تصميم شقته بالكامل ، وأجرى عليها بعض الإصلاحات التي توسعت لتشمل بعض عيوب العمارة وخربطات الزقاق . . يمشي بدون أن يختفي عن الأنظار لكي يوزع ابتساماته على الجميع . . ويسمح لنفسه ببعض التدخل في تصرفات الآخرين من أجل تطبيق ما تربّى عليه من سلوك أهل الموصل ونظافتهم . وكان لا يستصغر من المعروف شيئاً أن يلقى أخاه بوجه صبيح . . . لهذا استغرب كيف ترك مصعب قريبه باهر المزعج هذا لحراسة شقتهما التي تقع فوق شقتي

مباشرة . . دبيبه لا يتوقف في رأسي ، وأنا أتساءل لماذا جعله مصعب يحرس الشقة ، وهو الذي يعلم بأني على خلاف شديد معه ، وأكرهه بل لا أطيقه ، وكذلك يكرهه ولا يطيقه ابني الغائب صخر؟

الآن كرهتُه أكثر بعد أن حدث ما حدث لصخر .

أتساءل وأنا وحدي في الشقة . . يا ترى أين صخر الآن؟

(٤)

المكان: البيت

الزمان: الآن وقبل الآن

أبواب الشقق الثلاث تطل على منور السلم الذي يبدأ عند الباب الداخلية للعمارة ، وينتهي عند الباب العلوية لسطح العمارة . . وهذا المنور يبقى مضاءً في الليل بمصابيح مثبتة أمام كل شقة من الشقق الثلاث . . وحتى عندما تتعطل مولدة الكهرباء ، وتنطفئ المصابيح الثلاثة . . . فهناك ضوء يبقى منبعثاً من غرفة عصمان ، ومصباحها الذي لا يصيبه الخطل .

وصلت البيت قادماً من دولش ، فكان يقف بالباب عدة رجال بينهم ياسر صديق صخر الحميم . . . . شباب الحي أيضاً تجمعوا وكأنهم سمعوا للتو باختطاف صخر . رفعت نظري إلى الطابق الأوسط ، فلم تكن غرفة صخر مضاءة . . الشقة كلها كانت مظلمة . . فشعرت بأن الكون كله يدخل إليها ويغرق في الظلام . . أول أن نزلت من السيارة رأتني ملك زوجة عصمان فجلَست على الأرض ، وبدأت بالبكاء . . وعصمان احتضنني مثل أب يريد طمأنة طفله المريض بأن كل شيء سيكون على ما يرام . . أما ياسر ، الوحيد الذي تبقى في البلاد من أصدقاء

صخر ، فكان يقاوم دموعه من الانهمار ، ويتحاشى النظر إلى وجهي . . أين أنت يا ياسر . تعال هنا . . لم يرفع نظره لي ، وأنا أيضاً لم أستطع النظر إليه ، ولكنه ما أن اقترب للسلام علي ، حتى وجدت نفسي أنهار في البكاء ، وأنا أسأله بدون وعي :

- ياسر . . أين صخر؟

هناك مليون طريقة لتذكر صخر . . ولكني لا أتذكر سوى طريقة واحدة . . ذات يوم من أيام الصيف خرجتْ أمه من البيت وقت الغداء ، وأخذت بدراً معها من أجل الذهاب لمدرس اللغة العربية ، التي كان بدر يحتاج لتقويتها خلال العطلة الصيفية . . وضعتْ صوفي الطعام لصخر في الفرن لكي يقوم بتسخينه قليلاً ، ولثلاث دقائق فقط ، قبل أن يصبح جاهزاً للأكل . . وحين أخبرتْه صوفي بأن طعامه موجود في الفرن ، وأن عليه أن يقوم بتسخينه عندما يجوع ، قال صخر :

- ألن نأكل سوياً؟

قالت صوفي :

- كلا .

بقي صخر وحده في البيت ، وبعد ساعة أراد الخروج إلى الحديقة فوجد الباب مقفلاً . . ظن الباب قد انغلقت عليه ، وتعطلت أكرتها أو استعصت على الدوران ، حاول أن يفتحها بكل المفاتيح التي لديه ، ولكنه لم يفلح . . وبدلاً من أن ينادي على العم عصمان أو زوجته ملك ، فقد اهتاج وعربد وضرب

الباب حتى كاد أن يكسرها . . ظل يصرخ بشكل جنوني حتى وصل صوت صراخه لسابع جار . . في تلك الساعة وصلتُ أنا إلى البيت ، ولم يكن هناك داخل العمارة أحد ، ولكن عند بابها يتجمع بعض أطفال الجيران الذين دخلوا معي ، عندما فتحت باب الكراج . توجهت إلى الطابق الثاني وسحبت الباب قليلاً باتجاهي ، ثم أدرت أكرتها فانفتحت . استغرب الجميع كيف انفتحت الباب بسهولة بينما كاد ابني صخر أن يكسرها ، وأوشك أن ينفجر في الصراخ ، دون أن يفلح في فتحها . . سألني طفل لا أتذكر اسمه :

- عمو كيف فعلت ذلك؟

- الباب لم تكن مقفلة ، ولكن ابني أحمق .

لا أعلم لماذا قلت عنه هذا . . ولا أعرف كيف خرجتْ تلك الكلمة من لساني . أشعر بأن مليون سبب قاهر لا يغفر لي مثل هذا القول . . وأنني سوف لا أتذكر من بين آلاف وملايين اللحظات التي مرت في حياة صخر شيئاً سوى تلك اللحظة المهولة ، وكلما تذكرتها انتشر دخان أبيض أمام عيني . . وتمنيت لو يعود الزمن إلى الوراء ، لكي أمحوها من بال صخر وبال أطفال الجيران . . أتمنى وأتضرع الله أن يكون صخر قد نسيها ، أما بالنسبة لي فلا يهم أن أتعذب بها طوال العمر .

فتحت باب الشقة بعد أن غادر ياسر ، وانفض الجميع عن المكان . . تركوني وحدي لكي أرتاح من تعب الرحلة . . . .

يدهشني أنني لم أعد أشعر بشيء . . والوقت لا يمضي منذ أن أغلقوا الباب الكبيرة التي تصلصل عند سحبها إلى الداخل والخارج . . . . لا أستطيع أن أتصرف مثلهم وأقول لنفسي بأن هذا ابتلاء من الله . لست على ما يرام . . وحيد بدون كيان . . . . كأنني ميت في مشرحة . . أشعر بأن أنفي لا يزال في مكانه وكذلك عيوني وأطرافي الأربعة ولكن أذني فقط هي التي تعمل . . . لدي شعور مؤكد بأني سأسمع صخراً مرة أخرى . وصوفي تتصل بين لحظة وأخرى بانتظار سماع خبر جديد .

(٥)

المكان: بغداد - برستول

الزمان: الثمانينيات

صوفي كانت أسطورة بالنسبة لوالدي الذي لم يرَ في حياته امرأة تكوي حتى الشراشف والملابس الداخلية لزوجها . وهو لا يشعر بالرفض الشديد لفكرة أن يتربى أحفاده في بيئة مختلفة عن بيئته العربية ، ولكن إذا كان الأحفاد من الأناث فهي الطامة الكبرى التي يجب أن لا تحدث . هو لا يدري بأن صوفي ، التي أُعجب بسلوكها ونظافتها وأخلاقها العالية ، لم تكن عذراء عندما تزوجتُها .

خرجتُ قبلها مع فتيات كثيرات عندما كنت في بغداد . . . كل واحدة منهن تحرص على أن تتناول قدراً ضئيلاً جداً من الطعام كالعصفورة في حضوري . . وهي في الحقيقة تأكل كالحصان . كل واحدة تدّعي أن لا أحد قد مس يديها قبلي ، وهي لها تاريخ شائن من العلاقات مع الفتيان والشباب والكهول . . هه . . الكذب عندنا سهل كشرب الماء ، بينما مع صوفي الأمر مختلف . . . وإذا لم يكن لديها هناك سبب قاهر للإنتقاد ، فكل انسان هو صادق وواقعي ومدعاة للاحترام . . لا

تدّعي شيئاً ولا تغتاب أحداً ، ولا تكذب حول ماضيها . . بل تحكم على نفسها بقسوة ، قبل أن تحكم على الآخرين . .

مر عامان وهي تمشي وتتقافز مثل الغراب خوفاً من الحشرات ، وأتذكر فزعها يوم رأت الأوزاغ تتجمع على وليمة من فراشات البر بقرب مصباح النيون الأبيض في الحديقة ، وأصبحتْ تنظر إلى أي ظل ينعكس من أصبعها على أبريق الشاي أو زجاج النافذة على أنه سحلية أو عنكبوت . . واشتعلت ردات فعلها العنيفة تباعاً تارة بين الأغطية ، وأخرى على مائدة الطعام ، إلى أن قررتْ أخيراً أن نترك بيت أهلي في الكاظمية ونعيش في شقة معلقة بعيداً عن العناكب والزواحف والحشرات . . أمي اعترضت وامتعضت جداً من هذا القرار ، ليس لأنها تحب كنتها ولا تريدها أن تفارق البيت حسب ، ولكن لأنها تعتقد بأنه لو كان علينا قتل الحشرات ، لمجرد كونها مضرة أو بشعة المنظر ، لتوجب علينا قتل الكثير الكثير من البشر . . . كما أن للحشرات ، بالإضافة للأجنحة والأرجل والأهداب ، ذاكرة جماعية ، ويجب أن لا يعتدي عليها أحد ، لئلا تحفظ عمله الشرير هذا ، وتنتقم منه شر انتقام . .

راحت تقرأ لصوفي المعوذتين والأدعية ، وترقيها بأسماء الله الحسنى وصفاته ، وبعد صلاة المغرب تضع يدها اليمنى على رأسها وتتمتم : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان

وهامة وكل عين لامة . . فقط أمي حبيبة هي التي ترى مزايا الحشرات ، وتجزم أن تلك الوساس هي نزغ من عمل إبليس ، وأن التعوذ بالله من هذا الشيطان الرجيم ستجعله يرحل من حياة صوفي ويفارق تفكيرها . . . . . وبرحيله ستنقطع الوسوسات ، ولا يتبقى في قلبها خوف ولا هم يحزنون .

لم ينفع كلام أمي في إقناع صوفي بدخول ملكوت هذه الروحانيات لعلاج فوبياها الهستيرية الرهيبة من العناكب ، وبقينا نبحث عن شقة علوية تكون نظيفة وحديثة البناء ، إلى أن عثرنا على واحدة في كرادة مريم ، فسكنّا فيها أنا وصوفي وصخر وبدر ، ولا زلت أعيش فيها وحدي . .

أسمع أصوات الدبيب في رأسي ومن حولي . أحيانا تحكني اذني ، فتؤدي إلى رجفة كالكهرباء في كل بدني . . أخاف أن أحكها فيفوتني شيء مما سأسمع .

(٦)

المكان: بغداد

الزمان: عام ٢٠٠٣

طُرق باب العمارة وقت الصباح . . وكان الطارق هو ضابط الاستخبارات الذي يريد أن يجري تفتيشاً دقيقاً في المنطقة المجاورة للمستشفى ، ولما فتحت له باب الشقة ، سألته :

– ما الذي يحدث ؟!

قال :

– ألم أقل لك لا تضع هذا العطر مرة أخرى؟

ماذا أسمع . . لم أكن أنا من قلت ذلك لصخر . إنها صوفي . كل شيء موجود حولي ولا أراه ، ولكني اسمعه فقط . . وكانت هذه الكلمات طريقة أخرى من مليون طريقة لتذكر صخر الذي اختفى . . أفتش عن أسوء المواقف لسبب أجهله . . وأريد تأنيب نفسي وعض أصابعي في كل لحظة . . سألني الضابط هل أقيم لوحدي في البيت ، فخفت أن أروي له قصة صخر . . كيف لي أن أتأكد بأنه ضابط بالفعل ، وقد أخبرني عصمان بأن الذين خطفوه كانوا أفراد عصابة ترتدي ملابس الشرطة . . فتش الضابط الشقة ثم صعد إلى السطح . .

فرأيت التوأم يهرولان على السلم ، وشممت رائحة خمر .

أصبح التوأم في الرابعة عشرة من العمر عندما حدثت الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣ . . يعتقد كل واحد منهما أن صورة أخيه هي صورته ، وبأنه لا يحتاج من الدنيا أكثر من هذه الجائزة . ظلت المرآة صافية بدون شرخ ، ومن لا يعرف ما هي المرآة ولم يرها ، فهي نظرة واحدة متبادلة بين وجهَيْ بدر وصخر منذ أن وجدا نفسيهما يعيشان في هذه الدنيا ، وحتى أصبحا في الرابعة عشرة من العمر ، لهذا لم تكن صوفي خائفة أو قلقة عليهما عندما تركتهما مع جدتهما حبيبة في المزرعة الآمنة ، وجعلتْني أعود معها إلى شقتنا في كرادة مريم علىٰ وجه السرعة مغادرين تلك المزرعة التي يملكها أبي الحاج عبد اللطيف في محيط الكاظمية . . كل عائلتنا نزحت إليها عندما حدثت الضربة الأمريكية الأولى على العراق بعد غزو الكويت عام ١٩٩١ . . . وهناك أيضاً ذهب الجميع مرة أخرى عندما حدثت الضربة الامريكية الثانية بعد اثنى عشر عاماً .

القتال انتهى بسرعة ، والفرهود انتهى ايضاً . . وما بقي بعد ذلك كان ساحة الفردوس وتمثالها المسحوب بسلاسل الدبابات الأمريكية ، ثم بغداد وجدرانها الشاهقة التي ارتفعت في كل مكان . بين ليلة وضحاها توقف التاريخ وبدأ تاريخ آخر ، وعاشت صوفي معنا تلك الليالي ، وفهمتْ الحكاية

بسرعة ، وقالت بلهجتها العربية المكسرة . . علمود علي وعمر واحـــدكم يشـــرب من دم الثـــاني؟ ربع ويّه إيران وربع ويه السعودية ، و تالي ما تالي بس أنته الخسران .

فزت صوفي من نومها ، في اليوم الثاني لبدء الحرب ، وعلى الفور جاءت وأيقظتني وقالت إنها تريد العودة من المزرعة للبيت .

- لماذا يا صوفي؟ ماذا حصل؟

- طفّيت كل أجهزة الكهرباء ، لكن نسيت الأوتي مفتوح .

- يا معودة ، صدك جذب . .

- إي يا معود صدك .

- هسة وين أكو كهرباء؟

- أخاف تجي على غفلة ويحترك البيت .

- يا معودة صوفي إحجي غيرها .

- لا إبراهيم ما أحجي غيرها . . لازم نرجع للبيت .

في الطريق احتجنا لأكثر من معجزة سماوية لكي نصل سالمين إلى البيت . . وهناك فقط اكتشفتُ أنها قد فبركت قصة المكواة الكهربائية من أجل أن تجيء بطعام إلى قطط الحديقة . بعـد سـاعـة واحـدة من وصـولنا أُغلقت المنطقـة من قـبل الأمريكان ، ولم نستطع العودة إلى المزرعة . . . طُوّقت محلتنا التي كانت شبه فارغة أصلاً ، ما عدا بضع عوائل لم تغادرها إلى الضواحي والأطراف وباقي المحافظات .

بقينا وحدنا بالبيت أنا وصوفي والقطط . . ينظر إلينا المارينز

بفضول شديد على أننا أبطال . . . شفنا أياماً سوداً وإحنا أبطال . . . . . وحدنا داخل الدنيا المظلمة في الليلة الأولى من بقائنا في البيت . . ولم نكن نريد أن نبذر النفط القليل الذي معنا . . فكنا نستمع إلى الأخبار عبر راديو يعمل بالبطاريات . . ونطبّق بلا وعي تقريباً ما قالته أمي حبيبة لجميع الأطفال في المزرعة : إذا صرختم أو تحدثتم بصوت عال ستكتشف الطائرات إحداثيات المكان وتقوم بقصف المزرعة .

الصمت المطبق جلب معه الطمأنينة وسكينة الروح بطريقة غريبة جعلت صوفي تتذكر مثلاً لأمها الآيرلندية يقول بأن الدجاج الأسود يبيض بيضاً أبيض اللون . وفعلاً كان الصمت الذي أحاط بنا داخل الشقة أقوى ، وأكثر بياضاً من صمت المزرعة ، ولكن ما أن دوّت صفارة الإنذار ، وبدأت الطائرات الأمريكية تقصف قريب الفجر حتى انتابني مزيج من القلق والفضول ، وصعدتُ أرى ما سوف يحدث من سطح العمارة التي فرغت من سكانها .

بقيتُ على السطح أراقب سقوط القذائف التي حولت بغداد إلى حمم من النار . . لم تكن الشمس قد أشرقت بعد ، ورائحة الفجر عبارة عن دخان إطارات مشتعلة . . وبعد الدخول من السطح إلى باب السلم بدا الظلام أكثر حدّة مما هو عليه بالفعل . وضعت قدمي اليمنى في الفراغ ، فوقعت من الدرج ، وتدحرجت حتى نهايته . . فزّت صوفي وجاءت تساعدني

على النهوض ، وقبلتني من مكان الوقعة . . قلت لها تره البارحة هم وقعت ، فقبلتني مرة أخرى . . وأول البارحة هم وقعت . . فقبلتني مرة ثالثة . . وأول أول البارحة هم وقعت ، فراحت تضحك وهي تقبلني . . وأول أول أول أول أول أول البارحة هم وقعت . . القصف يشتد في السماء . . وهي تقبلني طوال المسافة بين الدرج والأرض ، حتى انتهت قبلتنا الأخيرة في غرفة النوم .

إنه آذار والهواتف معطلة . . والبيت الذي نعيش فيه فارغ من ساكنيه ، ما عدا عصمان حارس العمارة ، وطائر السنونو الذي جاء يبني عشه في زاوية بين سياجين من أسيجة الحديقة . . مصعب وزوجته وبناته ذهبوا إلى الموصل ، وعائلة الطبيب ذهبت إلى بيت أهله في الديوانية . . وأكيد أن أبي وأمي وجميع من في المزرعة يكادون يجنون من شدة القلق علينا ، وبمساعدة الدراجة الهوائية لعصمان حارس العمارة ، أستطعنا في نهاية المطاف أن نرسل لهم خبراً يطمئنهم علينا ، واستطاعت صوفي أن تنام قريرة العين بعد أن حولت بيتنا إلى غرفة عمليات لمتابعة شؤون القطط الأليفة والضالة .

لولا أن الدماغ يحمينا من الخطأ ، ويصعّب هذا الأمر علينا ، لأمكن لفك الإنسان قضم إصبع يده بنفس صعوبة قضمه للجزر ، ولكن صوفي كانت لا تفرق بين قضمة الإصبع وقضمة الجزر . . وجعلتنا نرى أياماً سوداء من أجل قطط سوداء

تأكل من طعامنا كل يوم ، وتتشمس فوق الحشائش والممرات ، بينما نحن نُلصّق زجاج الشبابيك بالأشرطة المتصالبة على شكل علامات الضرب ، ونضع الدواشك أمامها خوفاً من تطاير شظايا الصواريخ التي تضرب العاصمة . .

أصبحنا نعيش في غرفة واحدة فقط ، هي غرفة نومنا التي نقلنا إليها جميع ما نحتاجه من طعام وشراب ، وانتابنا إحساس جميل بأننا نعيش على حافة العالم . . مكان يشبه الهوة لا يرانا فيه أحد . . ولا نرى أحداً . . الدبابات تهدر من بعيد ، فيزيد هديرها البيت صمتاً على صمت . . ويجعل كل ما حولنا غريباً وجديداً وهادئاً تماماً . . أسأل صوفي أين الطريق إلى بيتنا؟ ، فتقول ما بك يا إبراهيم؟ هذا هو بيتنا . .

جعلني الخطر أشعر بأني أسبح في ملكوت آخر . . وأهيم في أرض أخرى . . وحتى عندما يشتد القصف في أماكن قريبة من بيتنا كنت أشعر بشعور غريب يشبه رائحة مكان جديد أو شيء جديد . . شعور شبيه بالجلوس في غرفة معدة للطلاء وفارغة من الأثاث . لا شيء فيها سوى الصدى والفراغ ورائحة البراميل المليئة بالصبغ ، وفي انتظار قدوم الصباغ ، الذي سيحدث التغيير في الغرفة ، أشعر بأنني لم أولد بعد ، بل أكاد أقول وأجزم بأني أشم رائحة العدم .

بقينا مختفيين دون الحاجة للاختفاء . . ومحلّقين دون الحاجة للطيران . . إحساسنا يتراوح بين الأبدي الذي لا نهاية

له ، والأزلي الذي لا بداية له . الهدوء تام والراحة تامة . . وأيام من العسل عشناها وحدنا من جديد على وقع صفارات الإنذار . . جربنا مشاعر جديدة في دنيا جديدة لم نجربها من قبل . . اعتادت صوفي أن تنام بملابسها الداخلية في الفراش ، تُحرك قدميها يمنة ويسرة مثل ذيل القطة بحثاً عن بقعة باردة في الفراش . . ولكن هذه المرة لم يمكنها التعري إلا بعد سماع صفارات الأمان . . جربنا أن لا نتكلم ، جربنا سكينة البال المشغول . . جربنا أن يقترب الخوف ويبتعد . . جربنا كل شيء جديد حتى أن نحب جنود الدبابات ، ونصدق أنهم لا يضحكون علينا . . تمنّينا أن نرى الربيع في عيونهم ، تمنينا أن نرى الشمس والراحة . ولم تكن المشكلة في أنهم نخلوا لنا الشوارع بالحفر والأنقاض . . ولكنهم بعد أن نخلوا الشوارع ، فتتونا إلى مسوخ صغيرة . .

قالت لي ، فيما بعد ، صوفي الجانحة نحو رجل شرقي ، دون أن تفقد عقلها الغربي :

– أنتم السبب وليست أمريكا . . لا تلقوا اللوم على غيركم في كل شيء .

– وهل كان في العراق إرهاب قبل أن تشن أمريكا حربها هذه ؟

– لا لم يكن هناك إرهاب ، كان هناك ظلم ودكتاتورية . . وقد يكون الفأر أيضاً هو السبب . .

– وما به الفأر؟ ما علاقة الفأر بما يحدث لنا؟

– لست متأكدة لحد الآن . سمعتُ المذيعة تقول بأن الإرهاب يكثر في المناطق الفئيرة . .

في البداية اعتقدتْ صوفي أن المذيعة تقصد المناطق التي يكثر فيها الضباط السابقون في الجيش العراقي . ولم يكن هذا التفسير مقنعاً مع وجود الإرهاب في كل مكان . . ثم بعد قليل استطاعت تخمين معنى الفأر على أنه الغجر الذين جاؤوا من أطراف البادية ، ويعملون الآن في بعض الملاهي والنوادي الليلية . قلت لها وأنا أضحك :

– هل كانت المذيعة مصرية يا صوف . . هههههههه . . الآن عرفت كيف يكون الفأر هو السبب في الإرهاب ، وليس في قرض الملابس والحاجيات .

صوفي تتحدث العربية بطريقة محببة لكل من يسمعها ، ويعرفها جميع البقالين وبائعي الخضرة . . ولمجرد أن تخرج من البيت تخلق حالة من المرح بين الجيران وترد عليهم بتلويحات مستمرة حتى وهي جالسة في السيارة . أعتادت صوفي على سماع البقال يمازح النساء المسنات والشابات على حد سواء . وكان هذا يتناغم مع حالة الود الموجودة بين الأغراب والجيران في الحي الذي كان لا يزال مختلطاً ، ولم تفتته الطائفية بعد إلى قومين متناحرين .

(٧)

المكان: بغداد أيضاً

الزمان: عام ٢٠٠٣

صباحاً خرجتْ سجا تضع حقيبة وردية على كتفها ، ورأيتها تحمل في يدها بعض الطعام . . قلت لنفسي يا ترى إلى أين تذهب في هذا الوقت المبكر من الصباح . . سألْتها صوفي :

– وين رايح حبيبتي؟

– رايحة للندرسه .

– وين أكو مدرسه سجاوي؟ ارجع حبيبتي لأن بدت الحرب والدبابات بالشوارع؟

– آني معلية بالحرب . . آني رايحة للندرسة .

– وينهه محمود؟ وينهه بابا؟

– نحنود نايم . . بابا نايم .

طبعاً لم يكن أبوها يعلم بما تفعل ابنته المتبناة . . كانت تخرج من البيت إلى الشارع للتفرج على الدبابات وهي تمر ، وعندما تراني تسألني عن شخص واحد هو ابني صخر . عنو إبراهيم وينه هذا؟ و(هذا) هو الاسم الذي تطلقه على صخر تحديداً . إنها بعمره تقريباً . . . . وكانت تدرس معه عندما يعود

من المدرســـة . . وتقـــول له أول أن تراه . . ها أين وصلتم بالقراءة؟ . . . . . ها أين وصلتم بالحساب؟ . . . . . وتبدأ بحل الواجبات معه حتى قبل تناوله طعام الغداء . . أما في الصباح فتحمل جنطتها على ظهرها للذهاب الى رأس الشارع ، ثم تعود موهمة نفسها بأنها قد ذهبت وعادت من المدرسة . .

لم تكن حالتها تسمح لها بالتعلم في مدرسة نظامية ، ولكنها تأتي إلى بيتنا وقتما تشاء ، وتجلس على سجادة الهول عندما يبدأ صخر بفتح الدفاتر خلال وجودها ، فتساعده في تقليب الكتب والبحث بين الأرقام والصور ، حتى أصبحت تجيد القراءة والكتابة عن طريقه . . كأنما صخر كان يعوض آلام نفسه عن طريقها . . لأن عاهتها أكبر من عاهته ، وهي الوحيدة التي لا تلاحظ تأتأته في الكلام . . . . . والآن أراها تحشـــر الدفاتر في حقيبة وردية ، وتمشي في الشارع كشخص يعتقد أنه في طريقه إلى المدرسة . . تجاهلت كلام صوفي وظلت تمشي إلى أن أعادها الجندي الأمريكي من رأس الشارع . . بكت سجا لأن الجندي أعادها من رأس الشارع . . مسكها من ظفائرها . . ثم ظل ممسكاً بها من يدها . . فأخذتْها صوفي في أحضانها بينما الجندي الأمريكي الذي كان قريباً من عمر المراهقة يبدو متأثراً جداً بذلك المشهد . .

كانت في الثالثة من العمر عندما حدثت حرب الكويت ، أما في هذه الحرب فقد أصبحت في الرابعة عشرة من العمر ،

تُسمّي الجندي بالجني ، وتعتقد أن صوفي هي أمها الجديدة التي حلت محل أمها بالتبني . صوفي كانت تقريباً أم الجميع ، ويغلب حنانها على تطبيق قوانين الإنكليز الصارمة ، حتى أنها غافلتني مرة وأنا نائم ، وحملت صينية الشاي والكعك لجنود الدبابة الواقفة قريباً من الباب . . استغربتُ من فعلها هذا عندما استيقظت من النوم ، ثم قلت لنفسي لماذا استغرب ، إذا كانت صوفي قد أخرجت لهم الشاي مع كعك الزنجبيل ، فغيرها قد دعاهم على البرياني والبامية ولبن أربيل .

تحول فضول الجنود إلى لطف سياحي وراحوا يلتقطون بعض الصور من فوق الدبابة للقطط والكلاب السائبة التي كانوا يجمعونها من الزقاق ، ويذهبون بها إلى حديقة الحيوان المهجورة في الزرواء . . ولكن لماذا يلتقطون الصور ، وما قصّة الكاميرا التي ظهرت فجأة إلى الوجود . . طالبَتْهم صوفي برؤية الصور الملتقطة . . نظرتْ فيها فظهرت صورتها وهي تحتضن سجا . . قال لها الجندي الذي التقط الصورة إنه يريد إرسالها الى أمه العجوز في كاليفورنيا ، وهي التي تعتني بابنته الوحيدة في غيابه . . صرختُ به غاضباً :

– كيف تفعل إذن ما فعلت بنا ، وانت أب لديك أولاد؟

هو نفسه لا يعرف ، ولا يملك ماذا يقول عن وجوده العدواني بيننا . . عن لا مبالاته الواضحة تجاه ما حدث من خراب . . عن كونه ضرساً في آلة التدمير المهولة التي حطت

علينا . . أرادت صوفي التعليق ، ثم أحجمت وضحكت لتخفف من حدة الصمت الذي أصبح سيد الموقف . . . قالت للجندي إنها تريد نسخة من الصورة لكي ترسلها لأمها العجوز في دولش ، فهي أيضاً لم ترها منذ فترة طويلة . . . وبعد أيام أرسلت صوفي الصورة فعلاً لأمها العجوز ، فكتبت سوزان لأختها صوفي تقول :

– أمي تسأل هل دخل الإنكليز للعراق مرة أخرى؟

صخر وبدر ، اللذان جاءا إلى العراق وعمرهما عامان ، قد أصبحا في الصف الثاني المتوسط في العام ألفين وثلاثة . . ولا يزال كل واحد منهما يعتقد أن صورة أخيه هي صورته وجائزته . . أخضر العينين عالي الجبهة نحيف الوجه مع كثافة في الشعر . . الابتسامة فقط هي التي تختلف ، فهي مطلقة عريضة عند بدر ، ومعقوفة للأسفل عند صخر ، وكأنه يكبحها قبل ان تكتمل . . . لونه أيضاً مختلف عن لون أخيه ، ولديه شغف أكثر لمشاهدة أفلام الكارتون المدبلجة للعربية . . وكان يفضل أن يفعل ذلك وحده . . ويكره أن يشاركه في المشاهدة أحد ، أو أن يعلق أثناءها . . تلك التعليقات هي أكثر ما يكرهه صخر ، وهي التي تقلبه فجأة من طفل هادئ ووديع إلى مخلوق آخر عصبي للغاية ، وقد يبدأ بالصراخ ، أو يضرب رأسه بالجدار .

الأوان قد حان لاتخاذ قرار الرحيل في العام ألفين

وخمسة ، أي بعد عامين من الحرب . . جاء أخي إسماعيل من رومانيا في زيارة قصيرة ، وقال لي : لماذا تجازفون بالبقاء هنا؟ . . ما كان ينبغي بقاؤكم في بغداد أصلاً أثناء الحرب ، خصوصاً وأنت تعمل في الصرافة ، وقد تكون هدفاً للخطف من العصابات . أخي إسماعيل لا يتعلق بشي . . لا ببغداد ولا بغيرها . . سرعان ما عاد مع ابنه شادي إلى بوخارست بعد أيام . . وبعد شهور متواصلة من الحريق المتواصل لبغداد فكرتُ أن أغادر أنا وصوفي مع توأمنا إلى بيت أهلها في دولش . . وهذا ما حدث فعلاً .

عدنا إلى بريطانيا في العام ألفين وخمسة ، وبقينا هناك عاماً واحداً استطاع فيه صخر أن يحسم أمره بالعودة ثانية إلى بغداد . . أصبح مراهقاً ، وكل عيب لا نراه نحن ، يراه هو بشكل مضخم ومأساوي . . من حَبّ الشباب ، وحتى تأتأته في الكلام . . زاد تلعثمه أمام وندي التي أحبها في فترة المراهقة ، وكانت وندي تأتي إلى بيتنا في دولش كل يوم ، وتلتهم الطعام وهي تمازح بدراً ، أكثر ما تمازح صخراً وتتدلل عليه .

– أَمسك هذه التفاحة؟

– أين التفاحة؟

– هيا يا بدر . تعرف ما هي التفاحة . . إنها قراصة الشعر . . أربط بها شعري لأنه كاد أن يتلوث بالآيس كريم .

وندي كانت فتاة جميلة مسترسلة الشعر ، وهي التي أحدثت أول شرخ في المرآة التي يرى بها كل واحد منهما الآخر ويتطابق معه . وبسببها ظن صخر أنه لا يستطيع التفوق على بدر في أي شيء . . ضخّم لنفسه عدة عيوب وأولُها تلعثمه في الكلام . . إنه يتعثر ببعض الحروف ، وبعد عثرة أو عثرتين يتوقف عن الاسترسال في الحديث ، وينسحب من الدنيا كلها . . لم يكن هذا ما يفعله مع طفلة الميتم سجا التي تسمي جميع الناس (هذولة) ما عدا صخر تسميه (هذا) . .

اقترحت صوفي أن نعود جميعنا مرة أخرى إلى بغداد التي كان الوضع فيها يزداد خطورة . . وأصبحتُ بين نارين لا أدري ماذا أفعل . . أقطع الوقت في نزهات طويلة وأنا أفكر ، وفي النهاية انشطرنا نصفين . أنا وصخر في بغداد . . وصوفي وبدر في دولش . . قلنا إن الوضع سيكون مؤقتاً . . . . وكنت أتحمل صعوبات المراهقة التي مر بها صخر . . وهذا جزء من تضحيات الأب الذي يعرف أن تصرفات ابنه تستحق اللوم أو التأنيب ، ولكن لومه سيزعجه ، ويجب أن ينتظر مرور الزمن ، لكي يدرك الابن خطأه عندما يكبر .

(٨)

المكان: بغداد

الزمان: ٢٠٠٦

في عام ٢٠٠٦ عدنا أنا وصخر إلى العراق بعد سفر دام عاماً واحداً ، وكل عام بالنسبة لصخر هو ألفان وستة . . . . وهو العام الذي انشرخت فيه المرآة ، وانفصل فيه صخر عن بدر لأول مرة . اشتغلت في تحويل الأموال ، وكانت نيتي الاستقرار هناك طوال الوقت ، ولم أعرف ماذا حدث بالضبط ، أو لم أعرف ذلك الجزء الذي لم يحتمله صخر ، بحيث أصبح يطالبني بالعودة إلى بغداد . وجدنا حديقة البيت الصغيرة قد امتلأت أرضها بالدغل والحلفاء ، واحترقت شجيرات الياس التي تزين رصيف البيت . . أما أشجار النارنج ، فجفت وانكمشت وأصبحت في حالة مؤلمة من اليباس . في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كنا نبحث عمن ينظف الحديقة من الدغل الكثيف الذي نما فيها ، وزرع الجربرة التي كانت موجودة ، ولم تعد هنا . . أردت أن أواجه صخراً بمشكلته بالتحدث عن وندي التي لديها أيضاً عيوب في لفظ الحروف . . إنها تلفظ الراء غيناً . . ومثل هذه العيوب تزيد

الإناث رقة وجاذبية ، ولكن الأمر مع صخر مختلف . . قلت له :

– ماذا تعتقد يا صخر . . كيف كانت وندي ستلفظ اسم هذا النبات لو كانت هنا؟

– . . . . . .

– جغبغة . . صح؟

ضحكتُ أنا ، وصخر لم يضحك . . ضرب التراب المحفور بقوة بالمجرفة التي كانت بيده ، وتأفف بصوت عال . وسجا هي التي أنقذت الموقف عندما شعرت بوجودنا في الصباح ، فجاءت راكضة وهجمت على صخر ، وجرته من يده ، وقالت له .

– كلكم جيتوا؟

ابتسم صخر وتهللت أساريره . . وانطلق من وجهه شعاع جميل . . قال لها :

– لا بس آني وبابا جينا .

– بابا نحنود .

– لا مو بابا نحنود ، بابا إبراهيم .

كان صخر يتلفظ الكلمات بدون توقف أو عثرات . . سعيداً يشعر بالحياة تعود إليه مرة أخرى . . أخذتْه سجا إلى الشارع وقالت له :

– راح نرجع للندرسة؟

- إي راح نرجع .
- هذوله هم نرجع .
- هذوله منو؟

أشّرت على نفسها وقالت :

- هذوله .

صمتَ صخر وهو لا يعرف كيف يجيبها . . لقد تجاوز عمر الطفولة ، ويفصله عام واحد عن آخر مرة رأى فيها سجا ، هي بقيت على ما هي عليه ، تضحك وتلعب وتفعل ما تشاء ، وهو جعله هذا العام يصبح في عمر المراهقة ، ويعرف وندي أيضاً . . ظل صخر صامتاً . . وكأنه انقسم نصفين . . نصف بقي كما كان طفلاً ، ونصف يعمل وفق دسبلن صوفي ، ويمنعه من الكذب عليها . . بعد الصمت قال لها :

- ماكو مدرسة سجا . . آني صرت بالثانوية . .
- شنو يعني نانوية؟
- يعني مدرسة مال كبار .
- لعد أريد أروح وياك للندرسة مال كبار . . ليش تقول ماكو ندرسة؟

تدخلتُ وقلت لها :

- إنتِ حضّري الجنطة ، واشتري دفاتر . . ولما يرجع صخر من المدرسة عود تعاي وسوّي الواجب . . وإذا ما عندك جنطة أنا راح اشتريلك جنطة جديدة .

- وأريد مساحة أم الريحة؟
- أوكي .
- ومقطاطة أم المراية .
- ماشي . مقطاطة مدورة أم المراية .

طارت سجا من الفرح وأخذت ترقص في الشارع . . ولأنها ليست بنتاً عاقلة تماماً ، مسموح لها أن تفرح أو ترقص ، أو تفعل أي شيء في الشارع دون أن ينهرها أحد أو تضع حجاباً فوق رأسها ، وأحياناً تهرول في الشارع وتلعب مع باقي الأولاد . . صخر هو صديقها المفضل ، والشيء الوحيد الذي يربطها ببدر هو الطائرات الورقية . . أصبحت ضليعة في أسماء وأنواع الطيارات الورقيه التي كان يعشقها بدر ، واقتنت واحدة فيها مجموعة ألوان تسمى هنداوية . . . كانت تقطع الطريق وهي تركض بها وتصيح . . يله طيري . . يله طيري . يلة دطيري عاد ، وإذا فشلت في جعلها تحلق في الهواء تركتها ، وطلبت من بدر أن يعطيها خيط طائرته التي تشق عنان الفضاء . . . لم نعرف أن بدراً سيهوى الطيران المدني بعد ذلك ، ويكبر ليقطع بطائراته المسافات الشاسعة بين القارات .

وما هي إلا أيام حتى بدأنا رحلة البحث عن الحقائب والدفاتر ، وعادت سجا تأتي إلينا كل ظهيرة لتخترع كلماتها العجيبة ، وعادت الحديقة هي الأخرى إلى الحياة بأشجارها وطيورها والبلابل التي تعشش في أشجارها . . الفلاح يقرع

الجرس . والحديقة تستيقظ . وسجا إذا جاءت إلينا تجد بعض الرارنجات ساقطة على الأرض فترفعها عالياً ، ثم تقربها من أغصان الشجرة . .

– ماذا تفعلين يا سجا؟

– أريد أرجّعها لمكانها .

أرادت سجا أن ترفع كل ثمرة ساقطة من الأرض ، وتعيدها إلى مكانها على الشجرة . . وأن تعيد كل ورقة أيضاً إلى مكانها . . الأوراق والثمرات تسقط من جديد ، فتلتفت سجا إلى العصافير الواقفة على الأسلاك ، وتلوّح لها بكلتا يديها لتجعلها تطير ،كما كانت تفعل مع الكتاكيت ، وهي أيضاً يحب أن تطير ، وكذلك صخر مع العصافير . . . بعد قليل يبدو على سجا أنها ندمت على أنها قد جعلت العصافير بعيدة ، فتناديها لكي تعود إلى أشجارها . . تحاول إعادتها مرة أخرى بأن ترفع يديها وتغريها بعلب العصير التي تكرهها . .

– تعاي يا عصافير إشربي عصير .

تبقى العصافير خائفة وبعيدة . . ولا ترجع حتى عندما تقرر سجا أن تغريها بعلبة البيبسي كولا الذي تحبه أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم .

كان ذلك العام هو عام العصافير .

(٩)

المكان: شارع سجا

الزمان: لحظة سجا

مـرت بشـارعنا جـمـيع خطوط نقل الطلاب والموظفين والموظفات ، الهمرات مرت أيضاً ومعها الجنود المدججون . . لم يعودوا يسلمون علينا ، أو ينظرون إلينا مبتسمين . . خرج صخر إلى سيارتي ليجلس في مقعدها الأمامي بانتظار أن أنزل وآخذه الى المدرسـة الثـانوية . . لم نكن نأمن على أولادنا الذهاب لوحـدهم إلى المدارس ، ولم تكن سـجـا موجـودة كـعـادتهـا لا عندمـا خرجنا إلى المدرسة ، ولا عندمـا عدنا إلى البيت . . لم نسمع صوتها ولا وقع أقدامها على درج العمارة . . التزم صخر الصمت التام طوال الطريق إلى المدرسة . أصبح صخر في حالة قلق شـديد ، وأسرع يسأل عنها أول مـا صعـد إلى السيـارة بعد خروجه من المدرسة . .

– هل رأيت سجا؟

– لا والله حبيبي . لم أرجع بعد للبيت .

ظل متوتراً طوال الطريق ، وسألني عنها أكثر من مرة . وقبل أن ندخل البيت رحنا نبحث عنها في الشارع حيث اعتادت أن

تجلس قرب باب بيتها ، وتتفرج على الباعة وسائقي عربات الغاز وعمال النظافة وبناء البيوت . . تظل هناك في ذلك المكان إلى أن يخرج طلاب المدارس ، فتركض مثلهم والحقيبة على ظهرها وكأنها عائدة من المدرسة . سجا لم تكن موجودة . . لم يكن هناك في مكانها سوى الفراغ . . نظرنا في كل مكان ، ولم نعثر عليها . . لم نعتد أن نطرق باب بيتها ، ونسأل عنها أباها محمود الوحيد الذي تعيش معه . . لم يكن من النوع الاجتماعي ، ولا نراه في الشارع إلا وهو يمسك السيكارة في يده . . وزوجته ، التي توفيت قبل أعوام ، هي من أصرت على تبني طفلة من الميتم ، لأن العيب في عدم الإنجاب كان منه وليس منها . . جارنا مصعب يعرفه معرفة عابرة ، وعن طريقه عرف بوجود شقة للإيجار في عمارتنا بكرادة مريم . . يقول إنه يمتلك قسماً داخلياً للطلاب في الوزيرية . . وبالصدفة أخبره أحد الطلاب بوجود شقة فارغة في الشارع الذي يسكن فيه أبو سجا مالك القسم الداخلي . يقول مصعب ساخراً لو كنت قد رأيته وجهاً لوجه ، لترددت كثيراً في استئجار بيت في شارع يسكنه هذا الرجل الذي لم ير مثله في الجفاف والكآبة .

انتظرَنا حتى صباح اليوم التالي ، ولكن سجا لم تظهر لا في الصباح ولا بعد الظهيرة . . . سألتُ عنها عصمان الحارس فقال إن بابهم مغلقة ، ويبدو أن البيت لا يوجد فيه أحد . . أصابنا القلق الممض ، وتجرأنا وطرقنا باب بيتها لأول مرة في

صباح اليوم الثاني . . تحركت الستارة قليلا ، ولكن الباب لم تفتح . . ظل صخر ينظر من نافذة البيت بين ساعة وأخرى . . ظل تائهاً لا يعرف ماذا يفعل إلى أن خرجتُ إلى الحديقة في اليوم التالي ، فرأيته يهبط سلم العمارة على عجل ، ويركض إلى الشارع . . ظهرت سجا . . أشرقت الشمس في وجه صخر وهو يقول لي :

- بابا سجا موجودة في الشارع . . . رأيتها من النافذة .

ولكنها لم تأت إلينا . . جلست صامتة على دكة البيت . . لا تضحك ولا تتحدث مع أحد ، وعندما اقترب صخر منها كانت واجمة لا تريد أن تتكلم معه ، أو تنظر إلى شيئ . . بقيت عدة أيام على هذا الحال لا تضحك ولا تلعب ولا تتحرك . . كان منظرها يؤلم القلب .

سألها صخر :

- ما بك يا سجا؟

راحت تبكي ، وقالت له إنها مريضة . .

- وما هو مرضك يا سجا؟

- هذوله .

(١٠)

المكان: البيت

الزمان: الآن

رن جرس الباب . . قبل قليل رن الجرس أيضاً . . نظرتُ من النافذة ولا يوجد أحد . . الدنيا غائمة . . وشعرت بأن الطقس الغـائم مـلائم للخـروج من البـيت ، ولكن أين أذهب يوم الجمعة؟ . . . . كأنني رجل متقاعد عن العمل ليس لدي ما أخرج إليه إلا الحلاق . . وحتى عندما أذهب إلى الحلاق أرى محله مزدحماً ، فأرجع وأعود اليه مرة أخرى فأراه مزدحماً أكثر بالأطفال والشباب ، لأن الوقت موسم دوام المدارس والجامعات بعد انتهاء العطلة الربيعية .

ذهبت إليه . . وجدته يقفل المحل هذه المرة ، ويعتذر عن استقبال الزبائن ، وعندما نظرت إلى المرآة وجدت شعري قد أصبح كـثّاً كلحيتي . . . وكما تقول صوفي فإن العطر على جسم وسخ لا يفعل شيئاً سوى جعل رائحة الوسخ تشع إلى الجميع . . الفائدة الوحيدة لذلك المنظر الرث أنه استطاع إخراج صوفي من حالة الذهول التي هي فيها ، وقالت لي تعنّفني على هذا المظهر الكئيب :

- إبراهيم ، هل تنظر إلى نفسك في المرآة؟

- نعم أفـعل ذلك . . ولكني لست في لندن أو باريس ، وإنما في بغداد .

في الحمام سمعت صوت جرس مرة أخرى . . لم أكن متأكداً من الصوت بسبب ضجة رشاش الماء . . أغلقته وبقيت ساكناً تحت الرشاش ، أحسست ببرودة خفيفة من قطرات الماء التي تقطر من شعري ثم تنزلق فوق وجهي وعنقي وجسمي كله . . قلت لنفسي هل هو باهر؟ ربما نسي المفتاح ، فلا يستطيع فتح باب العمارة التي تنغلق آلياً من الداخل ، أو ربما هو ولد من أولاد الجيران أراد العبث بأجراس العمارة ، فنقر بأصابعه على جميع الأزرار ، ثم هرب . . هم يفعلون ذلك دائماً مع الأزرار التي تثير فضولهم ، ويصرخ بهم عصمان حارس العمارة . . كنت أخاف أن أسمع نفسي أو أصدقها إذا ما فكرت بما يجب أن أفكر فيه . . الجرس انطلق مرة أخرى . . . أنا متأكد هذه المرة . . خرجت من الحمام راكضاً ، وأنا أضع فوق جسمي منشفة فقط . . هرعت الى النافذة ونظرت الى الشارع . . لا يوجد أحد . . . ولكني سمعت صوت صلصلة انفتاح الباب الرئيس من مكاني في الغرفة ، فلمن فتح عصمان باب العمارة ، لا توجد فيها سوى شقتي وشقة الطابق العلوي التي تسكنها عائلة مصعب وهو الآن مسافر لأربيل ، وشقة الطابق الأول ، التي هاجر صاحبها الطبيب ، وهي فارغة يحرسها

عصمان مع زوجته ملَك منذ سنوات . .

هرعت من النافذة إلى الباب .

ارتجفتْ يدي وأنا أدير أكرة باب الشقة لأخرج منها . . لم أستطع فتحها من شدة ارتباكي . . بقيت أحاول فتحها ، ويداي ترتجفان بقوة ، لم أفلح في جعل يدي تستقر على الأكرة ، أو أن أجعل قلبي يهدأ قليلاً . . تحول ارتباكي إلى عبرات تخنقني ، ورجفة تهز كل بدني . . حتى انفتحت الباب أخيراً ، وكان عصمان هو الذي فتحها . . سمع ضجيج الباب فصعد السلم وقام بفتح الباب التي كانت مفتوحة أصلاً . . . نظر لي بعينين دامعتين فتفجرت الدموع أنهاراً من عينيّ .

استمرت الشمس في الغروب ، واعترض ضوءَها جدارُ البيت المقابل ، فترك ظله في الحديقة على شكل مستطيل أسود تتفرع منه ذؤابات سوداء لأوراق الأشجار . . كل هذا الجبروت للشمس يمكن أن يعترضه حاجز صغير ، فينطفئ ضوؤه ويصبح أسود اللون . وسواء بددنا الوقت ، أو شغلناه ، فستغرب الشمس ، ويتمدد الظل التام بسرعة من الحديقة الصغيرة إلى الواجهة الأمامية للبيت . . . كل شيء سيختفي بعد قليل مع تحول الدنيا كلها إلى الظلام . ، ولن يعود هناك سوى أصوات باهر ، والظل الذي تتركه الأفكار .

(١١)

المكان، مكان باهر

الزمان، زمان باهر

حدث في محطة الوقود بعد منتصف الليل أن رأيته يتزود بالبنزين قبلي . . وداخل السيارة كانت توجد طفلة صغيرة . . تُخرج رأسها من نافذة السيارة وتنظر إلى المحطة بفضول . . كانت المحطة نظيفة ولامعة ، ولا علاقة لها بالخرائب التي تحيط بها في كل مكان . . فضولي جعلني ألحق به وأتبعه حتى وصل إلى بيته القريب من السكة الحديدية للقطار . ترجل من السيارة وطرق الباب . لحظات وفتحتْ الباب طفلة أخرى جميلة الملامح ولا شبه لها بوجهه الماكر ، وبسرعة وجدتها ترفع يديها الصغيرتين محاولة أن ترتمي في حضنه ، وبصوت بريء راحت تنادي على أمها : بابا وصل يا ماما!

تنتهي عطلة جاري مصعب الصيفية مع زوجته ليلى وابنتيه سارة وسمارة قبل أسابيع من الآن ، ولكن الإجازة امتدت مدةً طويلة عما هو مقرر هذه المرة . . . وباهر قريبهم هو الذي تركاه لحراسة شقتهما التي تقع فوق شقتي مباشرة . . ولا أدري لماذا جعله مصعب يحرس الشقة وهو يعلم بأني على

خلاف شديد معه وأكرهه بل لا أطيقه ، وكذلك ابني الغائب صخر . .

التقينا به أيام التسعينيات في سفرة ربيعية انتهت الى طريق نحيل وبستان برتقال في مدينة بعقوبة ، لم تكن الحرب الأخيرة قد اشتعلت بعد ، وكان البلد في حصار ، والحال في ضنك ، وتلك السفرات البرية في الهواء الطلق هي متنفسنا الوحيد للخروج من الكآبة وضيق ذات اليد . ديالى ليست بعيدة عن بغداد ، ومع ذلك وصلناها بعد وقت طويل بسبب رداءة سيارة مصعب البرازيلي التي لم يكن يستطع صيانتها كما يجب . نكات مصعب يمكن لها أن تجعل الوقت يمر بسرعة البرق . . دليمي احترگ محله ، گالوله : خو ما خسرت هواية؟؟ گال : لا . . الحمد لله كنت مسوي تنزيلات . . كردي راح للسوق يريد يشتري دوش بس ما يعرف اسمه ، سأل ابو المحل عندك مثرمة مال ماي؟ ، مصلاوي ديحكي ويه خطيبته ، كالتله : خلص رصيدي إنت رن عليّ! قال لها : إحنا وصلنا طريق مسدود ، ولازم نفترق .

زوجتي صوفي كانت معنا في تلك الرحلة ، ونظرات باهر لها طوال الطريق جعلت الجو يتوتر . . وجعلتني أوشك أن أبصق في وجهه . . كونه قد تفاجأ بأن زوجتي إنكليزية ، لم يعطه الحق في التحديق بها أكثر مما ينبغي ، وأصبح الانزعاج يستولي عليّ وعليها . وفي البستان تهوّر وراح يقفز إلى الوراء

وهو يمشي أمامها وأمام ليلى ، فتمالكت نفسي بصعوبة ، وأنا اكتفي بشتمه بصوت مسموع ، لكي لا أفسد الرحلة . ليلى نفسها لامت نفسها أمامي وأمام صوفي ، لكون زوجها مصعب طيباً أكثر من اللازم . ويأتي بمثل هذه الأشكال المخزية إلى سفرة عائلية . . وماذا نفعل الآن؟ سألها زوجها مصعب فرأت ليلى أن تتمشى بعيداً عنا مع زوجتي صوفي ، وأن تنعزلا لأطول وقت ممكن من أجل استعادة الهدوء وإتمام الرحلة على خير ، وفعلاً تمت التهدئة . ولكن بعد الغداء عاد التوتر أكثر وأكثر إلى الجو . .

صخر قال لأخيه بدر أثناء الغداء بالإنكليزية :

– هل تسمح رجاء بتمرير طبق السلطة .

– طبعاً .

باهر أطلق ضحكة رعناء ، ثم قال :

– دير بالك تتفلسف هيجي كدّام جماعتنا ترة يعفطولك؟

ابتدأ القرف منذ ذلك الوقت ، وفي طريق العودة ركضت سيارة باهر صامتة خلف سيارة مصعب التي تمشي متمهلة على طول طريق ترابي يؤدي من البستان إلى الشارع المعبّد . . كانت صوفي وليلى مع بناتها في سيارة مصعب ، والباقي في سيارة باهر . . لم يمكن ترتيب الأمر بغير تلك الصورة . . وشعرنا بالاحتقان يزول ويختفي لأن كل واحد منا غرق داخل نفسه . تأملنا شمس المغيب التي كانت تختفي خلف أعشاش اللقالق

المبنية على أبراج الضغط العالي طوال الطريق . سجا كانت معنا في تلك الرحلة . . وفي الطريق نبّهها صخر إلى لقلق يقف داخل عش كثيف فوق تلك الأبراج . . قال لها :

– شوفي سجا . . شوفي هذا اللقلق .

– هذا اللقلق يطير؟

– ما أدري؟

التفت أنا ، وقلت لها :

– إي سجا هذا اللقلق يطير .

– نونو مالته هم يطير؟

– لما يكبر راح يطير .

التفتتْ إلى صخر ، وقالت له :

– إنت هم راح تطير لعد وياها . . راح تطير ويه اللقالق والعصافير .

– وحدي راح أطير؟

تلفتت في جميع الإتجاهات للبحث عن جواب مناسب ، ثم أشّرت على نفسها ، وقالت :

– لا مو بس وحدك راح تطير . . هذا وهذوله راح يطيرون .

(١٢)

المكان: أكاديمية الفنون

الزمان: عام ٢٠٠٨

باهر أعاد مشهد القرف بعد أعوام قليلة عندما كان صخر قد كبر وأصبح يدرس في الجامعة . . وهناك في أكاديمية الفنون الجميلة التقى الأستاذ باهر ، الذي كان يدرس مادة النحت في الأكاديمية . رآه وشهد عليه يطارد بنات الكلية في كل مكان . . ويجمعهن حوله في أقل من دقيقة . . كان يحاول بجهد جهيد أن يشبه جيمس دين في شبابه . . ويرتدي سروال الجينز دائماً . . ويبدو أنه قد تأثر بشخصية ذلك الممثل الخمسيني ، وتركت فيه بصمات واضحة على ملبسه وطريقة تدخين السيكارة وتسريحة الشعر . . كلما رأيته كنت أتذكر الشاب كريم من خانقين صاحب مقهى صغير فى شارع حسان بن ثابت . . بقي هذا الحلاق محافظاً على تقليده لجيمس دين إلى يوم وفاته . . وهذا هو باهر مراهق آخر ، قصير القامة ، واسع العينين ، كبير الفم ، له سيارة بيجو مكشوفة قريبة الشبه بسيارة جيمس دين ، ويمشي متصابياً مقلداً له في نظرته التي تشبه نظرة كائن مأخوذ أو مؤجل .

يبدو أن تلك النظرات كانت تحقق أهدافها . . وله عينان مثل ذبابتين لا تلتصقان إلى على حلوى بشر آخرين . . فراح يطارد فتاة اسمها حنين يحبها صخر من طرف واحد . . كانت تأتي إلى الأكاديمية لزيارة صديقة لها من كلية التربية التي تداوم فيها . . وهذه الصديقة هي زميلة صخر في المرحلة نفسها . تكرر مع حنين ما حدث مع وندي أيام المراهقة . . فهو بالكاد يعبر عن إعجابه بها ، أو يفاتحها بحديث تقطّعه التأتأة ، ولكن آخر ما توقعه ، في النهاية ، أن يأتي باهر المتصابي ويقرأ لها كذباً أبيات شعر يدّعي أنها من تأليفه ، وأنه كتبها حباً بها .

قال لي صخر في تلك الأيام إن حنين بعمر ابنة باهر لو كان متزوجاً . قلت لصخر بأنه فعلاً متزوج يا ابني ، ورأيت طفلة تناديه بابا في محطة البنزين . . جارنا مصعب يهزأ دائماً من أفعال قريبه هذه ، ولكن باهر لا يبالي ويزداد طيشاً ، ويسد أذنه عن أي كلام يغمزه به قريبه مصعب من طرف قريب أو بعيد . . أنا طبعاً كنت أتحاشى رؤيته في بيت مصعب إذا ما عرفت أنه موجود عندهم في الشقة العلوية ، ولكن الحرب قامت ولم تنتهِ ، وزوجتي صوفي ظلت في دولش مع ابننا الثاني بدر منذ العام ٢٠٠٥ ، ولم يعد الخروج من البيت آمناً ، فكانوا كثيراً ما يدعونني إلى العشاء ، فأتفاجأ بقدومه أحياناً ، واستغرب وجوده المتكرر هناك ، وأحاول اختصار الزيارة إلى أقل

وقت ممكن ، أو على الأقل أبقى صامتاً خلالها .

كان من المفترض أن يكون المشي في الصباح وقت الربيع لصخر مع حبيبته حنين بين حدائق الأكاديمية وتماثيلها الشاخصة بين الأشجار ، ولكنّ صخراً رآها تتمشى مع الأستاذ باهر المتصابي . . قصير القامة وصاحب الحركة المتكررة في الكلام . . وهي رفع يديه إلى أعلى وعكف السبابة والوسطى إلى أسفل . . للدلاَلة على التنصيص بين قوسين أو مزدوجين كما يسميهما هو . . حركة تليق بالشباب ، ولا تليق كثيراً بعمره الذي قارب الخمسين عاماً .

قال صخر إن حنين فعلت هذا . إذن النساء كلهن يفعلن هذا . وأصبح ينظر الى الفتيات ساهماً بلا حماس .

(١٣)

المكان: البيت

الزمان: الآن

تحرك حزام الأمان من تلقاء نفسه قبل أن أصل إلى السيارة . . عزوت هذه الحركة إلى الهواء . . ولكن الحزام تحرك حتى بعد أن فتحت الباب الخلفية لآخذ بعض الحاجيات . . ابتعدت قليلاً عن السيارة ثم التفتُّ إلى الخلف . . خفت أن أرفع نظري إلى الحزام مرة أخرى . . نظرت فقط إلى المقعد الخلفي من السيارة ، لأني نسيت هناك هاتفي قرب مظلة سوداء وضعتها تحسباً للمطر . . اتصل مصعب من أربيل عدة مرات . . مرة يقول بأنه عائد إلى بغداد ، ومرة يقول بأنه لا يريد العودة إلى بغداد .

كان من الممكن أن تمشي الحياة طبيعية لرجل مثلي عمل في البنك طويلاً ، ولديه الآن محل للصيرفة أو يضارب أحياناً في البورصة . تأملت ، نظرت إلى كل الترتيبات المحتملة والمختلفة لتفاصيل المشهد ، وتفاصيل الصورة ، وقلت لنفسي بأني إذا ما خرجت للعالم الفسيح من حولي ، فسيكون المشهد كافياً لتعديل الصورة ، أو ربما لتعديل قدرتها على ترك كل هذا

الانطباع المحزن . . وبناء على هذه الفكرة ، خرجت من البيت باتجاه شارع ضيق يتجه نحو الشارع الرئيس الذي استعمله للذهاب إلى طبيب الأسنان ، ومررت بكل الأرصفة التي تحولت الى أسواق وأكشاك وبسطات .

المرأة دخلت الى السوبر ماركت واشترت لابنها كيساً من رقائق البطاطا . . والصباغ صعد يصبغ عمود روضة اسمها زينة الحياة باللون الأبيض . . وبائع المواد الانشائية علق لوحة قرآنية في واجهة المحل . . ومصلح المدافئ النفطية مسح غطاء المدفأة بخرقة من قماش البازة . . وهذا ما يفعله دائماً بعد أن ينجز مهمته بإتقان .

عند بائع الخضار كانت النسوة يتكوّمن فوق السلال والصناديق ، يعزلن الفواكه والثمار ، ويكررن الأسئلة عن الأسعار ، والبائع يكرر كلامه عن أثمان الخوخ والإجاص والكمثرى والموز والبرتقال ، ثم يأخذ النقود ويضعها في جيبه المدفون داخل دشداشته . . في محل آخر لوكيل الحصة التموينية كان الرجال يتزودون بأكياس الرز وكرتونات الزيت وكونيات الطحين .

أجريت بانورما لأسناني وطلب مني الطبيب أن انتظر دقائق حتى يفعل البنج مفعوله ثم يبدأ الحفر لوضع الحشوة البيضاء ، وبعد ثلاث ساعات خرجت من العيادة وتوجهت إلى البيت ، فوجدت الصباغ قد أنهى عمله ، والبقال قد غطى

السلال التي تكاد أن تكون فارغة . . ومصلح المدافئ النفطية قد أغلق المحل . كل شيء من حولي انقضى بعد أن درت دورة كاملة حول المكان ، ولكن همي على صخر موجود ولا ينقضي كذلك الجندي الجالس في مكانه منذ أن خرجت من البيت وحتى عدت إليه . . . تبادلت السلام معه ، ومع بعض الرجال الذين يخرجون من الصيدلية المقابلة لبيتي ، ويحملون الأدوية والعلاجات في أكياس شفافة وبشعة المنظر . .

تأملت كل مشهد رأيته ، فلم يعدل الصورة . . بقيت الصورة حزينة وتعتصر القلب ، لأني رأيت كل شيء وحدي دون صخر . . صعدت وعدت إلى حافة النافذة من مسكني ، وحدقت إلى أسفل ، ولكن مع حزن وضيق أكثر من ذي قبل . . بدت صورة الشجرة مروعة ، ونوافذ البيوت شاغرة ، وأبوابها عيون مغلقة . . كل حالة يمكن أن تحدث لغيري لا تشبه حالتي . . وكل الاحتمالات مفتوحة ، وأصبحتُ أفكر بالموت كثيراً . . وأتذكر ما كنت أقوله لصوفي دائماً . . تأكدوا من موتي قبل أن تدفنوني ، وأتركوني يوماً كاملاً أو يومين فربما استيقظ من الغيبوبة . . وعلى هذا المنوال كانت تتداعى أفكاري . أفكر مثلاً إذا حدث أن استيقظَ شخص أعلن الأطباء موته من حالة اللاوعي التي كان فيها . . فيجب في هذه الحالة أن تجهز أبواب ثلاجات المشرحة بمقابض لفتحها من الداخل .

بقيت شهراً هناك في دولش . . لم يكن ينبغي أن أبقى

طيلة شهر هناك؟ لماذا بقيت شهراً هناك؟ لأن صوفي كانت تريد شراء بيت جديد ، وبدر على وشك التخرج من كلية الطيران التي داوم فيها ثلاث سنوات . . وكانت تريدني أن أحضر حفل تخرجه ، وأنا أيضاً أريد حضور حفل تخرجه . . وكذلك صخر الذي كان في سنته الرابعة من أكاديمية الفنون الجميلة ، ولكن امتحانات الدور الثاني على الأبواب ، فقال لي اذهب أنت وسألحق بك بعد الامتحانات فأنا أيضاً مشتاق لأمي ولبدر . .

تلقيت في ذلك الوقت رسالة إلكترونية من صوفي تقول فيها : ما يزيد على العام وأنا أنتظر منكم القدوم إلى بريطانيا والبقاء فيها . . أسمع أخباراً مهولة في التلفزيون ، ويوم أمس قالوا في السي أن أن إنّ انفجاراً حدث في الوزيرية قرب السفارة التركية ، أي في المنطقة التي يداوم فيها صخر بالضبط . . حاولت الاتصال بكم ولم أفلح لأن المطر كان غزيراً عندنا وعندكم ، وستقتلونني بإصراركم على البقاء في مكان خطر للغاية كبغداد لمجرد أن صخراً يريد إكمال سنته الأخيرة في الجامعة . أوَ تظن أنه يدرس الطب أو الصيدلة يا إبراهيم لكي لا يضحي بسنة أخيرة؟ ، أم تعتقد أنه لا توجد كليات للفنون الجميلة في لندن؟ . خالته سوزان أصلاً تعمل في هذا المجال ، وتستطيع ترتيب قبول له في قسم النحت أو الرسم . وكل ما نحتاج إليه هو موافقته على ملء الفورمات الخاصة بذلك .

شقيقتي هدى أيضاً كتبت لي على الإيميل ، وقالت إنها تكاد تجن من القلق علينا . . وإن هناك مجنونة أخرى هي أمي حبيبة التي ترفض المجيء إلى أمريكا ضمن برنامج لمّ الشمل . . لا تعرف كيف تفضل المعيشة في بغداد مع كل هذه الأخطار والمآسي . . لديها نخلة إذا لم تثمر هددتْها بأنها سوف تقطعها وتحمل معها الفاس لكي تراه النخلة وتخاف منها . . وتعتقد فعلاً أن هذه الطريقة قد جربها كثير من الناس ، فكانت النخلة تثمر في السنة التالية . هل أنتم مجانين؟ . . أنتم مجانين أكيد ، لأن أمي سألتني على الهاتف :

- أكو عدكم جهال يلعبون بالشارع؟

- لا .

- أكو نسوان رايحات جايات لهاشم أبو الخضرة؟

- لا .

- أكو شباك لما تفتحه تسمع هوسة البلابل والعصافير؟

- لا .

- أكو ريحة تنور جاية من حديقة الجيران؟

- لا .

- أكو عربانة نفط تفوت بالشارع .

- لا .

- أكو شجرة رارنج بالحديقة؟

- لا .

فقالت لي أمي ما قالته شويكار لفؤاد المهندس :

– تبقى لاس فيغاس دي مش من مستوايه .

لا يمكنني أن أضحك الآن ، كما ضحكت حينئذ ، ولكن يمكنني أن أتذكر الآن كل سطر وكل كلمة قالتها لي أختي الصغرى في ذلك الإيميل : انتقلتُ يا إبراهيم إلى لاس فيغاس ذات الجو المعتدل . . كل العراقيين يتواجدون في مشيغان ، وأنا أكره مشيغان لأنها باردة . . الآن يمكنني أن أسحب قريباً من الدرجة الأولى هي أمي ، ويوم أمس كان زوجي سامر يستقبل أخاه سلام الوحيد المتبقي من عائلته في بغداد . . فأرجوك يا إبراهيم أقنع أمي بالسفر . . أنا وندى ونهلة في أمريكا ، وإسماعيل في رومانيا ، واذهبْ أنت ايضاً إليى بريطانيا ، ليكون صخر مع والدته وأخيه بدر .

– ما أخباركم يا إبراهيم؟

– لا شيء جديد . . ما أخبارك أنت؟

– الهواء بارد . . وكل الطيور مختفية والكلاب ملتفّة على نفسها . . وهنا قد تتوقع أن لا يسير أحد في الشارع ، ولا أن يتحرك البشر من مكان لآخر . . ولكن الازدحام شديد جداً ، لأن الكرسمس على الأبواب ، ما أخباركم أنتم؟

– لا شيء جديد . .

أتذكر كل سطر وكل كلمة قالتها صوفي أو قالتها هدى وأنا ألوم نفسي . . فعلاً كان الوضع خطراً علينا وعلى صخر بشكل

خاص ، وعناده لم يكن له مبرر سوى أنّ من يعيش داخل الخطر لا يشعر به . بقيت أرفض السفر بسبب صخر الذي تعلق بجدته وملائكتها وكل شيء من مستواها ، ولو أن مليون شخص حاولوا إقناعه بالبقاء في إنكلترا لما أفلحوا . . وكل عام يصبح لديه عذر جديد يتحجج به من أجل عدم المغادرة . . مرة كانت سجا ، ومرة أصدقاء في الكلية يحبهم جداً . . ومرة كانت حنين ، إلى أن جاء يوم وقال لي إنه لم يكن من السهل عليه أن يتحول من مسلم إلى ملحد ، وهذا ما شعر بأنه سيحدث إذا ما بقي في دولش . أنا أيضاً كنت أخشى حدوث ذلك لو كان قد عاش في بريطانيا . . صحيح أن جدته حبيبة نبذت هنا كل نظام علّمته إياه أمه صوفي ، ولكنه على الأقل لا يزال مؤمناً ، ومن الصعب عليه أن يتخلى عن إيمانه . مثلما كان من الصعب جداً عليه أن يفارق أخاه التوأم . . كنت أعرف أنه لا يستطيع أن يبتعد عن بدر الذي يرى فيه صورته عندما ينظر إليه . . أخضر العينين عالي الجبهة نحيف الوجه مع كثافة في الشعر ورموش العينين . . ولم يكن مفهوماً لي كيف استطاع ذلك . . ذهبنا جميعاً على أساس أن نبقى هناك ، ولكنه طيلة أشهر بقائنا هناك ظل يتذمر ويتذمر ، وبعد عام واحد قرر ترك أمه وأخيه التوأم بدر والعودة سريعاً إلى بغداد . . .

سار مع أخيه التوأم في عرض الشارع كمراهقَين ورقص بدر الهب هوب وغنى الراب ، وصخر ظل صامتاً طوال الوقت .

بدر أيضاً يستطيع تقليد أصوات البلابل والعصافير وبعض الطيور . . ويستطيع كأي (رابر) تلحين كلمات جريئة ووضع موسيقى عليها من خلال برامج كمبيوتر جاهزة ، وغالباً ما يستخدم أي لفظ بدون أي تحفظ . . كان يؤدي قوافي الراب في الطريق بإيقاع أو بدونه ، وصخر يحتل المنطقة الرمادية بين الكلام والسكوت . هنا طرأت لبدر فكرة تجربة مثيرة عثر عليها على الإنترنت ، وهي أن يعالج أخاه التوأم عن طريق أغاني الراب . . كانا يجلسان معه في غرفتهما في الطابق العلوي ، ويطلب منه أن يعطيه ورقة مكتوب عليها الكلمات . . صخر ضليع بالأسماء والكلمات . . وله كتابات وأشعار جميلة ، لم يكن يجرؤ على إلقائها أمام أحد بسبب لعثمته في الكلام . .

كلمات صخر كان بدر يلحنها عن طريق برنامج في الكومبيوتر ، فإذا ما غناها وحده تلكأ وتلعثم ، وإذا ما غناها بدر معه زال التلعثم تماماً . أحبَّ صخر هذا العلاج عن طريق الأغاني واستمرا يجرّبانه في العام الذي بقينا فيه في دولش ، ولكن جاءت وندي وخربت كل شيء في النهاية . . لاحقته أل التعريف إلى هناك . . صخر الأسمر الذي يتأتئ في الكلام أحبه الجميع طفلاً في العربة ، ولكنه الآن العربي الذي طرده جان أخو وندي من بيته . في البداية نظرتْ إليه وندي ذات الخمسة عشر ربيعاً ، فاستكان لخوفه من الكلام . . وعادت إليه لعثمته أقوى من الأول بأضعاف مضاعفة . . لا أدري لماذا

حدث ذلك بعد إصرارها على جمال سحنته السمراء؟ ، ولماذا عاد إليه خوفه من الكلام؟ ، فاكتفى بالصمت ، وأحبها من بعيد . وعندما يكون مع مجموعة كبيرة من الاصدقاء . . فإنه يجلس صامتاً لا يتحرك من مكانه في الكهف ، بينما وندي لا تكف عن النظر إلى الجميع . . تتحرك فيتحرك العالم معها . . تتحدث وتضحك وتدور عليهم واحداً واحداً ، فلا تجده هناك بينهم . . إنه يجلس متكوراً على نفسه مرتدياً فروة الدب أو الأسد . كأنهم الألوان الزاهية لأشجار الخريف ، وهو ظلها الأسود .

مثل هذه المواقف قد تكون مدمرة لفتى مراهق ، ولم أستطع إقناعه باستمرار التردد على أطباء النطق والتخاطب والتنفس ، كان يظن ذلك نهاية العالم ، ولا يمكنه أن يعرف أو يكتشف في ذلك العمر أن كل هذا الإحساس مبالغ به ، وأنه لا داعي لكل هذا الخوف من أن يكون مراقَباً من الآخرين . . أو أن يقيس تصرفاته بمقياس عيونهم ونظراتهم . . . إلا أن صخراً لم يكن في سن الكهولة ليعرف كل هذا ، ولا قارب الخمسين من العمر مثلي . . كان في الخامسة عشرة ، ولا يعرف من الدنيا غير وعيه الغض ، وخجله من الكلام . . ولولا إلحاح أمه صوفي بالبقاء لعاد إلى بغداد في اليوم التالي من رحلة القطار . .

(١٤)

المكان: دولش- بغداد

الزمان: ٢٠٠٥- ٢٠٠٦

قبل حادثة القطار حدث شيء بعث الأمل في نفوسنا ، وتوقعنا أن يعدل صخر عن قراره بالعودة . . . رأى وندي قادمة من بعيد ، وهي تضحك . . خرج من البيت ، وتحدث معها بدون أن يشعر بالخجل . . وكادت أن تكون هذه النزهة أول تطبيق عملي لتجربة بدر معه في التدرب على الكلام عن طريق الراب . . ابتعدا عن بيتنا الذي يقع في ضواحي دولش . . وتجول معها في الحقول الخضراء التي تحيط بالبيت . . ثم عادا بعد قليل . . . كانت الحدائق معطرة بروائح الربيع حيث الأرض يذوب عنها الجليد ، والأبقار تكلأ من العشب ، والحوذي يقوم بتمشيط الحصان .

عندما عادا إلى البيت ، وعلى ضوء من نوافذ المطبخ المقابل ، رأتهما صوفي يسيران باتجاه بيت وندي . . لم تكن صوفي تلصص عليهما ، ولكنها كانت سعيدة بأن تراهما يمشيا معاً ، وينظر كل واحد منهما إلى الآخر ، ودعتني أنا أيضاً للنظر إليهما . لم يستطع الغروب أن يخفيهما عن الأنظار ، وهما

ينظران إلى بعضهما البعض ، ويسيران يداً بيد . . هنا خرجت كيت أخت وندي ، ووقفت على عتبة بيتهم لدعوة شقيقتها وندي إلى الشاي مع صخر . اعتذر صخر ، لكن وندي ألحّت عليه ، وجرّته من يده لكي يصعدا عتبة البيت من الشارع . . كنا أنا وصوفي ننتظر لنرى ماذا سيحدث ، فقد يكون هذا التحول سبباً في أن يغير صخر رأيه ويبقى في إنكلترا ، وإذا بقي هو بقينا جميعاً معاً . انبعث الضوء من الباب الذي فتح نصفه .

جان شقيق وندي جاء في تلك اللحظة . . كان عصبياً دائماً ويحب أن يطاع ، وما أن دخل البيت حتى انطلق بالصراخ على أخته التي جاءت بهذا العربي الأسمر للبيت . .

– ماذا يفعل صدام حسين هنا؟

أنا وقفت إلى جانب النافذة ألعن هذا الحظ السيّئ . قبل يومين نهره طالب متنمر في المدرسة قائلاً ابتعدوا عن هذا الإرهابي . . إنه بن لادن ، وقد يفجر نفسه ، والآن ينعته جان بصدام حسين . . ولم أنتظر ماذا سيفعل صخر . . في الضوء الشحيح خرجت إلى الشارع ، ولم يكن هناك ما أراه سوى يد صخر المرفوعة للأعلى ، يدفع بها جان شقيق وندي إلى الأرض ، ويقول له :

– سأقتلك إذا كررت مثل هذا الكلام؟

– كما قتلتم أبي الذي ذهب هناك ليدافع عنكم؟

- أكيد إنه غبي مثلك .

عبر صخر إلى بيتنا في الجانب الآخر من الشارع . وبعد قليل جاءت الشرطة للإمساك به ، ولولا صداقة صوفي مع أم وندي ، لما أسقطت الشرطة تهمة التهديد اللفظي عنه ، وأخلت سبيله على مسؤوليتها . . بعد ذلك بثلاثة أيام سافر صخر بالقطار مع وندي وبدر ومجموعة من الأصدقاء ، نزل الجميع إلى لندن بالقطار من أجل لعبة لكرة قدم . . علّقت صوفي على شعر بدر الأزرق بأنه جميل ، وطالبت صخر بأن يفكر بالاعتذار عن تصرفه غير اللائق مع أخ وندي . . كانت لا تزال منزعجة من ردة فعله على كلمات سخيفة قالها جان ، وذّكرني كلامها بيوم بعيد من منتصف الثمانينيات ، وتحديداً في العام ١٩٨٦ ، إذ سألتُ صوفي قبل الزواج ماذا أهديها في هذا اليوم؟ قالت لي بغضب لا أريد شيئاً ، وإلى هذه الدرجة لم تستطع تخفي انزعاجها ، لأنني لم أتصرف بشكل مناسب ، وأفاجئها بهدية تدل على إني أعرف ماذا تحب .

ولا أدري ماذا حصل في القطار . . لم يخبرني بدر ، ولا تحدث عن ذلك صخر ، وأردت سؤاله أكثر من مرة ، ثم لم أفعل . . فقط رجحت بأنه ربما يكون قد ضرب أحداً آخر بعد أن عاد وهو مكتئب المزاج . . وظننت أن مزاجه سيتغير بعد يوم أو يومين . . ولكنه أصبح يعد الأيام بانتظار عودتنا . . يخرج ويعود دون أن يغادر مساحة غير مرئية ظل موجوداً فيها خلال سنة

دراسة واحدة هي الصف العاشر الذي داومه مع أخيه بدر ، بحيث لا أعرف كيف صبر حتى انتهاء العام الدراسي ، لكي يبلغني قراره بالعودة النهائية . . ولم نعرف ماذا نفعل إزاء إصراره على العودة الى بغداد في العام ألفين وستة ، أي بعد عام واحد من مجيئنا جميعا إلى دولش عام ٢٠٠٥ .

عم الارتباك الجميع ، وكادت صوفي أن تفقد صوابها من هذا القرار الأخرق ، وبقيت منزعجة طوال الحفلة التي ذهبنا إليها قبل عودتنا الأخيرة إلى بغداد . في وقت الاستراحة زاد انزعاجها بحيث وجدت غطاء قنينة المياه المعدنية صعب الفتح ، مما جعلها تلتفت إلي ، وتسألني :

– هل يدك نظيفة؟

استغربت سؤالها ، وقلت لها :

– نعم . نظيفة .

– هل أنت متأكد؟

– لماذا؟

– أنتم الرجال لا تغسلون أيديكم بعد التبول في الحمام .

يبدو أن الشيب وحده هو الذي أنقذني من ردة فعل أخرى غير الهمهمات بين جمهرة من الشباب والمراهقين كانوا يقفون على مقربة منا . همستُ لصخر بأن يأخذ قنينة الماء من أمه ويفتحها ، فإذا بصوفي التي لم تعد تسمعني من شدة العصبية ، سمعتني هذه المرة ووجهت لي نظرة حادة ، وقالت لي :

– ماذا تريد من صخر؟ ما بك يا إبراهيم؟

– أريده أن يفتح لك قنينة المياه المعدنية فأنت عطشانة .

– ولماذا لا تفتحها أنت؟

– حاولت فتحها ولم أستطع .

– هاتها لأفتحها لكم .

لم تستطع فتحها حتى بعد أن وضعت منديلاً ورقياً فوق الغطاء ، وكزّت على أسنانها المصفوفة ، وقطبت حاجبيها الأشقرين . أشهرت جميع التجاعيد حول فمها وعينيها دون أن تستطيع نزع غطاء القنينة . قال لها صخر :

– هاتِها ماما لأفتحها لك .

– لم يبق الكثير من الوقت وتنتهي الحفلة . . هيا نخرج من هنا .

تكهرب الجو بقية الأيام ، وجاءت نهاية الصيف ، وأصبح ظلام الليل يهبط حتى قبل أن نجلس حول المائدة في التي تايم . . أيلول أجمل شهور العام حوّل فضاء السماء فوقنا إلى غواش لا يتغير لونه ، ويكاد يكون البنفسجي باستمرار . . مصابيح الشارع خافتة ، والهواء بارد يصفع وجوهنا ويلدغ أجسامنا أول ما نخرج من الباب المطلية باللون الأصفر اللماع ، وهي الباب التي وقف الجميع قربها قبل السفر لالتقاط الصورة . . الباب الخشبية تليها باب شبكية مصنوعة من السلك لمنع السناجب والزواحف من الدخول إلى البيت في

حال فتح الباب الأول . . صوفي هي التي صعدت السلم وصبغتها بنفسها من أجل الصورة ، والآن تبدو في غاية الجمال خلفي وخلفها والتوأم صخر وبدر . . وانتظر الجميع أن تنقر خالتهما سوزان على زر التقاط الصورة .

– سَيْ تشيز .

صخر كان صامتاً لا يبالي بالصورة . . وبدر الذي كان قد ثقب شفته وأذنيه ووضع فيها حلقات معدنية . . ظل يردد أغنيات الراب بقرب الباب الخشبي ، وما أن التقطت سوزان الصورة حتى وضع السماعات في أذنيه ، وانطلق يلملم سترته ، ويحرك جسمه في حركات إيقاعية مبتعداً عنا خلال الممرات الموحلة بين البيوت . . عام واحد أمضيناه سوياً على مائدة البطاطا المهروسة مع الجزر المسلوق وفوقهما مرقة لحم البقر . . ثم حدثت أمور أخرى كحادثة القطار التي جعلت صخراً ينزوي ، ولا يحاول أن يكلم وندي مرة أخرى . . . . وبعد أن انقضى الصيف في نهاية أيلول عام ٢٠٠٦ عدنا أنا وصخر إلى بغداد بشكل نهائي .

في ليلة السفر من دولش إلى بغداد بدا صخر مرتاحاً وكأنه سيخرج من النار إلى الجنة ، بينما العكس هو الصحيح ، إذ كنا ذاهبين أنا وهو من الجنة إلى النار . . وفي هذه الجنة اغتنمتُ ليلة أخيرة من صوفي الجميلة عندما هدأتْ أخيراً ، وسمعتها تردد بالعربية مثلاً من أمثال أمي :

– لا فائدة يا إبراهيم من إشعال أصابعنا عشرين شمعة

لصخر . . إنه يريد البقاء في بغداد . . فلندعه يفعل ما يريد . .

هنا قلت لها أقلد لهجتها العربية المكسّرة ، وهي تخلع منامتها لتدخل الفراش :

– لماذا لا أشعل لك أنا الشمعة الواحدة والعشرين . .

تلك آخر ليلة قضيتها مع صوفي في السرير الدافيء . . أعادت لي نشوة غائبة شبيهة بتلك التي أحسسنا بها بين صفارة إنذار وأخرى بعد بدء الحرب . . لا أشعر الآن حتى بأني اشتاق لصفارات الإنذار أو أفتقدها . . لم يعد أحد يزورني . . روحي غائبة . . ثلاجتي فارغة . . أغراضي مبعثرة . . لدي العديد من الزيارات لكي أقوم بها لبعض أصدقائي المخضرمين ، وأصدقاء آخرين تعرفت عليهم . . لديهم أولاد يبحثون عنهم بين السجون . . . . صعب عليّ القيام بمواساتهم . ولم يعد بإمكاني التفكير سوى بفقدان واحد هو فقدان صخر . . وحتى وإن جاء النسيان فإنه فقط يمحو من بالي حبة دواء ، أو تعليق مصباح . . أما صخر فالجميع يختبئ خلفه ، وكل شيء يختل بسببه . . الواشر يختفي خلف صخر ، وملعقة الدواء تختفي خلف صخر ، وحنفية الحديقة المكسورة أيضاً تختفي خلف صخر ، وإذا ما أردت أن يصفو بالي ، فيجب عليّ أن أزيح صخراً . . وكيف أزيحه وبي شوق كبير إليه ، ولا أعرف كيف حدث ما حدث؟

(١٥)

المكان: مكان صوفي

الزمان: لحظة صوفي

إبراهيم يشبه هواءً ساخناً شديد الرطوبة . . ما إن يرتطم بزجاجة ما حتى يتحول إلى قطرات ماء . . الزجاجة التي تجعله يذرف الدموع قد تكون منظر شحاذ كبير في السن ، أو امرأة حامل في شهرها التاسع ، أو ابننا صخر الذي يتأتئ في الكلام . . إبراهيم ليس لديه حل وسط ، أما عصبي ثائر على أتفه الأسباب ، وأما حنون وعطوف إلى حد البكاء ، وأنا لم أكن أريده أن يجعل من صخر مادة للعطف والشفقة . . كنت أريد أن يجعله يشعر بأنه طبيعي كباقي الأولاد ، وأن يدرس عاهته ، ويواجهها بشجاعة ، وأن يتمسك بالأمل مثل أي إنسان آخر صاحب مشكلة كبيرة ، لأن الأمل هو الذي سيجعله يرى نفسه بصورة أفضل ، ويعيش حياته سوياً مثل الآخرين . . إبراهيم كان يقول لي أنت أكثر صلابة مني . . واقعية حتى النخاع ، قليلة البكاء ، ومهذبة السلوك والكلام إلى الدرجة التي تبدين فيها ، عندما تتحدثين ، وكأنها مندوبة شركة أدوية لا تكف عن الابتسام . .

واقعية نعم ، ولكنني أقل صلابة مما يعتقد ، وقضيت أياماً صعبة أنتظر الزيارة السنوية بين صيف وآخر ، وأشعر بالذنب ، لأني هنا أعيش في أمان وافر مع ابننا بدر ، وهناك في بغداد يعيش زوجي مع ابننا الآخر صخر ، وأنا بينهما لا أعرف الرجوع ولا البقاء . . فقط كنت أظن أن صخراً سيقرر المجيء في أية لحظة ، وعليّ البقاء هنا في انتظاره . . . لا أن أفعل العكس وأعود إلى بغداد فأشجعه على البقاء فيها . في العام الفين وعشرة اجتمعنا ، كما هو الحال في كل صيف . وبمناسبة اجتماع شمل العائلة المنقسمة إلى شقين . وقفنا جميعنا نلتقط الصورة الجماعية المنتظرة قرب باب بيتنا الصغير في دولش . . وكان بدر يريدها صورة مطابقة للصورة التي التقطتها لنا أختي سوزان في العام ٢٠٠٦ .

ولد التوأم في هذا المنزل قبل اثنين وعشرين عاماً ، وما أن خرجت بهما من المنزل إلى الهواء الطلق ، حتى استوقفتنا العجائز ، وانتشر صيتهما في المنازل المجاورة . . فالتوأم متطابقان من ناحية الشكل والملامح ، ولكنهما مختلفان تماماً من حيث لوني البشرة . صخر هو الطفل الأسمر السمين ، وصقر هو الأشقر الذي تغير اسمه إلى بدر بعد ولادته بأيام . أراد إبراهيم أن يحمل التوأمان اسمَيْ صخر وصقر ، وبما أن الاسمين سيتشابهان نطقاً وكتابة عند تلفظهما بالإنكليزية ، فقد أبقى على اسم صخر كما هو ، وصقر هو الذي تحول اسمه إلى بدر .

وقف الجميع قرب الباب الخشبي المطليّ بطلاء أصفر لماع . . تليها باب شبحية لمنع السناجب من الدخول إلى البيت في حال فتح الباب الأول . . أنا التي صعدت السلم وجددت صبغها بنفسي من أجل أن تكون باللون الذي كانت عليه في الصورة السابقة التي التقطناها في العام ٢٠٠٦ . . وقف التوأم صخر وبدر أمامنا في المقدمة كما فعلا في تلك الصورة التي التقطتها لنا أختي سوزان قبل خمسة أعوام . . ارتديا ألواناً شبيهة لألوان الملابس الأولى ، وعاد الباب أصفرَ اللون من أجل الصورة الجديدة التي تسمى (ريميك) للصورة القديمة ، وهي نزعة كانت سائدة في الفيسبوك تلك الأيام . . وانتظر الجميع أن تنقر خالتهما سوزان على زر التقاط الصورة وتقول سَيْ جيز كما حصل في المرة الأولى .

أختي سوزان تعمل ماكيرة لنجوم ونجمات السينما ، والرسائل لا تنقطع من الورود إلى موبايلها الجديد المضاد للصدمات والماء . . ولكن في اللحظة التي همت فيها بالتقاط الصورة الجديدة هب الهواء العالي بشكل مفاجئ ، وسقط الموبايل من يدها ، فتهشم على الأرض من أول صدمة تعرض لها ، وهذا شيء غريب فعلاً أن يحدث لموبايل غالي الثمن ، والأغرب منه أن تلك الصورة التي تسمى بالريميك لم تلتقط بعد ذلك .

سقطت أشياء صغيرة أخرى حرّكتها الريح العالية ،

وتبعثرت أوراق الأشجار على الأرض ، وتساقطت نتف القرميد من سقف البيت . . ذهبت أنا لإعداد وجبة التي تايم في المطبخ ، فذهب البرد ووصلت رائحة البطاطا المقلية مع شطائر الدجاج إلى إنوف الجميع ، وعندما جلسنا أخيراً إلى المائدة طلبت منهم للمرة الألف أن لا يعودوا إلى بغداد مرة أخرى . . قال لي إبراهيم إنهم قد اعتادوا الوضع هناك ، ولا شيء يستدعي القلق ، فقلت له غاضبة :

– دعك عن الأمان والخطر . . بغداد لم تعد بغداد ، ولا أريد لصخر أن يكبر في هذا المكان البائس كما يكبر من لا يستطيع السفر ، وستمر السنوات وأنتما تتأقلمان مع هذا المكان وتتشابهان معه في الفشل والفوضى . . . ستشيخان وتهرمان يا إبراهيم قبل الأوان ، وتتحولان إلى هباء مثل الغبار والتراب .

سافر إبراهيم وعاد إلى الغبار والتراب ، ومعه صخر الذي كان سعيداً وهو يعود إلى بيتنا هناك في كرادة مريم . . القريب من الصيدلية ودار المسنين ومستشفى الولادة . أتذكر كيف انتقلنا إليه في التسعينيات ، وشذّبنا حديقته التي كانت أشجارها تملؤها العصافير كل صباح ، وكيف كان يوجد خط مائل فوق الباب الخارجي لحديقة العمارة . . لا تستطيع القطط تسلقه ، فتأتي وتنزلق عبر الفتحة السفلية التي تفصل بين الباب الخارجي وأرض الحديقة . لم تكن القطة الوحيدة التي تبقت من أيام الحرب تدرك بأن بطنها المنتفخ بسبب الحمل

سيعيقها عن الزحف من تحت الباب . كانت معتادة على هذا الفعل وظلت تواصله بصعوبة شديدة فأُشفق عليها ، وأفتح لها الباب لكي تدخل منها . تحب التكور فوق الطين البارد في حديقتنا وقت الظهيرة . . ومنعت ابراهيم بسببها من رش حديقتنا بالمبيدات . .

تغيرت الأمور وظلت تتغير وتتدهور . . . وكم غريب . . غريب جداً أن أجد النسوة يتغيرن خلال عشر سنوات من شكل جميل إلى شكل أقل جمالاً . . أصبحن يختبئن خلف أثواب عريضة أو سوداء . كل امرأة تتوارى ، بطريقة أو بأخرى ، خلف ثوب أسود طويل يكنس الأرض بذيله ، أو خلف ملابس فضفاضة لا تكشف عن شيء . . وأنا أيضا يجب أن أتوارى خلف الباب خوفاً من عصابات ومسلحين وغرباء . .لا أريد حتى للنسوة أن يروني في الباب . . بنات وحوامل وعجائز ما أن يمرون بقرب إبراهيم حتى يسلّمن عليه ، وقد يسألْنه عني وعن بدر وصخر ، عارفات أنهن قد وصلن إلى المكان الصحيح الذي يدخلن منه إلى الصيدلية وبأيديهن روشتات الدواء المطوية .

الوحيدة التي كانت تحتضنني وأحضنها باستمرار هي سجا . . تلعب من الصباح حتى الغروب . وعندما يعود صخر من المدرسة تحب هذا وتلعن هذوله . . (هذا) هو صخر الذي يلعب معها ، يحنو عليها . . و(هذوله) هم جميع الجيران الذين

يسخرون منها ، ويضحكون عليها ، وأولهم ابن الضابط الذي انتقدتُه وانتقده جارنا مصعب ، لأنه كان يحمل بندقية الصيد وهو صغير ، والآن أصبح كبيراً ويحمل سلاحاً حقيقياً .

بدأت الحرب تبدي العيوب . . وكل يوم يتبدى لي عيب جديد أراه . . وتوفي بعض الذين كنت أحبهم جداً من العائلة كالحاج عبد اللطيف والد ابراهيم . . قرّرنا المغادرة بعد عامين من الحرب . . ولم يرضَ صخر بالبقاء في إنكلترا ، فعاد مع إبراهيم إلى بغداد . . ومنذ ذلك الحين وهما يجيئان في زيارات سنوية إلى إنكلترا . . يعودان بعدها إلى بغداد ، ويبقى بدر هناك معي في دولش . بقينا على هذا الحال خمس سنوات إلى أن جاء العام ألفان وإحد عشر ، فجاء إبراهيم وحده إلى دولش على أن يلتحق به صخر فيما بعد . . ولم يلتحق به صخر بعدها ، ولا أدري هل جننت لكي أتركهما يفعلان ذلك . . لا أتذكر كيف غاب عقلي عني وانصعت لرغبة صخر في عدم المجيء مع إبراهيم ، وتركه وحيداً في البيت .

(١٦)

المكان: مكان إبراهيم

الزمان: لحظة إبراهيم

فعلتُ كل شيء من أجل العثور على صخر . . وبعد أن سمعت بحكاية فيصل الذي لم يعرف أهله بسجنه حتى مات في السجن ، فكرت أن صخراً قد يكون في السجن لا يعلم به أحد ، وليس مخطوفاً من عصابة ارتدت ملابس الشرطة كما يقول عصمان . . قررت أن أبحث عن حالات مشابهة لحالة صديقي فيصل ، والذي روى لي حكايته صابر صديق بائع الخضروات في منطقتنا بكرادة مريم . . كان صابر نزيلاً للسجن مع فيصل ، وهو الذي أخبرني بقصة سجنه التي تكررت مرتين .

صابر استأجر سيارة تاكسي ، وأثناء سيره وقف عند حاجز أمريكي في مدخل منطقة التاجي ، وقد طلب الجنود الاطلاع على أوراق السيارة ، لكن لم يكن مع السائق أي أوراق ، فأخذوهما إلى مركز تابع لهم في المنطقة الخامسة ، ثم إلى معسكر اعتقال في مطار بغداد . قالوا إنه سيُجرى تحقيق معهما

ثم يطلق سراحهأ . بقي هناك ثلاثة أيام ولم يحقق معه أحد . وفي صباح اليوم الثالث أخذوه إلى سجن أبو غريب .

قالوا إنهم سيقتلوننا ، وانهالوا علينا بالضرب لدرجة أنني اعتقدت أنني سأموت . . ثم كسروا فكي ، ولا زلت حتى الآن أجد صعوبة في الأكل . . وضعوا الأكياس السوداء على رؤوسنا مرة أخرى ، وأمرونا بالنباح كالكلاب . . عذبونا بعد تقطيع ملابسنا بشفرات حادة . حتى ملابسنا الداخلية نزعوها عنا ، ثم أوقفوا أمامنا مجندة أمريكية وأمرونا من خلال مترجمهم بممارسة العادة السرية . لم نقبل في البداية فضربونا ، وبعد الضرب رضخنا لأوامرهم ما عدا فيصل الذي كان قد عاد إلى السجن مرة أخرى ، وكنت أسمع صوته وهو يصرخ ويقاوم ، فسحبوه وأخذوه إلى مكان بعيد تنبح فيه الكلاب . . يبدو أن الإعياء قد أصابه من الضرب ، فأعادوه من جديد . . الخوف تمكن مني فتظاهرت بالممارسة كي أنجو من العذاب . وضعوا يدي على رأس من الرؤوس . . لا أدري ماذا كانوا يريدون بالضبط؟ هل هو استعراض آخر لأجسامنا العارية يتم تصويره بالكاميرا ، أم أن هذا الرأس هو رأس المجندة التي تريد لقطة مخزية أخرى تجعلها تضحك ، وترفع إبهامها بالنصر؟ . . أمروني أن أستمني فوق ذلك الرأس ، ثم رفعوا الكيس عن رأسي فرأيت زميلي السجين فيصل مغشياً عليه تحتي ، وفيما بعد عرفت أنه قد مات .

عـرفت من صـابر أن فـيـصل في المرة الأولى أعـتـقل لاعتراضه على تحويل ساحة لكرة القدم في العامرية إلى مكان لدفن النفايات الحربية والأشلاء البشرية ، وكل ما تخلفه العمليات العسكرية الأخرى في مناطق جنوب بغداد ، وقد تسبب هذا بظهور أمراض جلدية وتنفسية على سكان المنطقة . وجعل فيصل يقوم بالتصريح لوسائل الإعلام وفضح الموضوع ، وظهرت صورته وهو يشكو ما فعل الأميركيون بالمنطقة والملعب تحديداً ، فما كان منهم إلا مداهمة منزله واعتقاله حسب رواية صابر . بعد فترة عصيبة قضاها في السجن تم إطلاق سراحه ، ومن هناك خرج من مؤيد للحرب الأمريكية على العراق إلى حاقد عليها ، ومن متهم مجهول تهمته بسيطة إلى متهم معلوم تهمته كبيرة وهي القيام بإطلاق قذيفة آر بي جي على قاعدة عسكرية أمريكية تطل على بحيرة الرضوانية القريبة من منطقة العامرية . . جثم في السجن هذه المرة فترة طويلة حتى جاءت الكلاب في أبو غريب وتركت الفضيحة في أعقابها وما حولها . .

أسترجعُ هذه القصة التي سمعتها من صابر ، ويصعب عليّ تصديقها . . أي انسان هذا الذي يقبل بترجمة مثل هذه الكلمات لمساجين عراقيين معذبين أمامه ، ويقول لهم هيا مارسوا العادة السرية؟ . . وأية جريمة هذه التي تستدعي هذا النوع من التعذيب الرهيب بدل الاحتكام إلى القانون؟ . . . .

من جهة أشعر بأن هذه القصص مبالغ بها لشدة قسوتها وغرابتها ، ومن جهة أخرى أشعر بالرغبة في تصديقها لعلها تقوّي في الأمل بأن هناك أبرياء يمكن لهم أن يمكثوا مدة طويلة في السجن دون أن يعلم بهم أحد . . . جعلني ذلك أغير مسار بحثي من وسطاء عصابات الخطف والقتل إلى السجون وأرباب السجون . . هذه القصص المأساوية هي التي أعادت لي رشدي ، وجعلتني أقلب الفرضية التي استمعت لها أول مرة . . عصمان هو الوحيد الذي رأى صخراً مقتاداً ومكتفاً يخرج من البيت ، وقد قال لي إنهم من رجال العصابات الذين يرتدون زي الشرطة . . فلماذا صدقته ، ولم افترض العكس ، اي أنهم رجال شرطة بالفعل ، ولكن يتصرفون كالعصابات؟ .

تجولت بين خلطة عجيبة غريبة من البشر تُلخّص حال طيف واسع من سجناء السياسة والجنايات ومعارضة النظام الجديد . . وكل من استطعت التوصل إليه يجعلني أردد مع نفسي المثل الإنكليزي القائل : نو نيوز كود نيوز . . . . لا تعرف أخبار صخر . . هذا يعني أخباراً جيدة . . يعني أنه لم يمت بعد . لا . . لا . . ليس هذا صحيحاً . . إنه يموت منذ شهور قاربت عاماً على اختفائه ، ومنعتُ أمه صوفي من العودة خلال هذا العام . . . . . فعلاً أنا مشتاق لها ولبدر . . . ومشتاق لأخبارهم . . بل محتاج لوجودهم معي ، ولكني أشعر في كل مرة تفتح فيها صوفي هذا الموضوع بأنه لم تعد تفصلني عن

صخر سوى خطوات صغيرة . . وعندما أعثر عليه سيكون لنا حديث آخر . .

تحت حوض المطبخ توجد بحيرة صغيرة تسبح فيها الديدان واليرقات . . وتعالي يا صوفي وشوفي ماذا يحدث في الشقة . . لم يعد يوجد هنا غير الزواحف والعناكب . . إنها تصعد باستمرار بشكل عمودي على الجدار . . من الجذور إلى الجذوع . . وتسقط أحياناً إلى أسفل متدليةً بخيوط طويلة تبدو واهنة جداً ، ولكنها لا تنقطع . . الكثير من الناس يعتقدون أنهم يواسونه عندما يروون له قصصاً أفظع من قصته . . ولكن إبراهيم لا ينصت إليهم ، ولا يعترف بقصة سوى قصة صخر . . كلهم يركضون من أجل العثور على مخبأ في دماغه ، ولكنهم لا يختبئون سوى خلف صخر . . ولا شيء أصعب من حكاية صخر حتى وهو يستمع إلى طوفان قصص حزينة أخرى كقصة صديقه القديم فيصل الذي مات مهاناً في السجن .

(١٧)

المكان: بين السجون

الزمان: ٢٠١١- ٢٠١٢

عدت إلى بغداد فور سماعي النبأ ، اتصل بي عصمان وقال لي إن صخراً قد اختُطف . سمعت هذا الكلام من أكثر من شخص ، وأكثرهم قال إن الشرطة هي التي جاءت واعتقلته ، وعصمان هو الوحيد الذي قال إن من جاء هم أفراد عصابة ترتدي ملابس شرطة . اختفاؤه بعد ذلك ، دون أن يتصل بنا أحد أو يطالب بفدية ، هو الذي جعل الجميع يُرجّح احتمال أن تكون الحكومة فعلاً هي التي أخذته ، وهذا لم يمنع من أن تبقى دائرة بحثي الرئيسة بين العصابات والعلاسة بعد أن لم يفض تقديم بلاغ للشرطة إلى نتيجة أو خبر معلوم ، ولم يكن ليطرأ على بالي أن أركز في بحثي بين السجون لولا أن توفى صديقي فيصل في السجن بعد عام كامل من فترة اختفائه التي لم يكن خلالها أهله يعرفون عنه شيئاً . .

غيرت مساري إلى السجون ، وطرقت أبواب من أعرفهم من المسؤولين . . وسمعت قصة صابر وما حدث له ولفيصل في سجن أبي غريب ، ثم بعد ذلك عثرت على قصة أخرى هي

قصة سلمان القابع في سجن سري تابع لوزارة الداخلية ، ولا يعرف به أحد . سلمان هو تاجر سلاح قديم ، وعصمان حارس البيت له قريب سوداني اسمه بابكر يسكن البتاويين ، ولديه معارف واسعة بين أفراد الأمن والمخابرات . . وأيضاً بعض السجناء من أصحاب الشأن كتاجر السلاح سلمان . . . . روى لنا بابكر قصته وقال إن سلمان هو تاجر أسلحة أوقعت به غيرة النسوان في الفخ ، وجعلته ينتهي إلى المعتقل . . هو متخصص بتوفير مضافات آمنة للإرهابيين القادمين من الخارج ، وتجهيزهم بالسلاح فيما بعد ، لكنّ أحداً لم يستطع الإيقاع به ، لأنه كان بارعاً بالتنكر والتنقل السريع ، ولم تفلح جهود مراقبة المنازل التي يحتمل تواجده فيها عن شيء يذكر إلى أن تزوج امرأة ثانية ، ففتح زواجه الثاني ثغرة للايقاع به من دون أن يشعر . . . كانت الفكرة تتلخص بزرع أحد رجال الأمن بصفة مشعوذ يقوم بعمل السحر وما إلى ذلك من أعمال فتح الفال ، واستئجار بيت له بالزقاق ذاته الذي يوجد فيه منزل الزوجة الأولى لسلمان تاجر السلاح ، وتم الترويج بشأن كرامات هذا الساحر المزعوم ، بأمل استدراجها .

لم يمر أسبوعان حتى قدِمت الزوجة المعنية ومعها امرأة كبيرة السن ، حيث شكت لفتاح الفال من زوجها ، وإهماله وسوء معاملته لها وتفضيل الأخرى عليها ، هنا أقنعها رجل الأمن المتنكر بزي فتاح الفال بجلب جزء من شعر رأس الزوج

حتى يتم عمل السحر المطلوب للتأثير عليه . . الزوجة استجابت للموضوع بمرونة عالية ، وهذا ما فتح الباب للخطوات التالية من خطة الوصول إليه . . وواصل الساحر المزعوم الضغط غير المباشر على الزوجة دون أن تشعر ، وتمكن من معرفة مكان تواجد زوجها سلمان . وتم الإيقاع به عن طريقها بعد أيام .

سلمان السجين هو من أعلمنا بوجود سجن سري وضعوه فيه بداية اعتقاله ، وكان يغص بالشباب ، ومن المحتمل أن يكون هذا الشاب الذي تبحثون عنه موجوداً فيه . . لم يكن ممكناً زيارة ذلك السجن السري ، ولكني استطعت الوصول إلى شرطي يعمل فيه بشق الأنفس . . ولم أصدق ما سمعته من كلام . . رجلاي لم تعودا تحملانني وكدت أن أتهاوى إلى الأرض مما سمعت . . انتابني خليط من المشاعر ليس من بينها الاطمئنان أو التفاؤل . . عرفت أن صخراً كان موجوداً في هذا السجن فترة من الوقت . . ودلني الشرطي على بعض النزلاء الذين غادروه . . رأيت في البيوت التي زرتها شباناً وسيمين تحولوا إلى رجال مشعثين وبطر مرسومة في الجباه . . ماذا حدث لهم؟ . . وماذا يعرفون عن صخر؟ . . كل واحد منهم رجّح أن يكون صخر لا يزال في السجن ، لأن التأتاة هي علامته الفارقة . . والسجانون قد عذبوه ، والنزلاء قد عطفوا عليه . . وقضى الكثير من الوقت مع سجناء إرهابيين . .

– وأين هو الآن؟

كان الصمت هو الجواب في البداية ، أو كلمات قالوها ببرود شديد . . وردّدوا بعدها الكثير من الأدعية والحوقلات . . يبدو أنهم لم يكونوا متأكدين من هويتي ، وشكّوا بأني قد أكون من رجال الأمن المزروعين ، ولكن أحدهم نطق أخيراً ، وقال لي بأنه قد يكون نُقل الى مكان آخر .

– أين؟

– سجن التاجي أو أبو غريب . .

– هذه سجون غير سرية ، فلماذا لم يبلغوني بوجوده هناك؟

– لعله قد هرب من السجن مع من هرب في شهر رمضان .

أعاد لي تلك الجملة أكثر من مرة :

– ربما يكون قد هرب . .

بعد أن كنت اسمع مثل هذا الكلام ، كنت أتمنى أن لا يكون صخر في السجن أصلاً ، فيختلط مع سجناء القاعدة والمتطرفين والخطرين ، وكل من يمكنه أن يغسل دماغه بالحديث عن الموت أكثر من الحياة ، والآخرة أكثر من الدنيا . . ولا زلت غير مقتنع بأن يكون صخر منسياً في السجن طيلة سنة كاملة ، وبدون تهمة محددة . . ولا زلت انتظر أن يعود إلى المنزل الذي يعيش فيه أبوه . . . وأتأمل أن تكون تهمته باطلة كما في تلك القصة التي سمعتها من الراديو عن معتقل وشى به المخبر السري وقال إنه يزرع العبوات في الطريق ، وبعد عام برأه

القاضي وقال لن يبات في السجن ليلة واحدة بعد هذا اليوم .

نشرات الأخبار تشغلني في وحدتي ، وعصمان الطيب يأخذني من سجين لآخر ، لكن أمي حبيبة ذكرتني بجمال ابن جارتها وصديقتها في الكاظمية . . جمال أصبح عضواً في البرلمان ، وهو الذي طرقت بابه بعد أن يئست من أرباب السجون .

(١٨)

المكان: مكان عصمان

الزمان: لحظة عصمان

عصمان صوفيٌّ من الدراويش الذين يتّبعون طريقة قادرية اسمها (لا أحد يدري) . . له شطحات ومشاعر وطقوس . . ومنها السماع والأنس والاتصال والغيبة والصراخ من الوجد ، وغير ذلك مما درج عليه أهل التصوف . .

- ماذا تعتقد يا أستاز إبراهيم؟ أيهما أجمل؟ بيت العصفور أم هذه العمارة؟ ليست المظاهر والأموال هي التي تقربنا من الجمال ، والبحث عنه يجب أن يكون في مكان آخر عسى أن نجده .

لذا ، فليس لديه سوى التفكر في آلاء اللّه بقلب حاضر خاشع . والخلوة الأسبوعية السنوية تبدأ عنده في اليوم الحادي عشر من محرم كل عام ، ومن شروطها أن لا يأكل طعاماً أُخذ من ذي روح ، ويذكر في اليوم الأول (لا إله إلا الله) بعدد معلوم ، وفي اليوم الثاني (الله الله) ، والثالث (وهّاب وهّاب) ، والرابع (حي حي) ، والخامس (مجيد مجيد) ، والسادس (معطي معطي) ، والسابع (قدوس قدوس) ، وكل ذلك بعدد

معلوم ، وكذلك يقول بعد كل صلاة من صلوات هذا الأسبوع (اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأميّ الطاهر الزكي ، وعلى آله وصحبه وسلم) . . يقول ذلك مائة مرة .

عصمان يُسمّي هذا بالجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس لا جهاد المعارك والقتال ، حيث لا يصل العبد إلى الله إلا بالله ، ولا يعبد المرء الله إلا وكأنه يراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . له كرامات ولطائف تجعل بعض سكان الحي يقصدونه في الملمات ، وهو الذي طبب صخراً بالرقية عندما كان مصاباً في طفولته بصرع بسيط تصاحبه رعشة في الشفاه واليدين . تلك الكرامات منظورة أكثر من النساء العجائز عادة . فالحاجة أم محمد أكدت أنها ترى غرفته مضاءة حتى عند انقطاع الكهرباء ، وجميع رفيقاتها المسنات يقصدنه من أجل تحضير الأعشاب الخاصة بالشفاء لبناتهن أو أولادهن . . أكثرها وصفات شعبية تتقن تحضيرها زوجته ملك ، وهي التي أتت بطاسة الماء ووضعتها فوق الشجرة ، ثم جعلت صخراً يشرب الماء نفسه الذي شربت منه العصافير ، عسى أن يصبح مثلها طليق اللسان ، ملك تتقن أيضاً فن النقش بالحناء . وضعت في أسفل ظهر صوفي يوماً وشماً مثيراً على شكل كف مفتوحة نقلت فكرته أختها سوزان الماكيرة لبعض النجوم والفنانين في بلدها . .

عصمان يخطف النظرات للنساء الوافدات على ملك

زوجته ، ويكشف عن أسنانه البيضاء الجميلة في رد السلام ، فيحصل مقابل الابتسام على الابتسام . . والابتسامات أنواع حسب عصمان ذي الأشعار والشطحات والكرامات . . ابتسامة الصبية لا يراها إلا المقصود بتلك الابتسامة . . ابتسامة النائم الله وحده يعلم الحلم الذي جعلها ترتسم . . ابتسامة الطفل الوليد تظن كل الناس ماما وبابا . .ابتسامة السياسي مغسولة بدموع ودماء . . ابتسامة الفقيه تشاور عقلها هل هي حلال أم حرام؟ . ابتسامة المجاهد لا ترتسم على شفتيه إلا عندما يموت . هو أيضاً مجاهد ، أصوله سبعة أشياء كما يقول ، التمسك بكتاب الله ، والاقتداء بسنة رسوله ، وأكل الحلال ، وكفٌ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق . . ولكنه ليس من أنصار القتل أو التكفير أو تدمير التماثيل ، وكان يغيب عن نفسه أحياناً من أجل شهود الحق ، فيتجرد عنها ولا يراها حينما يختفي الحاجب بينه وبين السماء .

أما أنا ، فالشارع الواسع أمامي ضيق وكئيب ومظلم . . كأنني أنا وبغداد بالكآبة ذاتها التي شعرت بها عندما وصلت لندن أول مرة ، وهبطت من القطار الذي أقلني من مطار الهيثرو إلى فكتوريا ستيشن . شعرت وقتئذٍ بانعصار روحي طوال الطريق بين بيكاديلي سركس وأدجوارد رود ، حتى إذا ما وصلت إلى هناك ورأيت بعض اللافتات العربية التي تعلن عن المطاعم والمقاهي استراح قلبي وشعرت كثيراً بالأمان .

في هذا البيت يبدد عصمان ما يزيد من الكآبة بالتسبيح ، أو الاستماع إلى نشرات الأخبار . . ولكنّ صوت مذياعه صامت منذ أيام لأنه في الحج ، وسيعود بعد يومين . اقترحت لنفسي التأمل عدة أيام ، بعد أن سمعت بتلك القصص التي رواها لي سجناء سابقون ، وكان بطل القصة الأولى واحداً من رفاق الصبا هو فيصل ، وبطل الثانية تاجر سلاح أوقع به فتاح فال ، وبطل الثالثة سجين بريء نبح مع الكلاب ، وبطل الرابعة ضابط سابق مصاب في رأسه اسمه كامل ، ومع ذلك ، لم يمنعه ما به من اضطراب عقلي من أن يراني ، ويروي لي قصته ، وأنا وفقاً لتلك القصص أرتاح قليلاً ، أو أقلق كثيراً ، وأحياناً أشرب بعض الكحول للخروج من العقل ، أو أستمع لبعض المقطوعات الموسيقية لقضاء فترة مؤقتة من الراحة ، والهروب من التفكير ، وكل هذا سرعان ما يفضي إلى عقل من طين .

وأنا ملقى على الأرض في صالون الشقة الأمامي لا أملّ من النظر إلى بابها أريد أن أرى صخراً قادماً وأكون أول من يراه إذا ما جاء . . . . ولكني أخاف أن أتوقع شيئاً لئلا يحدث عكس ما أتوقعه . . أخاف حتى أن أقلق أو أتوتر . . أخاف أن أتخيل أي صورة جميلة أو نهاية جيدة لكي لا تختفي . موجود لوحدي خلف باب مقفول من الداخل . . أفكر يا ترى من أين جاءت كلمة درنكة التي يستعملها الناس لمن تعته السكر؟ هل هي مشتقة من فعل الشرب المفرط بالإنكليزية ، أم أن الأمر زاد

عن حده ، فأصبحت وكأني واحد من المكفوفين ، وأن سمعي هو الذي يخبرني بما سيحدث بعد قليل . . وإذا أغمضت عيني فقد يساعدني ذلك علي التركيز والسمع بشكل أفضل . .

(١٩)

المكان: قرب البيت

الزمان: الآن وقبل الآن

عقلي طين . . ولعنت الساعة التي جاء بها مصعب بباهر هذا لحراسة الشقة في غيابه مع عائلته في أربيل ، صورته رافقتني حتى في الأماكن الأكثر خصوصية ، كالحمام لأني أسمع صوت نعاله بوضوح يشحط فوق السقف . وفي أمسية من أمسيات السبت عندما ضج دار المسنين بالكثير من الزيارات . . رأيته من بعيد ، وأنا عائد من السوق يقف بازاء النافذة وينظر إلى الفتيات . اضطررت أن أتغاضى عن وجوده المؤقت في الشقة العلوية . . ثم توجهت الى غرفة عصمان بحجة مساعدتي في حمل بعض الأكياس إلى شقتي ، وبعد ذلك طلبت منه أن نتمشى .

مشينا في شوارع بعيدة ، وذهبنا قريباً من سكة القطار المغطاة بالأوساخ وأكياس النايلون الفارغة . . هناك تزاحم بعض الرجال السكارى على محل لبيع الخمور ، وأصبح ضجيجهم عالياً وسط لعنات عصمان ، والتوسلات الحادة من صاحب المتجر الأيزيدي لكي يسرعوا في الشراء ، وينفضوا عن المحل

قبل أن ينتبه له بعض الملتحين الذين يتواجدون في كل مكان ، وهم على أهبة الاستعداد للهجوم على أي شيء يخالف عقيدتهم . هذه الزحام على محل الخمور ترجمه إحساس واحد شعرت به في داخلي ، وهو أن أولئك الفائزين بكأس من كؤوس السلام أفضل حالاً من الذين أغرقوا الأرض بالدماء . . وباعونا أفكارهم بالفرض والقوة . انطلق اسم صخر على شفتي فى لحظات من الهلوسات الغريبة . . كانت عيناي تفيضان بالدموع ، كما هو الحال في كثير من الأحيان . وأحيانا يخرج الطوفان من قلبي ويتحول إلى هياج . . لا أستطيع أن أقول لماذا . . لماذا أنا هنا؟ أنا نفسي لا أفهم لماذا أنا هنا؟ . . وهو السؤال الذي أعاده عليّ عصمان عدة مرات . . لم أكن أعرف كيف أجيب عنه ، أو ماذا أقول له . . هل أخبره بأني جئت هرباً من باهر هذا الذي أكرهه ، أو بأني لا أعرف لماذا أفعل ذلك؟

عصمان قال لي أخيراً :

– أستاز إبراهيم ، نحن في مكان غريب . . إزا كان كُلو هازا يريد يسكر في هذا اليوم . . إحنا نروح نشرب حاجة ثانية . . داير تمشي فين بهاي الليل؟! أيش مالك شكلك تريد تخس؟ اقعود معي واشرب الشاي الأخضر وحتخس خلال أزبوع . .

وراحت الأسابيع والشهور وأنا الوحيد الذي يدور حول نفسه ولا يحدد الجهة التي يذهب إليها ، إلا إذا سمع صوت

الجرس . . لا شيء أجمل من نافذة زجاجية أرى من خلالها صخراً يقرع الجرس . أمه صوفي مريضة في مسقط رأسها بمدينة دولش وتبتسم إذا قرع الجرس على شكل زقزقة عصفور ، ثم تنهض بصعوبة إلى الباب المقفلة لتفتحها . عادت إلى بغداد مرتين بعد عودتنا أنا وصخر ، في المرة الأولى عام ٢٠٠٧ وكادت أن تصدمها شاحنة يقودها رجل مفخخ ، وفي المرة الثانية كان الأمر أصعب بكثير .

(٢٠)

المكان: البيت

الزمان: سعياً وراء الظل الهارب..

أكملت بعض أعمال محل الصيرفة التي صرتُ أُنجزها عن طريق الموبايل والإنترنت ، ثم اقفلت جهاز اللابتوب منتظراً طلوع الصباح . نمت قليلاً ، وفي الفجر استيقظت لأرى (العتّاكه) ، وهم يبكرون بالمرور أمام العمارة راجلين أو راكبين عربات عتيقة ، يبحثون في النفايات عن قناني الماء الفارغة ، وعلب المشروبات الغازية وبقايا متاع رخيص قد يُعد ثميناً بالنسبة لهم .

كلما رأيت هؤلاء الصِّبْية والرجال المهلهلين ، اعتبرتهم من المحظوظين . . وأن حظهم ينمو ويستقر ، انطلاقاً من الثبات في اليأس والرضا ، لا شيء يعنيهم من ضربات الحظ وقصص المنتصرين أو الصرافين أو المضاربين في البورصة ، وقناعتهم سحرية ، والتفكير الزائد نوع من البطر ، وأن عليهم نبذ الأمل من أجل المضي في الحياة . . حياة الفقر والعذاب . . والقضاء والقدر . يستمر تحركهم بهذا الاتجاه ، ويكون الحلم الجميل الوحيد الموجود في رؤوسهم هو أن يعيشوا هذا الواقع . ومع نبذ

الشكوك والمخاوف تكون الخلطة عبقرية ، لأن المخاوف إذا سكنت الأذهان ستتحقق ذاتياً ، أي تتحول إلى حقائق . من هنا تبدأ فكرة القلق الذي حول حياتنا إلى جحيم . . من هنا تحول الخوف من الأذهان إلى الحقيقة .

أكيد لا توجد لديهم لوحات في بيوتهم ، ولا أمهات تبقى تقرأ في الفراش ونور المصباح مضاء . . . اللوحات جميلة بشكل يفوق الوصف . . وصوفي تضع اسماً للوحة ، لأن الفكرة تكون غير واضحة أحياناً عندها ، ومن الصعب التعبير عنها بجملة واحدة ، فتستعين بصخر من أجل وضع اسم للوحة . كان خلاقاً فيما بتعلق باختراع الأسماء لكل شيء ، وفي المدرسة المتوسطة أراد المعلم أن يكتب شعاراً ليوم اللغة العربية ، فسأل الطلاب عن مترادف لكلمة عمود . . صمت الجميع وحاروا بالإجابة ، ما عدا صخر الذي رفع يده وقال : مدماك .

كل هذا فكرت به عند خروجي من البيت ، أما في طريق عودتي فالتقاني المشهد الوحيد الذي يوجد في الحياة بدون هم ولا غم ، المشهد الوحيد الذي لم ولن يتغير ، وهو طلعة المدارس . يركض التلاميذ إلى خارجها كسرب من النحل الطافي في الهواء . . وأتذكر سجا التي كانت تلعب مع صخر وهو صغير . . وتستقبل العائدين من المدرسة ، وكأنها تستقبل جيشاً منتصراً عائداً من المعركة .

لم تأت سجا ذات صباح وأنا أخرج مع صخر إلى

المدرسة . . ولم تأتِ بعد الظهيرة أيضاً . . انتظرنا صباح اليوم التالي ، ولكن سجا لم تظهر لا في الصباح ولا بعد الظهيرة . . . سألت عنها عصمان الحارس ، فقال إن بابهم مغلقة ، ويبدو أن البيت لا يوجد فيه أحد . . أصابنا القلق ، وطرقنا باب بيتها ، فتحركت باب الستارة قليلاً ، ولكن الباب لم يُفتح . . وفي اليوم التالي ظهرت سجا . جلست صامتة على دكة البيت . . لا تضحك ولا تتحدث مع أحد ، وعندما اقترب صخر منها كانت واجمة لا تتفاعل معه . . بقيت عدة أيام على هذه الحال لا تضحك ولا تلعب ولا تتحرك . . كان منظرها يؤلم القلب . . سألها صخر ما بك يا سجا؟ راحت تبكي وقالت له إنها مريضة . .

– وما هو مرضك يا سجا؟

– هذوله .

– منو هذوله؟

لم تردّ عليه ، ومسحت دموعها بقميصها . . فأعطاها صخر منديلاً ورقياً . . وبعد قليل أشاحت برأسها عنه ، وأخذت تتقيأ . . ظلت تتقيأ عدة أيام . . تجلس على دكة البيت وهي تتقيأ . . لم تعد تحمل حقيبتها الوردية ، ولا تأتي لتشخبط في أوراقها مع صخر . . أصبحت سجا غير قادرة على فعل أي شيء . . وأراد صخر إسعادها بقدح كبير من المثلجات جئنا به من محل مشهور في ساحة الحرية . . ولكنها لم تفرح ، ولم

تأخذ القدح . . كانت تشعر بغثيان النفس من كل شي . . ثم فقدت الرغبة في كل شيء ولم تعد تأتي إلينا .

حدس الجميع ما حدث لها ، ولكن لا أحد يعرف من هو الفاعل . . لم نعرف جواب هذا السؤال أبداً ، لأن البيت أُقفل وظل فارغاً ، وبعد أن ادّعى محمود أبوها بالتبني بأن إطلاقة نارية جاءت من بندقيته بالخطأ وأصابت رأسها ، غير كلامه وقال إنها جاءت من شرفة إحدى الشقق العالية . . أخذوها إلى المستشفى ، ولم يرها أحد بعد ذلك . . وانتقل أبوها من كرادة مريم إلى منطقة أخرى .

أين سجا؟

كل يوم يسألني صخر هذا السؤال . . أين سجا؟ هذا هو سؤال صخر الذي لم أعرف جوابه بشكل أكيد ، ولكني كذبت عليه ، وقلت له إن سجا لا زالت على قيد الحياة . . وإعاقتها أصبحت أكثر من الأول ، ولهذا أخذها أبوها محمود إلى أخته في عرب تيلتاوة لكي تعتني بها . . كأن صخراً فقد توأمه توّاً عندما غابت سجا ، وليس حينما غاب أخوه بدر . . كأنه قد أصبح يعيش في ظلمتين . . ظلمة عاهته ، وظلمة غياب سجا . . لم تعد تتكرر عشرات اللحظات السعيدة التي تتدفق مع دوران غرف البيت حول الشمس كل يوم . لم تعد الشمس تدور ، ثم تصل إلى شباك المطبخ ، فتجد في هذا الجانب تمثال النخلة المدهش ، وفي الجانب الآخر صخر يتكلم ويضحك مع

سجا . أصبح العام ألفين وستة بالنسبة لصخر هو عام العصافير الذي فقد فيه سجا . . دخل في حالة صمت شديد ، وكف عن السؤال عنها ، ولكنه صار يراها كل يوم في المنام . . كانت تقول له ما قالته ذات يوم في سفرة البساتين :

– إنت راح تطير ويه العصافير .

– وحدي راح أطير؟ .

– لا مـــو بس وحـــدك راح تطيـــر . . هذا وهذوله راح يطيـرون .

كنت أسترجع حزن صخر على سجا وأنا أريد التأكد بأني قد عشته معه كما ينبغي . . كنت أريد السقوط في تلك الهاوية التي لا تعرف لها قراراً ، وأنا أتذوق كوب الشاي المر بين تعليقين على الفيسبوك . . البعض يكتب نكتة . . . . والبعض يريد الدخول إلى الجنة . . والبعض يريدنا أن نكتب الحمد لله ، أو سبحان الله ، لا تخرج قبل أن تكتب ذلك ، وقد يهدّدننا من أجل فعل ذلك . . والأدهى أن ردود أفعالهم قوية جداً ، أو قاسية جداً . . . كلهم في حالة استنفار دائمة من أجل فكرة الموت .

– هل تؤمن بالله يا إبراهيم؟

ذهبت صوفي إلى القداس في الكنيسة نفسها مدة عشرين عاماً . . وكنت أعتقد أن الله سينظر بعين العطف إلى المرأة التي ذهبت إلى الكنيســة عشـرين عـامـاً ، ورددت أمي الدعـاء

المستجاب أربعينات المرات ، وكنت أعتقد أن الله سيستجيب لدعائها الأربعين . فيا عصمان قل لي لماذا الله لا يسمعنا؟

- سمع الله لمن حمده ، لا لمن ظل يكفر بالنعمة .

(٢١)

المكان: خروج من كل مكان

الزمان: مصباح خافت

كلما مررت بغرفة عصمان تناهت إلى أنفي رائحة الخضار المقلية مع البطاطا والبيض . تكاد تكون تلك أكلته اليومية التي أصبحت أشمها حتى وهو بعيد . . ترك عصمان النور خافتاً في غرفته قبل أن يذهب للحج ، وهو النور الذي تعتقد الحاجة أم محمد أنه يبقى مشتعلاً حتى مع انقطاع الكهرباء . صخر يحب هذه الرائحة كثيراً ، ومهما طبختْ له أمه من أطباق اللحوم ، أو جئنا من طعام المطاعم فلن تستهويه إلا هذه الرائحة . نظرتُ إلى غرفة عصمان من نافذتها التي تطل على الحديقة . الجدران اختفت منها الرطوبة ، ولم تعد تتساقط منها قطع مجصّصة إلى الأرض ، كما حلت منضدة الطعام بدلاً من الجودلية .

عصمان كان قد دعاني إلى ضرب الدرباشة في يوم المولد النبوي . . وشاهدت رجلاً أغمد في بطنه درباشة طويلة ، وأخذ يدقّها في الجدار مرة بعد مرة لكي يساعدها على الدخول في بطنه ، وفعلاً دخلت حتى خرج رأسها من ظهره . رجل آخر

انطرح على ظهره ، فكشف عن بطنه ، ثم جاء درويش آخر فصار يضرب بطنه بالسيف ضرباً متوالياً حتى طمس السيف في بطنه لحد المقبض . . . رجل متوسط العمر كشف عن بطنه وأغمد فيها خنجراً حاداً ، ثم انتزع الخنجر واغمده مرة ثانية في مكان آخر من بطنه ، حتى سال من الجرحين دم غزير وسقط الرجل مغشياً عليه . تصور الجميع أن الرجل مات ، أو كاد يموت . وساد المكان جو من الوجوم ، وعلى حين غرة قام شيخ من الدروايش ، فصار يتخطى بين الحاضرين ، وهو يصرخ وينادي باسم الرفاعي . . وبين عجبي وعجب الحاضرين فتح الجريح الذي كان مغشياً عليه عينيه ، ونظر إلينا ثم نهض من مكانه وهو بكامل صحته . .

لم يكن من السهل التمويه عليّ بمشاهد كهذه حتى وإن كانت مصحوبة بنقر الدفوف التي تعلو وتشتد تدريجياً يصحبها بعض التراتيم الصوفية . ولأنني لم أكن قد رأيت شيئاً مثل هذا من قبل ، فقد قلت لعصمان بأني أريد رؤيته مرة أخرى ، لهذا ذهبت معه مرة ثانية الى الحضرة القادرية ، وحدث هناك أمر غريب جعلني أكاد أصدق قدرة أولئك الدروايش على بعض الخوارق . . كنت في داخلي غير مقتنع بما أشاهده أمامي ، حتى وإن طحن أحدهم الزجاج بأسنانه ،أو بلعه دون أن يبدو على فمه أي أثر للدم ، أو خدش الآخر بطنه بالخنجر وسال منه الدم بغزارة . كان إذا لم يتمكن أحدهم من طعن

نفسه بالكامل ، رجاه الشيخ ، وكان اسمه ابو الحياية ، أن يمتنع عن التمادي في الضرب بحجة أن بين الحاضرين أفراداً نجسين لم يغتسلوا من الجنابة ، ولهذا لم ينجح عنده ضرب الدرباشة . .

قام ثلاثة شبان ، فغمدوا نوعاً صغيراً من الدرباشة يشبه السفود في جوانب بطونهم ، فكان كل واحد منهم يدخل الدرباشة في خصره ثم يخرجها بمعونة درويش آخر . فكرت مع نفسي في تلك اللحظة أن الدرباشة لم تمس الأمعاء ، إنما كانت قريبة من الجلد فقط ، ولهذا لم يصُبْ الشبان بالأذى ، الأمر الغريب الذي حدث ، وجعلني في حيرة من أمري ، هو أن أحد الدروايش كأنه قد عرف بماذا أفكر تماماً ، فما كان منه إلا أن توجه لي ، وشهر أمام وجهي خنجراً صقيلاً ، عرضه علي لكي أفحصه ، وهو يصرخ وينادي باسم الرفاعي ، ثم رفع خنجره فغمده في رقبته ، ثم انتزعه وضغط به على باطن ذراعه ضغطاً شديداً ، رأيت بعد ذلك فيها جرحاً سرعان ما اندمل واختفى الدم منه . . كان الدرويش يستهدفني مرة بعد مرة ، فيتقدم نحوي ويشهر خنجره في وجهي ثم يقول صارخاً :

- «هل صدقت؟»

- «هل صدقت؟»

شعرت بالخوف منه ، ومن غضبه المستعر فوق رأسي ، ولولا ستر الله لتمادى الشيخ في غضبه وصراخه وانهال علي

بالخنجر أو السيف ، وتركني جثة هامدة .

عصمان كان يضع إبهام كفه الأيسر على رسغه الأيمن ويقيس النبض . . إنه يتدرب على التحكم به . وقال لي إنه إذا تناقصت نبضاته عن معدلها الطبيعي ، أي إلى خمسين نبضة فقط ، فإنه يستطيع أن يضرب نفسه بالسيف دون خروج قطرة دم من بطنه . قال إنه بعقله يستطيع تعطيل عقله فيُبطئ من ضربات القلب ويمنع الدم من الخروج . . . . عصمان لم يرتقِ إلى هذا المآل ، وعلل لي الأمر قائلاً :

– أعمال الدراويش تحتاج إلى يقين حازم وعقيدة قوية لا يخالجها أدنى شك . وهذه من الأمور التي يصعب ظهورها بين أهل المدينة الذين يشاهدون برنامج سونيا . ولهذا فإن دراويش بغداد لا يملكون المقدرة الخارقة التي يملكها إخوانهم الذين يسكنون الصحراء ، أو المناطق الريفية .

سونيا قصتها لا تنتهي مع عصمان ، وقد أصبحت موجودة في كل مكان .

(٢٢)

المكان: شاطئ دولش

الزمان: خريف

ما كان ينبغي أن أترك صخراً وحده في البيت حتى بعد ان طالبتني صوفي بالحضور لأمر مهم هو تخرج بدر الوشيك في كلية الطيران ، وشراء بيت جديد في منطقة ريفية قريبة من دولش . ولكني حتى لو كنت انتظرته لحين انتهاء الامتحانات ما كان وافق على السفر ، وكنت أعرف السبب . هو كان يريد البقاء وحده في البيت بعد أن حدثت قصة حنين التي شعر بالعاطفة نحوها ، ثم سرقها منه الحقير باهر . كنت أعرف أن التأتأة هي التي منعته من أن يمضي في حبه لها أو لغيرها ، وأنه يشعر بالخجل الشديد من الحديث مع الفتيات لهذا السبب .

إنه لمن الغريب أن يكون باهر بالذات في الشقة التي فوقي . . أن يجيء حارساً لها حتى يرجع مصعب وعائلته من أربيل . كنت أركض الى العين السحرية كلما سمعت صوت أقدامه تهبطان السلم الذي يمر من باب شقتنا ، ثم أهرع إلى النافذة عسى أن أراه وهو يخرج من البيت . وأتخيل كيف يكون وجهه في حالة شديدة من الذهول ، وعيناه ذاهبتين إلى مكان

آخر غير هذا المكان ، فأُدرك سعادته الخفية في النظر إلى الفتيات عندما يراهن في الشارع ويتقطع قلبي ألماً على صخر ، وعجزه عن الكلام .

ولكن الشجرة يجب أن تُزيَّن بالرغم من اختفاء صخر . .

في يومي السبت والأحد تضع سوزان حزم الشعر المستعار في حضنها . . الأشقر والأسود والأحمر والرمادي والكستنائي ، وباقي المواد الخام والأدوات المأخوذة من الحاويات فوق الرفوف . تلتقط مادة من كل حاوية وتبدأ بمسك أداة أقرب ما تكون الى المشرط تمشط بها الباروكة تلو الباروكة وفي عينيها نظرة الطبيب . . قالت هذه المرة : «أنا أعمل على باروكة طويلة الشعر الآن . . أعتقد أنني سوف أصبغها بالأزرق للهالوين القادم» . كل أسرار الفنانين مع الماكيرة سوزان ، وهي تفضل الاحتفاظ بها . . . ودائماً العملاء يحبون الشعر المستعار لسوزان الذي يكون لامعاً وناعماً ، ويعجبون كيف تبدو باروكاتها طبيعية جداً . تقول إنها تغسلها وتنعمها بكريمات وشامبوات غالية الثمن ، أما السر فيكمن في أمر آخر هو الحب لعملها وللفنان نفسه ، والذي لا تعامله كونه زبوناً قديماً ، ولكنْ صديقاً أيضاً . .

في طفولته كان بدر يحب الاستماع إلى قصص خالته الإنكليزية . . يحب الجلوس في دائرة مع الأطفال الآخرين . . شعره الذهبي اللامع يشبه شعرها الأشقر الذي ينتشر في

أنحاء كتفيها وفوق عيونها الزرقاء التي تشبه المجوهرات المرصعة على بشرتها الشاحبة . هناك قانون لكل شيء لدى سوزان ، وهذا الحزم مقصود لكي تعلّمه معنى النظام الصارم ، والذي لا يتعارض مع زرع الثقة في نفسه عندما تدعه يلعب بالألوان ويرسم البط والسناجب وأشياء من هذا القبيل ، كما كان يساعدها عندما كانت هناك أغراض تحتاج إلى ترتيبها ، أو آثار ألوان تحتاج إلى محوها من على الأرض . وفي المناسبات تطلب مساعدته في تزيين شجرة الكرسمس ، وتعلمه الرسم على البيض الذهبي في عيد الفصح .

صخر أنهى مرحلة الصف العاشر في دولش مع توأمه بدر ، وعندما عدنا إلى بغداد كان لا يزال في المرحلة الثانوية ، وكان عليهم في درس الإنكليزية قراءة مسرحية عن اليهودي شايلوك ورطل اللحم ، وهي المسرحية التي درستُها أنا أيضاً في الثانوية . . عندما جاء دوره في الإلقاء أرسله المعلم لجلب الطباشير من صف آخر ، فشعر بنشوة كبيرة وتأخر كثيراً لكي لا يشمله واجب القراءة فيشعر بالحرج . . كنت متأكداً من أن المدرس أيضاً قد عطف عليه ، وفعل ذلك عن عمد ليجنبه إحراج التلعثم . . هنا سألته السؤال الذي تفجر من تلقاء نفسه في تلك اللحظة :

– لماذا ياحبيبي إذن تريد البقاء هنا؟

صخر قال لا أعرف ، ثم وضع السماعات في أذنه . . كان

يستمع إلى سيديات لا أعرف ما بها ، كنت أقول له مازحاً : ماذا تسمع يا أفندي؟ ، فيصمت ولا يجيب . . ماذا تفعل يا أفندي؟ ، فيبتسم أو يقول ماكو شي . . وحتى عندما يرفع صخر السماعات يظل هذا (الماكو شي) بيننا ، فأظن أن حنين ، التي سرقها منه باهر ، هي التي تؤرقه مثل ألم يجب أن يأخذ مداه قبل أن يختفي . . أشعر بذلك من كل شيء . . برفضه أن يؤدي امتحانات الدور الأول كما يجب . . برفضه أن يأتي معي لحضور تخرج أخيه بدر من كلية الطيران . . . . . برفضه مصارحتي لماذا يخرج كثيراً مع صديقه الجديد إحسان الذي أصبح ميالاً إلى التدين ، وعليه الكثير من الملاحظات . وإن كان لم يفقد سماحة وجهه قط .

المرآة لا زالت موجودة لكن شرخاً أصابها . وكل واحد منهما أصبح يرى فيها بعضاً فقط من أخيه ، وليس كله . . لا أحد يعرف لماذا ، ولكنني أعرف أن وندي كانت في البداية هي السبب ، ثم أصبحت حنين هي السبب . . . وأخشى الحديث مع صخر حول أي من السببن . . . . . هو نفسه لا يريد الحديث . . ولا يصدق أي شيء . . تحجر مع لابتوبه في مكان واحد . وأصبح ينتقد بعض ملابس أمه التي ترتديها قرب الشاطئ .

الشاطئ هو مكان صوفي المفضل المطلق للنزهة يوم الأحد وباقي الأيام . محلات الزهور وفيرة ، بيوت الطيور معلقة في

الأشجار ، حدائق المنازل تفوح ببهجة مستمرة بين الزقاق والطريق الرئيس . هناك دفعْنا صخراً وأخاه بدراً بالعربة عندما كان عمرهما أربعين يوماً . . واستوقفتنا العجائز لمناغاة هذين الطفلين الجميلين والممتلئين . متشابهان تماماً بالملامح ، ولكن أحدهما أسمر الوجه . . والآخر أشقر . . وجلب لهما ذلك الكثير من الانتباه ، وحاولت حتى الصحافة الاقتراب منهما ، ولكننا لم نفسح المجال لاقتحام خصوصيتنا . . قبل الولادة بدقائق حددت اسميهما ، صخراً وصقراً . . ولكن صوفي قالت إن الاسمين سيتشابهان عند تلفظهما بالانكليزية ، فغيرت اسم صقر إلى بدر ، وبعد أن تَحدد اسماهما لم تقبل أن يتحدد دينهما . قالت إنهما سيبقيان طوال حياتهما يقاتلان ويدافعان بغباء عن شيء لم يختاراه ، بل فرض عليهما منذ الولادة .

النهر يجلب السلام والهدوء إلى أرواحنا ، وهذا السلام جعلني مستعداً لتقبل كلام صوفي عن ترك الحرية لهما في اختيار الدين لكل واحد منهما . . ولو كان الأمر بيدها لتركت لهما أيضاً حرية اختيار أو تغيير اسميهما عندما يكبران . . كان ذلك بعد منتصف الثمانينيات عندما ذهبت إلى هناك من أجل الدراسة في جامعة برستول ، فتزوجت من صوفي الآيرلندية التي كان اسمها قبل الزواج صوفي دانيال ، وكانت الإبنة الصغرى لأحد العاملين في فرع العراق لشركة نيرن للنقل عبر الصحراء ، وهي الشركة التي أسسها الأخوان نيرن ،

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، لتقديم خدمات نقل البريد والركاب بين بيروت وحيفا ودمشق . ولأنّ بغداد كانت المركز الإداري للقيادة المدنية البريطانية ، فقد امتد هذا الخط بعد عامين إلى بغداد اختصاراً لزمن الرحلة منها إلى لندن . . ومع انطلاق هذا الخط أصبح هذا الطريق أشهر طرق النقل الصحراوية في العالم ، وبدأت ثورة عصر جديد لوسائل النقل فى منطقة الشرق الاوسط .

(٢٣)

المكان: غرفة عصمان

الزمان: لحظة سونيا

كراج البيت أصبح تغطيه أكوام من ورق العنب والنارنج اليابسة ، ويستطيع إبراهيم أن يتخيل نوعاً من الحياة تحت تلك الأوراق . . ويتذكر سجا تركض ثم تكشّر عن نفسها . . إنها تندفع بين تلك الأوراق التي تتطاير . تريد إعادة كل ورقة ساقطة إلى مكانها . . . . أما إذا طيّرها الهواء العاصف ، فإنها تركض خلفها من الحديقة إلى بيت أم شيماء التي تجلس على الكرسي المتحرك . . ولدت ابنتها في الثمانينيات مع ظهور فلمَي الرسالة والشيماء أخت الرسول ، فأصبح الكثير من المواليد الأناث يحملن اسم الشيماء . . والكثير من المولودين الذكور يحملون اسم الحمزة .

حركتُ مقبض الباب البارد في يدي فشعرت بصوت أقدام ترتقي الدرج . . الصوت نبهني ، ولكني لم أشعر بالقلق هذه المرة . . كان عصمان يتفقد السطح . . . . صوته فيه صدى مثل أصوات المذيعين . . وعندما يعود من الحج أو العمرة يمنح

المكان الكثير من الألفة . . . . ظل يقاوم سنوات طوالاً باقياً مع الحرب متحايلاً عليها لكي لا يغادر بغداد . وبالرغم من انشغال الناس بنشرات الأخبار المشتعلة ، ومناظر السيارات المتفجرة في الشوارع ، فإنه يقول عن هذا البلد إن خيره وفير وناسه طيبون ولن يجد مثيلاً لهم قط في كل بقاع الأرض .

– إنهم يقتلون بعضهم بعضاً يا عصمان؟

فيقول لي إن الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها وأضاع شباب هذا البلد الجميل بين التربان والعربان والسجون . . هو نفسه لم يسلم من الاعتقال بعد الحرب ، ثم أفرجوا عنه بعد شهر . . . . ولم يجعله ذلك يسافر عائداً إلى بلده ، أو يبالي بالمخاطر والانفجارات القريبة والبعيدة ، بل يصر على سماعها مرة ثانية من مونت كارلو والجزيرة والبي بي سي . يختار عدة إذاعات في اليوم الواحد ويحلل معي أحياناً الخبر نفسه من وجهات نظر عدة ، وفي النهاية لا يقتنع سوى بفكرة واحدة . أمريكا هي رأس البلاء ، وهي السبب .

– هل غيرتَ رأيك يا عصمان؟ ألم تقل أن العجوز العربي النائم في ناموسية العسل هو سبب المآسي التي نحن فيها؟

– نعم يا أستاذ إبراهيم . . غيرت رأيي بعد أن رأيت سونيا التي أنقضت وضوء الجميع . .

حدثني عصمان عن سونيا . . وقال :

– تخيل أستاذ إبراهيم ماذا سمعت اليوم في التلفزيون؟

- ماذا سمعت يا عصمان؟

- أعوز بالله من هذا شعب .

- أي شعب؟

- أنا لا أشاهد برامج المسخرة ، ولكن هناك برنامج طبي تقدمه طبيبة أمريكية اسمها سونيا . جاب ثلاث نسوان يحكوا إيش يفضلوا تكون المنطكة الحساسة بالزول . . بالشعر أو بدون شعر ، أو مقصوص خفيف خفيف . وكول واحدة فيهم كلبة بنت كلب . . تتمضحك وتقول اللي عاجبها . شنو هالمسخرة؟ إحنا شعلينا . . أعوز بالله من هذا شعب . الدنيا محتركة والعالم كلو مكلوب ، وهم ولا همهم شي غير المنطكة الحساسة .

عصمان الطيب هو الذي استطاع إضحاكي بلهجته الهجينة بين العراقي والسوداني . قلت له :

- عصمان ترا كل العالم ملتهي بالمنطكة الحساسة؟

- لا أستاز إبراهيم هاي مناطق مستورة مو لازم واحد يحكي بيها . شوف الله وين خالقها وتعرف ليش لازم تظل مستورة . أعوز بالله من هذه كلبة وشيطانة . . اسمها سونيا . . خلتني أتوضأ من جديد .

عصمان فتح الباب الجانبي بدشداشة بيضاء نظيفة . . ثم ذهب ليضع إبريق الشاي على النار . . أريد أن اتذكّر . . أستطيع أن أتذكّر . . لقد حدثني عن سونيا قبل أن يذهب إلى الحج ،

وعن الشيطان بعد أن عاد من الحج . باركت له حجّه وسعيه ، فقال لي :

– الشياطين وصلت مكة يا زول؟

– كيف يا عصمان؟

– صليت ركعتين في مقام النبي إبراهيم بعد أشواط الطواف ، وبدأت أقرأ سورة الكافرون بعد قراءة سورة الفاتحة فتذكرت سونيا تلك المرأة الكلبة بنت الكلب التي تحب الشعر خفيفاً في المنطقة الحساسة ، وانفجرت الوساوس في نفسي مرة أخرى .

– كيف توجد الشياطين في مكة يا عصمان؟

– هذا السؤال سألته لنفسي أستاز إبراهيم . . كنت كباقي الحجاج أتهجد بالحرم في مكة أحاول أن أدع المعصية خلف ظهري ، ولكن الهواجس تنزغني في قلبي وتوسوس في نفسي . . الشياطين يا أستاز إبراهيم وسوست لي هناك . أعوز بالله من الشياطين القوية . .

– هل تظن يا عصمان أنه لولا ذلك البرنامج الأمريكي لما حضر الشيطان؟

– نعم يا أستاز إبراهيم ، ما قلته صحيح . . . عدت من مكة ، وكأني لم أذهب إليها قط . لقد أكل مني الذئب ، وضاع الأجر خلف هذا الوسواس . . وسواس سونيا الذي لم أجد سبيلا إلى التخلص منه . .

أعطاني ماء زمزم . وعرقجيناً ومسبحة . فقلت له :

– لا عليك من سونيا ، إنها موجودة في كل مكان . . المهم أنك تبدو بدشداشتك البيضاء النظيفة وديعاً مثل ملاك أو حمامة .

ضحك وقال :

– أي ملاك وأي حمامة؟ قصدك مثل الخونفسان بالصوف .

ضحكتُ واسترجعت خفة دمه بعد حادثة خطفنا أنا وهو في المحمودية . . كنا نبحث هناك عن صخر بين عصابات الخطف والموت ، وبعد أن أنقذنا رجل من المنطقة ، وعُدنا آمنين ، ضحك عصمان حينئذ ، وقال :

– لأول مرة أشعر بالفخر لأني سوداني فقير .

– لماذا يا عصمان؟

– أما رأيت كيف أخذوك ، ورموني على قارعة الطريق .

– لم يكن مقعد السيارة يكفي إلا لثلاثة .

– هازا ما أقوله يا زول . قالوا نتخلص من هذا الفقير المهتلف . . مين راح يدفع الفدية لواحد مثلي؟

عصمان لا يزال يقف بدشداشته البيضاء النظيفة ، ويتحدث عما رآه عند اقتراب الحافلة من منارات المسجد النبوي التي أدمعت عينيه ، وجعلت قلبه يغوص من الوجد كلما ارتفع الأذان ، وطارت الحمامات في الفضاء . . لم استطع

التوقف عن القلق حتى وأنا استمع اليه . . فقلت له أخيراً :

– هل لا يزال باهر قريب مصعب يسكن في شقتهم؟

– لا . .

– أنت متأكد يا عصمان من عدم وجود أحد في الشقة العلوية؟

– متأكد . هل حدث شيء؟

كما اللص أجلت بصري في البيت ونوافذه . . أول محاولة كانت مع نافذة تطل على الباب الجانبي للعمارة ، والذي يفضي الى الشارع الفرعي . توقفت ونظرت فوق كتفه .

– ما الذي تبحث عنه يا أستاز ابراهيم؟

– ظننت أنني سمعت شيئاً .

– أيا كلبة بنت الكلب .

– من هي؟

– سونيا . . خلتني هالمرة أنسى الشاي على النار .

ضحك الحاج عصمان وهو يضغط على زر كهرباء المطبخ للخروج من الظلمات إلى الضوء ، ولكن سونيا التي أبطلت له وضوءه وحجه وشايه كانت تجلس على الحافة . لعنة الله عليها ، كانت تتحدث عن المنطكة الحساسة للرجل وكأنها تتحدث عن منطقة الذقن . . بقيت لعنته معلقة في الهواء ، لأنه ذهب بعد ذلك إلى حديقة البيت ، وذهبت أنا الى الشقة . وما هي إلا ثوان حتى ظهر في الشارع . . يبدو أنه قد

خرج من الباب الجانبي للبيت . . نظرت من النافذة بذهول كما لو كانت بلا زجاج . . . . لا يمكن أن يكون العشاء قد أذن بهذه السرعة . . لم يصلني صوت الأذان الذي أسمعه قبل الجميع . . وبالرغم من اختفائي في الظلام ، رفع عصمان رأسه فجأة وقال : تعال تعال هنا . . . تعال معي إلى الجامع .

كان ينظر لي ، وفي الوقت نفسه لا ينظر إلى أي مكان .

التفتُّ عن النافذة ، وتجلى ذلك الصوت المزعج للمرة الثانية ، كنت أريد الذهاب للمطبخ من أجل الحصول على الماء البارد ، هناك وضعت قنينة ماء زمزم التي أعطاني إياها عصمان ، ثم أضعتها مرة أخرى وأنا أستمع لخطوات خافتة تتلكأ قرب الباب ثم تبتعد . . لا أستطيع شرب الماء وأنا استمع . . ولا أن أتحرك خطوة واحدة وأنا استمع . . فقط أستطيع التنفس بشكل متباعد بين شهيق وزفير . . أو بين شفيق وزَهير كما كانت سجا تقول لصخر وهما صغيران . . لديها أقوال مأثورة نحفظها جميعنا . . نحنود هو محمود أبوها ، والندرسة هي المدرسة ، أما عندما تقرقر بطنها بصوت متصل فتقول إن النونو يصرخ هناك . . كأنها تنبأت بما سيحدث لها فيما بعد ، وأيضاً عرفت ما سيحدث لصخر عندما قالت له يوم سفرتنا إلى ديالى بأنه سوف يطير مع العصافير .

أتساءل وأنا وحدي في الشقة . . يا ترى أين هو صخر الآن؟ . .

(٢٤)

المكان: خارج السجن

الزمان: أواخر أيلول ٢٠١٢

أخيراً عرفت أن صخراً موجود فعلاً في السجن . . كنت قد قلت لنفسي أن الجرح باقٍ إلى الأبد ، وإني لن أعثر عليه مرة أخرى . . شهور من البحث المضني بين وسطاء ونزلاء سابقين لم تفض إلى نتيجة . . شاب شعري في غضون أسابيع قليلة ، توارت خلف صخر كل حياتي ، ولولا وجود واحد من أهل الله هو عصمان بقربي لأصابني الجنون . . أصبحت أحدث نفسي أكثر مما أحدث غيري ، وأسمع أصواتاً في مكانات لم أعهدها من قبل ، حتى اتصلت بي أمي حبيبة وقالت بأن جمال ابن صديقتها القديمة قد أصبح عضواً في البرلمان . سمعتْ بذلك من جيرانها في الكاظمية ، وأخبرتني بأنه لن يخذلنا إذا ما قصدناه . كنت أنظر إليه في كل مرة بدون أمل كبير ،لا أدري أي حزب ساعده في الوصول إلى البرلمان . . ولا أعرف ما هو لونه الجديد ، ولكنه لم يكن يرضى بأن تكون زيارتنا له قصيرة كزيارة الغرباء . . وبدا لنا وفياً للصداقة القديمة ، وهو الذي دلّنا على مكان صخر ، ثم أخرجه

من السجن ، بعد أن كان قد مضى عام كامل على اختفائه . . خرج صخر أخيراً من السجن .

لا أعرف كيف كان ، وماذا فعل ، ولكن من اللمحة الأولى وهو يخرج من المبنى ، اعتصر قلبي ألم رهيب ، وشعور من الكآبة لا يطاق . . لو كانت أمي موجودة معنا في تلك اللحظة لقالت : عِمَتْ روحي عليّه . شعور لا يطاق . . فرحة لا توصف في البداية ، ثم رأيت نحافته الشديدة فانتابني الحزن القاتل والوحشة . . وعندما احتضنْتُه اكتشفت بأنه أنحف مما ينبغي . .

نظرت إلى الساحة قبل أن يخرج . . إلى المنازل المحيطة بها . . إلى التناقض بين الاثنين . . الشرطي يقف على باب السجن ، والطيور تقف على أشجار المنازل . . على الجدران القاتمة . . على النوافذ الشاغرة . . على عدد كبير من نباتات البر الهشة . . وعلى عدد قليل من فروع الأشجار المتينة . . توقفت عن التفكير إلا في المشهد الذي أمامي . . روحي عمياء ولا يمكن لي أن أتعامل مع خروج صخر إلا عندما أراه . . الأفكار الغامضة ازدحمت في رأسي ، واضطررت إلى السكون التام وقت الانتظار ، لا أستطيع أن أشعر بشيء محدد قبل أن أراه . . ولا أن أفكر بشيء محدد قبل أن أراه ، وقبل أن أقول إنه هنا . . هنا أمامي . وعندما احتضنته ، واكتشفت أنه أنحف مما ينبغي ، لم أستطع منع دموعي من الانهمار طويلاً .

سألته :

– كيف حدث ذلك يا حبيبي؟ كيف أخذوك للسجن وأنا لا أعلم؟

– بابا . . لما إنت رحـــــ

عانيت من عذابه في التأتأة . ولم أدعه يكمل كلامه ، لأن خروجه من سجن حكومي جعلني أفهم كل شيء .

– ولكني عندما رجعت من إنكلترا ، لم أظن بأن الشرطة قد أخذتك . . قال عصمان إنهم رجال عصابات متنكرون بزي شرطة .

– كانوا عصابة بالفعل . . والشوشو شورطة اعتقلتني أيضاً . .

– لم أفهم؟

– خططططفتني عصابة ، ثم بعد شهرين حررتني الشرطة ووضعتني في السجن .

– سأفهم منك كل شيء عندما نصل البيت ، وهسة لازم أخابر أمك وأخوك وأبشرهم بطلعتك من السجن .

– بعدهم بدودودولش؟

– إي بابا بعدهم . شنو رأيك نشتري غدة من الطريق؟

– لا بابا ما ما ما أريد؟

– ليش بابا؟ أكيد جوعان .

– إي بابا جوعان ، بس ما ما ما عندي واهس آكل .

صخر خرج من السجن وهو قليل الضحك والكلام . . لا

زلت لا أعرف الشيء الكثير عما حدث معه داخل السجن ، ولم يكن يحدثني عن ذلك بالتفصيل ، ولكن من المؤكد أن شاف هناك اللحى أشكالاً وأنواعاً ، كلهم من طينة واحدة . . يفكرون بطريقة واحدة . . لا يمكنهم التحرر من فكرة المظهر الذي يجب أن يتشابه في الملبس وطريقة إطلاق اللحية مع حلق الشوارب . وهذا كله متوقع في السجون التي أصبحت تشبه معسكراً من معسكرات الجهاد .

ومضى الشهر الأول من خروجه ، ونحن ننظر لبعضنا من بعيد ، وأحياناً ابتسم له أثناء العشاء ، فيتحول الابتسام إلى صمت . . أتساءل عن سبب خطفه ، أكثر من سبب بقائه في السجن . . إذا كان موجوداً رغماً عن أنفه في الصحراء مثله مثل أي مختطف ، كما قال لي ، فلماذا إذن سجنوه طيلة شهور بعد تحرير الرهائن ، ولماذا لا يحاول صخر أن يشرح لي ماذا حصل بالضبط . . انتظرت طويلاً أن يسأل عن أخيه بدر أو أمه صوفي ، ولكنه لم يسأل عنهما إلا قليلاً . . كانا يتصلان بنا كل يوم تقريباً ، بينما لم يخطُ هو أي خطوة تقرّبه منهما ، أو تجعله يتصل بهما . . لم يعد يرسل نظرات مرحة كلما سلّم عليه أحد . . ولكنه كان كثير الوضوء والاغتسال . . يفعل ذلك عدة مرات في اليوم الواحد . . ثم يخلد للنوم عندما يجدني سأفتح نقاشاً معه ، حتى وإن كان ذلك النقاش لا يصطبغ بصبغة دينية . . لم يعد يسيطر على البيت سوى ذلك الجو

الغـريب ، باب الغـرفـة لـم يكن ينفـتح إلا ليـخـرج منه إلى الجامع . . لم يعد يعرف طريقة للترفيه عن النفس غير هذه . . كأنه بالضبط عالق بين مكانين . . جاثم بين زمانين . . وعلينا أن نتقبل ذلك ونبتسم لبعضنا بدون كلام .

(٢٥)

المكان: غرفة صخر

الزمان: نصف هنا ونصف هناك..

أخبرتُ أبي بأن الشرطة اعتقلتني بعد مداهمة المكان الذي خطفت إليه ، ولم أخبره الحقيقة كاملة . صحيح أن الشرطة اعتقلتني من ذلك المكان النائي في الصحراء ، ولكن بعد قصة طويلة جداً بدأت عندما كنت عائداً من بيت إحسان ، فجاءت عصابة اقتحمت الشقة واختطفتني . وعصمان كان على حق عندما أخبر أبي بأن عصابة قد جاءت ترتدي ملابس الشرطة واقتادتني معها . هذا ما حدث بالفعل . أما الشرطة الحقيقية فقد حررتني من الخاطفين ، ثم أخذتني إلى السجن واحتجزتني عدة شهور بعد أن كنت مخطوفاً في الصحراء من تلك العصابة التي داهمت البيت عندما كنت عائداً من بيت إحسان في شهر أيلول من العام الماضي . .

بعد أن رأيت حنين تركب سيارة باهر ، كان أبي يسألني لماذا لا تأكل؟ وهل يستدعي حزنك على فتاة تافهة لا عقل لها

ولا قلب كل هذا الألم؟ هذه إنسانة ممسوخة ، فامسحها من بالك ولا تؤذِ نفسك بسببها أبداً . . ولكن نفسي هي التي كانت تؤذيني رغماً عني ، ووجدت بأن الأذى كله كان يتعلق بزعلي مع نفسي أولاً وأخيراً ، مرت سيارة باهر بقربي وتقدمت نحوي ، فتسمرتْ عيناياَ على مقدمة البيجو ذات العلامة المعدنية الفارقة . . أسد يمشي على قدميه .

أنا أقل من غيري شأناً بسبب التأتأة في الكلام . ولكن هناك ما يمكنني فعله غير الكلام . . وقررت أن أفعل ذلك الشيء في تلك اللحظة . . وأن ينقضي ذلك المشهد الحقير بما يستحقه من نهاية . . أبي دون أن يشعر كان يبالغ في عنايته بي وعطفه علي ، ولكن إذا ما سألني وتأخرت في الجواب ، فإنه ينهي النقاش على عجل . . يهرب مني ومن تأتأتي إلى الحمام أو إلى المطبخ أو إلى نشرة الأخبار . . وعندما يعود ليسألني سؤالاً آخر يداري به هروبه ، أعزف عن الجواب . . لا طاقة لي على أن آخذ الأمر ببساطة ، أو أنظر إلى تصرفات أبي معي بعفوية أو بدون تأويل . إنه مؤمن بنظرية الواجب . . والواجب يحتم عليه أن يكون مسلماً صالحاً وزوجاً جيداً وأباً حنوناً وإبناً باراً بأبويه ، وكان يؤدي واجباته كلها باتقان يقترب من إتقان ساعة جدار تواصل تكتكاتها المزعجة . ولعله يعتقد أنه يقوم بواجبه معي أيضاً على خير وجه عندما يجيب نيابة عني ، كما فعل ذات يوم وتحدث نيابة عني أمام باهر .

في بدايات الصيف من العام الماضي اتصلت أمي من دولش وقالت إنها استلمت ميراثها من بيت أمها هناك ، كما إن حفلة تخرّج أخي بدر ستكون في نهاية آب ، وإنها تريد من أبي القدوم لكي يساعدها في شراء شقة صغيرة . احتاج الأمر السفر بسرعة لأن أمي أخبرتنا بأن هناك هبوطاً حاداً في اسعار العقارات ، وأنها تريد الاستفادة من هذه الفرصة النادرة ، التي لن تتكرر ، لتشتري عقاراً يجمعنا بعد أن نلتحق بها . . أبي كان ينتظر تخرجي في الكلية لكي يأخذني معه إلى هناك بشكل نهائي . . دون أن يعرف بأني لن اعيد تجربة الذهاب مرة أخرى بعد أن حدث لي ما حدث مع وندي . . وأني أريد البقاء هنا .

لم يكن قد تبقى على تخرجي سوى شهر واحد . . أكملت للدور الثاني ، وكان أبي يعتقد أن حنين هي السبب في عدم نجاحي من الدور الأول ، مثلما اعتقدَ أن وندي كانت هي السبب في العودة من دولش . . . وأخشى الحديث معه حول أي من السببن . . بل لا أريد ذلك ، لأن ما عرفته كان أدهى وأمرّ من كل شيء . . سجا التي لم يعد لها وجود لم تكن قد جُرحت في رأسها برصاصة طائشة ، ثم ذهبت من المستشفى إلى عمتها في العرب . . اكتشفت عن طريق إحسان أن سجا قد قُتلت ، وأنها تقيأت على الدكة لأن الجندي الأمريكي اغتصبها . . أما من قتلها فتاهت الرواية بين قتل أبوها لها

بالعمد ، وإصابتها برصاصة طائشة عن طريق الخطأ . .

أتذكر جيداً العام ألفين وستة . . أصبحت الدنيا غير شكل في ذلك العام . كل الأعوام في كفّة وذلك العام في كفة أخرى . . ظلت سجا تفقد وزنها حتى أصبحت نحيفة جداً . وعندما تجلس على الدكة لا تضحك ولا تتكلم بل تتقيأ . . قالت بيبيتي حبيبة : هاي سجا يمكن صارت حامل . . وشعرت بالخوف الشديد دون أن أفهم ماذا يعني كلام جدتي . وفي الشارع أيضاً نخاف أن نحكي بالموضوع . . لأنْ كنا مراهقين ، ولا نعرف شلون يعني صارت حامل . . فقط انتابني احساس رهيب بالخوف مما حدث . . سجا لم تعد سجا . . سجا انتهت وقد لا تعود مرة أخرى . . دائماً أخاف أن يحدث هذا ، ولكنه حدث ، واختفت سجا من حياتي ومن حياة الجميع . شعرت بأن الظلام قد حل ، وبأنه لن ينتهي حتى أراها من جديد ، المهم أنها لم تمت ، كما قال أبي ، وقد أراها مرة أخرى بعد أيام . . لم أكتشف إلا بعد سنوات عديدة أن هذه الرؤية لن تتحقق .

تعرفت في الكلية على زميل جديد اسمه إحسان ، وتحدثت معه عن أيام الثانوية وأصدقاء محلتي في كرادة مريم ، اتضح أنه يعرف بعضهم . . . وهو الذي لي قال فجأة :

– إذن أنت كنت تسكن قريباً بيت من تلك الطفلة المختلة التي قتلت؟

أخبرني إحسان بمقتلها ، وكأنه يقتلني . . التقاني في لحظة عابرة ، وجاء من تلقاء نفسه على ذكر سجا التي اختفى اثرها ، وقال إنه عرف قصة الاغتصاب عن طريق قريب له يعمل في الداخلية . . فجعلني ذاهلاً أفكر كيف دارت الأيام دورتها حتى وصل لي أنا من بين كل الناس الخبر الذي لا يعرفه أحد . اختصر الطريق العالم كله وأصابني تحديداً في مقتل . . كل أهل المنطقة عرفوا بقصة حملها ، ثم إصابتها برصاصة طائشة ، ولكن ولا أحداً منهم يعرف بأن الجندي الأمريكي هو الذي اغتصبها ، ولا أحد منهم يعرف حقيقة ما حدث بعد ذهابها إلى المستشفى . . فأبوها لم يره أحد في الشارع بعد ذلك .

كأنما كانت تلك اللحظة المدمرة مقدرة لكي تحدث لي أنا فقط ، محسوبة لتقتلني بجملة واحدة فأعرف من إحسان في ذلك اليوم أن سجا قد اغتُصبت وماتت . . . لم أعد أسمع تتمة كلامه عن باقي من يعرفهم من أصدقاء الطفولة في كرادة مريم . . واصل إطلاق ما في جعبته من أخبار ، وأنا مدمر لا أتمكن من الاستماع إليه ، ولا تمكنت من تقبل فكرة السفر مع أبي . . طلبت منه أن يتركني وحدي ، وأن لا يقلق عليّ ابداً . . كنت بأمس الحاجة الى البقاء وحدي . وكان صديقي إحسان دائم الاتصال بي من أجل الخروج . . وأبي أيضاً كان يتصل بي دائماً من إنكلترا ، فأخبره بأني في البيت حتى عندما أكون مع إحسان . ولولا وجوده معي في تلك الفترة ، لما عرفت كيف

يمكن للابتسامة أن تعرف طريقها إلى حياتي ، أو يمكن لي أن أتحمل وجودي في هذا المكان . . إحسان هو الذي فسر لي الرؤيا بعد أن حلمت بحلم عجيب . . كنت أعبر النهر عن طريق الصعود بدل العبور ، لأن الجسور لم يكن لها وجود . . صعدت الدرج بعد الدرج حتى وصلت إلى الطابق العاشر في أرض محاذية لدجلة تسمى أم العظام ، والآن تسمى المنطقة الخضراء . من ذلك العلو الشاهق بأعلى ما يمكن عن الأرض ، رأيت البنايات متروكة والجسر المعلق مختف من الوجود . . وثمة شمس بعيدة تشبه تلك الشمس المتكررة التي يرسمها الأطفال في زاوية الورقة حتى وإن كانت السماء مليئة بالغيوم . . تراكض كل من في تلك المنطقة بحثاً عن ملجأ ، وتركوا القاصات والباجات ، ثم اختفى الجميع بلمح البصر .

قال لي إحسان . .

– أمَا آن الأوان لكي تترك هذا المكان وتأتي معنا . .

فزرت وقلت له :

– لللا . . لا .

قال :

– إنها رؤيا . . لقد صعدتَ هذا الدرج ، وإيّاك أن تنزل . . أرجوك لا تنزل أبداً .

– خلي نستر على رووورووو روحنا الأول؟

– والبلد منو يستر عليه؟

ولم يستطع إحسان إقناعي بشيء مما يقول . . حوّل حلم شخصي إلى تلميحات للجهاد . . كان دائماً يلمّح لأفكاره بطريقة أو أخرى ، قال إن العراق ليس أوراكا أرض الملوك ، ولا أوراما الأرض العالية ، ولا أورشينا أرض السلام . . العراق هو جمجمة العرب . لنتحدث عما يمكن أن نفعله لهذه الأرض التي امتلأت بالآثام والشرور . . . ودعنا من هذه المسميات القديمة التي نبشها الغرب لنا . . حدث هذا إثر صدمتي بحنين ، وإحساسي بفقدان العالم من حولي لبراءته بعد سماعي خبر موت سجا . هذه المخلوقة الجميلة الطيبة أرادت أن تضحك في الهواء الطلق بدون خوف أو ألم ، فاغتصبت واقتديت إلى الموت بدل الحياة السعيدة . . حكاية شنيعة قلبت عالمي رأساً على عقب ، فشعرت أني عالق في مكان مترجرج ، وأن الوقت غير ملائم لأي شيء . . لك أن تصغي أو لا تصغي ، قال لي إحسان ، فأنت مشكور في الحالين ، ولكني لم أصغ . . ولم أشأ الاستزادة عما يقصده تماماً . . أصحابه هم الذين أجبروني على فهم قصده عندما أخذوني إلى الصحراء ، وعرفت هناك ماذا يفعل إحسان . . حدث هذا بعد سفرك أبي بأسبوعين . . لما إحسان وجماعته دعوني إلى ندوة في بيت واحد من جماعته اسمه هاشم ، خابرتَني وقلت لك أنا بالبيت وأنا لم أكن بالبيت . ولما سمعتَ صوت تلاوة قرآن وسألتني : هاي شنو بابا؟ قلت لك : لا ، ماكو شي .

بالحقيقة كنت مع إحسان في بيت هاشم ، ومن هناك ذهبنا إلى بيته . وبعد أن عدتُ لوحدي إلى البيت اقتحمه المسلحون الذين يرتدون ملابس الشرطة ، وحدث ما حدث .

(٢٦)

المكان: هضبة الهضبة

الزمان: غروب الشمس

أول ما فتحوا العصابة عن عينيّ شممت رائحة ماء يغلي . . رائحة هي خليط من البخار والنار المشتعلة . . الرائحة مألوفة إلى حد كبير . . وكانت تفوح من حمام جدتي حبيبة عندما تحمي الماء الذي فيه ستغتسل . . تساءلت لماذا أنا هنا؟ وماذا سيفعلون بي؟ هل سيسلقونني مثلاً ، أم سيسكبون الماء فوق إنسان آخر أمامي . .

لم أستطع أن أعرف وجوه الخاطفين ، وكانوا ثلاثة . . سألوني الكثير من الأسئلة عن اسمي وعملي ومذهبي ، ثم قرر أحدهم أن يتصل بشخص يُدعى أبو جناب ، وبعد حديث هامس لم أسمع شيئاً منه ، تم اتخاذ القرار بذبحي ، العجيب أن قرار ذبحي لم يأخذ من الوقت الشيء الكثير ، وبدأوا يتحدثون عن المكان الذي سوف يضعونني فيه بعد قتلي . . وهذا الحديث لم يكن مسموعاً فحسب ، ولكنه أخذ وقتاً طويلاً . . كانوا يقولون لا نستطيع أن نذهب إلى المكان الفلاني لأنه خطر . . أنا أفضل المكان الذي وضعنا فيه فلاناً . . لا . . لا . .

لا . . . صاح آخر اتركوا المكان عليّ . . هنالك مكان جديد لا يعرفه أحد . . وهناك سوف نضعه فيه . . أنا أستمع اليهم يرددون اسمي باستمرار . . صخر إبراهيم . . . . . ويتحاورون حوله بصوت هامس . . كنت استمع . وأنا أفكر بأبي ماذا يفعل الآن؟

أنزلوني من السيارة ، وكنت أصرخ بقوة ، ولكني لم أنطق بكلمة واحدة . وفي لحظة وضعوا السكين على رقبتي ولامس طرفها الحاد سطح الجلد ، لم أشعر بأي شيء . . لا أعرف كيف كنت أشعر ، أكاد أقول إني أحسست بالطمأنينة والسكون ، وبتوقف الزمن في هذه اللحظة التي وُضعت فيها السكين على رقبتي . لم أعد أشعر بوجود الخاطفين بالرغم من أنهم في كل مكان من حولي . بل شعرت بأن روحي خرجت من جسدي وذهبتْ إلى مكان أخر ، وبأن جسدي لا يمكن له أن يتألم ، لأن روحي لم تعد موجودة فيه أصلاً . فعلاً لم تعد روحي موجودة في جسدي . . خرجت أو ذهبت إلى مكان بعيد جداً .

هنا سألت نفسي هل هذا هو الموت؟ هل أنا ميت ، ولهذا أحس بكل هذا الأمان والهدوء؟ استغربت أنْ ينجمع السكون والهدوء مع الموت الذي نخافه؟ واكتشفت أن الميت يحس أيضاً بعد ان جربت الموت فعلاً؟ لكنه لم يكن الموت ، لأن تنفسي كان طبيعياً ، ونبضات قلبي أيضاً طبيعية جداً . . ولا زلت أستطيع رؤية الخاطفين الملثمين من حولي ، وأشعر بلمس

السكين على رقبتي . . لم تعد حافتها باردة كما كانت قبل قليل . وفي تلك اللحظة الفاصلة بين وضع السكينة على الرقبة ولحظة رنين الهاتف ، أدركني شعور غريب من السكون لم يسبق لي أن جربت مثله قط . . أحدهم أجاب على الهاتف وبلّغ رفاقه الخاطفين بأن الشخص المطلوب لم يتم العثور عليه ، وبأن الذي معهم يحمل اسماً مشابهاً للشخص المطلوب . . مجرد تشابه أسماء لا أكثر كاد أن يذبحني ويسلب مني حياتي ، وبمجرد أن أدركت أن تلك الحياة قد عادت لي في ثوان ، شعرت بأن تلك الثواني هي أجمل واسعد اللحظات في حياتي !كيف من الممكن أن يحدث هذا؟ لماذا كنت مطمئنا لهذه الدرجة؟ هل أدركت في البداية بأنني سأغادر الحياة التي كرهتها ، فلم يكن الموت قاسياً أو موجعاً بالنسبة لي؟ . . ثم بعد ذلك عرفت قيمتها ومعناها ، عندما عادت الي فجأة كهبة جديدة تنزّلت عليّ من السماء ، وجعلتني أرى الأشياء البسيطة فيها كالنفس ونبضة القلب غالية ومهمة جداً . . وصلت إلى حافة الحياة لكي أعرف قيمتها ومعناها ، فأي معجزة هذه أن يخصني القدر بهذا الطريق الوعر لمعرفة قيمة الحياة .

شعرت بأنهم أصبحوا أقل سوءاً عندما تأكدوا من اسمي وأطلقوا سراح حياتي ولكنهم لم يطلقوا سراحي . . وبعد أن ذهب الظلام وبدأت الرؤية تتضح أمام عينيّ وجدت إحسان

أمامي . . لم يكن متخفياً بلثام مثل الآخرين . . قال إنه هنا من أجلي ، ويريد مساعدتي . . إنه وجدني مخطوفاً فأراد انقاذي . . الصدمة جعلتني أتشنج وأعجز عن الكلام مرة أخرى . . لم يسبق للكلمات أن انحبست في حنجرتي مثل الآن . . بدأت بالصراخ بدل الكلام . . أراد إحسان أن يقول لي بأنه قد تفاجأ بوجودي في هذا المكان ، ولم يكن يعلم شيئاً عن هذا الاختطاف . كانت عيونه شاخصة نحوي ومتوسلة . يبدو أنه فعلاً لا دخل له باختطافي ، وهو الذي قد توسّط عندهم ، فحملوني إلى غرفة مظلمة ، ووضعوني على فراش مريح . . ثم تركوني في هذه الغرفة التي سأبقى فيها لأكثر من شهر . . بسيطة جدا ولكن توجد فيها سدية طبيب ومنضدة عليها لابتوب . . شعرت بأني موجود وحدي ، أو هكذا ظننت . . وبعد قليل انتابني إحساس بأحد ما يحدق فيّ حتى وأنا نائم ، ففتحت عيني ووجدت شخصاً يرتدي صدرية الأطباء واقفاً فعلاً أمام السرير ويحدق فيّ .

(٢٧)

المكان: بعد المكان

الزمان: أيلول ٢٠١١

نائماً طوال ساعات لم أعرف عددها . . أسمع أصوات نقرات على لاب توب ، وأشمّ رائحة طبخ منزلي يشبه طبخ جدتي حبيبة . . شعرت بالجوع وتململت في مكاني فاقترب مني الرجل ذو الصدرية البيضاء وقال لي :

- حمداً لله على السلامة .

- الله يسلمك .

- أين أنا؟

- في مكان آمن . . لا تخف .

ثم ضحك وقال :

- من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

- انا لم أدخل دار احد . . أنتم الذين جئتم بي إلى هنا .

- اعذرْنا إذا أزعجناك .

- ازعجتوني؟ خطفتوني ، وأردتم ذبحي وتقول ازعجتموني .

- هيا إلى الطعام الآن . التشريب بانتظارنا .

الصينية موضوعة على المنضدة ، وفي داخلها لبن وتمر وصحن تشريب يتصاعد منه البخار . . الخبز المنقوع بماء اللحم تغطيه بضع حمصات لم أتمالك نفسي من التقاطها ووضعها في فمي قبل أن أبدأ بالأكل . قال الدكتور بسم الله وشرع يأكل معي بنهم ، وهو يطري لي حلاوة الطعام ، ويشرح لي كيف أن مثل هذه الرائحة يمكنها أن تزيل الكآبة عن النفس وتحسّن المزاج المتعكر . استغربت أن يتحدث عن المزاج في هذا المكان المقفر المشبوه الذي يسميه بالآمن . سألته :

- أين نحن؟

- في أرض الله الواسعة .

ثم صب لي قدحاً من اللبن البارد ، فأدركت فعلاً أن هذا المكان ليس قفراً كما تصورت ، وتتوفر فيه الكثير من أسباب الحياة العادية ، بل تكاد تقترب هذه الحياة من الرفاهية . . بعد الطعام قدم لي سيكارة لم آخذها مع قدح الشاي ، ثم تركني واستدار إلى لابتوبه . . أنا أيضاً استدرت .

لم يعد أحد كما كان . . أنا تحولت من الولد المتيم إلى إنسان صامت ينتظر مصيره . . ثم أضفت إلى نفسي صفة المتأمل الذي ينظر حوله فيرى الشباب الملثمين من مختلف المشارب مجتمعين في هذا المكان الغريب ، فهل هي عصابة للخطف من أجل المال ، أم مجموعة جهادية ، أم تنظيم يدّعي القتال ضد الاحتلال والحكومة التي جاءت معه؟ . . وهناك

الدكتور عامر الرجل المهذب الذي يبتسم على الدوام ، ولا أعرف ماذا يفعل هنا . . هل المال مثلاً هو الذي أغراه للمجيء والعمل معهم ، أم هم هددوه وعرضوه للابتزاز؟ الغريب أنني كنت لا أشعر بالقلق وأنا معه . كأن باب الأرض انفتحت على أرض أخرى ورمتني في غرفة الدكتور عامر لسبب يجب أن أعرفه بعد حين . . . باب هذه الغرفة لم يكن مقفلاً ، ولكني لا أخرج منه . . لم يوافق الدكتور عامر على وضعي في مكان آخر ، وقال لهم إني لن أهرب . . وإنه سيتحمل مسؤولية كلامه هذا ، كلامه كالسحر استجابوا له ، واستجبت له أنا أيضاً . . فأصبحت الباب بالنسبة لي غير موجودة . . أظنها مقفولة على الدوام وهي ليست كذلك . . وأستنتج من طريقة كلام الدكتور عامر خارج الغرفة بأنه يعرفهم منذ وقت طويل .

محادثات آخر الليل مع أبي كانت تساعدني غالباً على التعبير عن مشاعري بشكل أسهل أكثر من أي وقت آخر ، ومن خلالها أيضاً استطعت التواصل مع الدكتور عامر بشكل أفضل ، فعرفت من خلاله الكثير من الأمور والإجابات . . لم يكن ساحر الكلام فحسب ، ولكنه طبيب ناجح لا علاقة له بالحروب ، ويترنم أحياناً بالأغاني أو يطلق النكات . . كان يريد أن يدرس حالتي ، وأول أن سمعني أتأتئ في الكلام قال لي :

– جميعنا نواجه مشاكل في التحدث أحياناً ، غير أنني موجود هنا للاستماع إليك .

- من الصعب عليّ قول كل شيء .

- بدون ما أكون اختصاصيٌّ نطق أقول لك إن علاج الشخص من هذه المشكلة يكون في وقتٍ مبكر من الطفولة . وإذا كان هذا الطفل يتكلم بصعوبة مفرطة ، أو يتوقف عن الكلام بسبب التأتأة فعلى الأهل التسليم بالمشكلة والتأكيد له على أنهم موجودون للاستماع إليه ، وأنه لا يهم كم من الوقت سيستغرق حديثه . فهل كان هناك من يستمع إليك في طفولتك يا صخر؟

قلت له إن أبي كان يمازح الناس جميعهم ، ولكنه يصل عندي ، ويتوقف عن مزاحه . . كان يطري الناس جميعهم ، ولا يطريني . . كأنه يخجل أن يفعل ذلك ، بل هو كان يرتدي القناع عندما يراني . . وهذا القناع كان موجوداً معي فقط ، وحتى عندما يهتم بمشكلة لعثمتي في الكلام فإني كنت أحسه يفعل ذلك بدافع العطف لا الحب . . بحر الحنان مع الناس كان يتحول إلى بحر الشفقة معي ، ومادح أولاد الجيران والمعارف والأصدقاء كان يصلني فيتحول إلى شخص آخر . . أتذكر مرة في سفرة بالمركب إلى جزيرة بغداد ، كنت صامتاً كعادتي طوال الوقت . . وعندما رأيت طفلاً نائماً في حضن أمه ، وقد تكونت فقاعة على فمه . . صرخت :

- سيختنق .

مسحت أمه الفقاعة وابتسمتْ لي بامتنان . ولكن أبي قال :

- اسكت لئلا يستيقظ .

قال الدكتور عامر :

- هل تبحث عن أحد تلومه؟ . . لا أعتقد أن حالتك هذه تندرج ضمن إهمال الآباء للأبناء ومحاولتهم إسكات أبنائهم عند التحدث أمام الآخرين . . صحيح أنه يؤدي فعلاً في النهاية إلى خلق رواسب نفسية سلبية تعمل على زعزعة الثقة بالنفس وتجعل الطفل يشك في قدرته على التحدث بشكل صحيح ، ولكن . . . .

صمتَ قليلاً ، ثم قال :

- لكنّ هناك أسباباً تشريحية عضوية أيضاً تحتاج إلى تشخيص طبي ، كأن يعاني الشخص المصاب من خلل واضح في أعضاء الكلام ، أو يصاب بهذه المشكلة نتيجة لأصابة الجهاز العصبي المركزي بتلف أثناء الولادة أو بعدها . هل أجروا لك فحوصات حول ذلك؟ هل أنت من هذا النوع؟

- كلا ، لست من هذا النوع . الأطباء فحصوني على مراحل . . وقالوا إن المرض ليس عضوياً .

- إذن ، هذا نوع من السلوك ، وحسب بعض علماء النفس يبدأ إرادياً ، ويصبح بعد ذلك لا إرادياً ، وهذه الحالة يفوق حدوثها عند الأولاد حدوثها للبنات بأربع مرات .

أول ما طلبه مني الدكتور عامر هو نَبْذ التفكير السلبي ، وقال إنه سيعالجني من التلعثم في الكلام ، ولكن إذا ما طال بقائي معهم طبعاً . وهو يتمنى أن لا يطول . . هناك أوامر يعطيها العقل لكل أعضاء الجسم استجابةً للخيال المتقن كما يستجيب للحقيقة تماماً ، لذلك انتبه جيداً للأفكار السلبية التي يتم ضخها إلى عقلك سواء بواسطتك أو بواسطة أشخاص آخرين يودون إحباطك!

– ماذا تقصد ببقائي معكم؟ هل أنا مخطوف للأبد؟

– لا أعتقد ذلك . كل ما أعرفه أنه تشابه في الأسماء .

– إذن ، لماذا لا يطلقون سراحي؟

– السماح بذلك ليست معجزة . . سيفعلون ذلك بالتأكيد . .

أخيراً سألني :

– هل تريد كوباً من القهوة؟

– عندما أشرب القهوة لا أنام .

– وأنا على العكس منك تماماً . . عندما أنام لا أشرب القهوة .

ضحكنا سوية ، ثم التفتنا كلٌ إلى شأنه .

(٢٨)

المكان: غرفة المخطوف

الزمان: أيام عمي اسماعيل

لا داعي لسؤال الدكتور عامر كيف تحول إلى التدين ، كل من أعرفهم من أقاربي كانوا شيوعيين أو بعثيين أو ملحدين في شبابهم ثم تحول كل واحد منهم إلى التدين بعد تقدم العمر ، أو بعد توالي الحروب . . حتى أبي إبراهيم وجد نفسه في الحزب الشيوعي بحكم الوراثة . . الوراثة من أخيه الأكبر إسماعيل الذي كان يسبق الجميع في الحماسة لأفكار جديدة ، والذي وجد نفسه خارج المدرسة في وقت مبكر للهرب من أجوائها الخانقة والمملة . . اعترض جدي عبد اللطيف بشدة ، وطالبه بالعودة ، ولكنّ عمي إسماعيل كان متمرداً بطيبيعته ، ويعشق أجواء الانطلاق وتجريب كل شيء جديد .

عمي إسماعيل ، الذي كان شيوعياً في شبابه ، عاد من العمرة قبل أشهر ، ودماء الأضاحي التي يطالبنا بذبحها بين شهر وآخر لا تذكرني سوى باقتراب النهاية . . أما الدكتور عامر فكان في أواخر شبابه ولم يكن كهلاً أو عجوزاً كعمي

إسماعيل . . هو بعمر أبي تقريباً ، ولكن عقيدته بالتأكيد هي التي دفعته لكي يأتي إلى هنا ، ويجرب حياة جديدة ، أو ربما هناك صدفة أخرى لا أعرفها كالصدف الكثيرة التي أحاطت بي وجاءت بي إلى هذا المكان .

عمي إسماعيل هاجر إلى رومانيا أواخر السبعينيات ، وكان من أوائل من تشرد من العراقيين بسبب عقيدته السياسية التي رفض التخلي عنها كضمانة لبقائه وعدم ملاحقته في العراق . لم أدرج مع أولاده أو أترعرع معهم ، فهم من جيل آخر أصغرهم ، واسمه شادي ، أكبر مني . . وكنت أشاهد صورهم باستمرار من خلال جدي الحاج عبد اللطيف الذي كان يزور عمي إسماعيل باستمرار وأحياناً يأتي إلينا من رومانيا إلى بريطانيا بعد أن يكون قد زاره والتقط معه الكثير من الصور . لم أكن لأهتم كثيراً بصور أولاد عم يكبرونني بعشرة أعوام على الأقل ، وبعيدين عني بمسافة آلاف الأميال . . كنت أنساهم باستمرار ما عدا هذا الابن الأصغر شادي . أتذكره دون أولاد عمي جميعاً لسببين ، الأول كان اسمه الغريب نوعاً ما . والثاني وجود وشم على شكل شجرة صغيرة في جبهته . . أمه تقول إن تلك الوحمة ظهرت في جبهته لأنهم لم يستطيعوا الحصول في رومانيا على التمر هندي الذي تشهّت عليه أثناء حملها . . وإن الطبيب قال إنها ستزول بمرور الزمن ، ولكن اتضح أن الأمر غير ذلك . تمددت تلك الوحمة وتحولت الى ما

يشبه الشجرة مما اضطره إلى اطالة الغرة على جبهته لإخفائها .

بعد عام ٢٠٠٣ زارنا عمي إسماعيل مع ابنه الأصغر شادي فأضاف سبباً ثالثاً سيجعلني أتذكره مدى الحياة . دار حديث طويل عن الحرب التي كانت لا زالت قريبة . . وأفرغ عمي غضبه على اهتمام الناس بتفاصيل ليست جوهرية مثل اعتبار يوم التاسع من نيسان يوم عيد وطني ، والمطالبة بتغيير العلم أو النشيد الوطني . كان يعتقد أن الأمريكان قد حرروا العراق من نظام دكتاتوري ، ويجب أن لا يكون هناك تمرد عسكري ، أو هجمات انتحارية لمقاومة الوجود الأمريكي في العراق . . أبي قال له كان يمكن امتصاص هذا التمرد ، قبل أن يتحول إلى عنف ، عبر حكومة مدنية لا تسمح للأحزاب الدينية بأن تصبح هي المنتفذة في البلاد ، أما وقد أصبح الحكم بهذه الشاكلة فسرعان ما ستجد باقي الناس ينضمون إلى قوافل المغتربين الذين يصابون بحمى الوطن ، ويشتهون في غربتهم الكاهي والقيمر والصمون الحجري ، فإذا ما عثروا عليها في المطاعم والمخابز العراقية أوهموا أنفسهم بأنهم في وطنهم .

جدي كان على قيد الحياة ، وأقام وليمة كبيرة لعمي وابنه شادي حضرناها مع عماتي وأعمامي والكثير من الأحفاد والحفيدات . . نصب جدي مائدة كبيرة جداً امتلأت بأطباق من جميع الأصناف . . البرياني والمقلوبة والسمك المسكوف والبامية والدولمة التي لم يتذوقها عمي إسماعيل منذ

سنوات . . جاء جدي بالكثير من عمال المزرعة وزوجاتهم لمساعدة جدتي وعماتي في إعداد تلك الأطباق العملاقة . . أما أمي فاختصت بعمل السلطات والمقبّلات وأطباق الحلويات الباردة التي تجيدها . . صبّت مهجتها في إعداد بودنك التفاح وكيكة الكريم كراميل وحلوى الفراولة ، فكان جدي يترنح تيهاً وفخراً بهذه الكنّة الإنكليزية الماهرة في المطبخ ، بالإضافة إلى مهارتها في باقي شؤون البيت وشعبيتها التي فاقت شعبيته بين جيرانه في المنطقة . .

عندما حان وقت الطعام ، تقدمنا للجلوس على المقاعد ، فسحب الجميع كراسيهم وجلسوا عليها . . أما أنا فتقدم شادي مني ، وسحب الكرسي لي لكي أجلس عليه . . شكرته بحرارة وجلست دون أن أجلس بالفعل . . أحسست بوجود هوة من تحتي سحبتني إليها ثم إلى الأرض . . سقطتُ إلى الأرض ، وانقلبت على ظهري .

سمعت شادي يضحك . .

بمقدوري أن أتذكر إلى الآن ضحكات شادي التي انطلقت بعد أن سحب الكرسي قبل أن أجلس ، وجعلني أسقط على الارض . . أتخيل إلى الآن تلك الهوة على أنها أبدية . . لم تغب عن بالي قط صورة أبي ابراهيم وهو يفزع ويتقدم نحوي لمساعدتي على النهوض ، ولا ذهول جدي عبد اللطيف الذي كان الشرر يتطاير من عينيه . . أبي عندما اقترب مني قال :

- غير تنتبه يا ابني؟

لم يلم ابن العم الأهوج ، ولكنه لامني لأن عـــورتي أوشكت أن تظهر أمام أعين الإنس والجن . وكم كان رهيباً أنْ لا يأبه لاحمرار وجهي أو لوضعي المهين أمام العيون التي أحاطت بي من جميع الجهات . جدتي حبيبة قالت لنا في الصباح . . عندما تخلع ملابسك قل باسم الله الذي لا إله إلا هو ليحجب الله عورتك عن أعين الجن ، وهي التي ألحت علي وعلى أخي بدر وجميع الأولاد الذين حضروا الوليمة بتدشين الدشاديش البيضاء التي جاءت بها من الحج . . .

(٢٩)

المكان: بغداد

الزمان: قبل الحرب

كنا جميعنا ، أنا وبدر وأمي وأبي ، نقيم في بغداد قبل قيام الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق . . وعندما بدأ القصف من السماء كان عمرنا أربعة عشر عاما ، وكنا على وشك دخول امتحانات الصف الثاني للمرحلة المتوسطة . . أذكر جدتي كيف حضّرتْ أكياس الطحين والمؤونة وقناني الماء وهي تقول ما الذي ورّط صدام مع أمريكا؟ هاذي دولة قوية وراح تسمط أبوه سمط . . وجدي عبد اللطيف كان يضحك عليها ، ويقلل من مخاوفها ، لأنه من الذين يمجدون العسكر ويحبون الجيش العراقي .

في يوم القصف تجمعنا مع الأقرباء بمزرعة جدي في محيط الكاظمية . . أمي هي التي جاءت بنصف الجيران لمزرعة جدي ما عدا سجا التي رفض أبوها مجيئها . . كانت أمي قوية ولا مبالية طوال الوقت . . قالت لنا لا تخافوا ولا تهتموا . . وتحدثت عن شجاعة أمها اليزابث أيام الحرب العالمية الثانية ، وسردت علينا للمرة الأولى حكاية أول حرف من كلمة نصر

بالإنكليزية ، والذي يجسده رفع إصبعي السبابة والوسطى بينما بقية الأصابع مضمومة . قالت لنا أن تلك الحركة اشتهرت في المملكة المتحدة خلال الحرب عندما استخدمها رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرتشل بمعنى النصر ، لأنها على شكل حرف الـ Vوهو أول حرف من كلمة Victory ، ومنذ ذلك الوقت والجميع يستخدمها لهذا المعنى الجميل . . ظلت تتحدث وتتحدث عن الشجاعة والبطولة والانتصارات ، إلى أن دوّت صافرة الإنذار التي تسمعها للمرة الأولى في حياتها ، فدخلت في ذهول عميق ، وأصبحت صامتة لا تتكلم . . وكامت ما تحجي ولا كلمة . . ثاني يوم أصبحنا كلنا نحن الأولاد نركض والطيارات تقصف . . . رفعنا جميعاً أصابعنا بشارات النصر ، وأنا أكثر من كنت فرحاناً بالغارات لأن الطيارات كانت تطلق ضوءً حلواً أحمر اللون . . وبالرغم من أن المدارس كانت معطلة ، فقد كانت البنات يرقصن ويغنّين أغاني المدرسة : بوش بوش اسمع زين . . كلنا نحب صدام حسين . ست سعاد يا عيوني . . لابسه قاط زيتوني . . لابسه ساعة لماعة تسوى كل الجماعة .

ظلت أمي ساكتة لا تتكلم لعدة ساعات . . ونحن نغني ونهرج كلما انطلقت صفارة الإنذار . . . هجرنا الطابق العلوي ، وأنزلنا أغراضنا كلها إلى غرفة نومنا في الطابق السفلي . . مجلات الرجل الخارق والألعاب التي نحبها مع البلاي

ستيشن ، جمعناها نحن الصغار بصندوق كبير ، ومستمسكاتنا الرسمية جمعها جدي بجنطة صغيرة ، وأمي ملأت القناني والسطلات بالماء . . وأبي عثر على منفاخ بين قلاقيل بيت المزرعة ، فأعطاه لعصمان الذي شجعه المنفاخ على شراء الدراجة الهوائية .

مع القصف جاءت عاصفة التراب ، وطاشت الدنيا بين البرق والرعد والهواء العاصف . . وتطايرت أوراق الاشجار من حديقة مزرعة جدي إلى الشارع عبر السياج المهدم بقذيفة هاون ، وظهر القنفذ بين الأشجار ، وتكوّرَ على نفسه عندما أراد بعض الأطفال أن يضربوه . الكثير من الغرائب حدثت في تلك الأيام . . أصبحنا ننام ونأكل في غرفة واحدة ، وغادرتنا أمي من المزرعة إلى البيت في اليوم الثاني ، لأنها قلقت على المكواة التي قد تكون مشتعلة ، وتلك قصة اخترعتْها من أجل قطط الحديقة التي يجب أن يطعمها أحد ، فبقينا ننام مع جدتي حبيبة التي كانت تقول لكل واحد منا :

– عندما تخلع ملابسك قل باسم الله الذي لا إله إلا هو ، ليحجب الله عورتك عن أعين الجن . .

قضينا وقتنا في لعب الشطرنج ، والحية ودرج ، فمع تلك الألعاب لم نكن نحتاج لكهرباء المولدة الشحيحة كما هو الحال مع البلاي ستيشن . . لا أزال أتذكر اللحظة الحاسمة في لعبة (الحية ودرج) ، لما نوصل رقم (٩٨) ويطلّعلنا الزار رقم (١) ،

فـتـرّجـعنا الحـيـة الطويلة من الرقم (٩٩) إلى الرقم صـفـر ، أو يطلعلنا الرقم (٢) بعد الرقم (٩٨) ، فنصل الرقم مئة ، ونفرح بالفوز .

انتهت الحرب وصمتت صفارات الإنذار . . . . وجاء عمي إسـمـاعـيل مع ابنه شـادي ليـزورنا في بغـداد من أجل مـعـاملة تتعلق بعقار من عقارات جدي . . استغرب حينها من بقائنا في بغـداد ، خـصـوصـاً وأننا قـد نكون مـسـتـهـدّفين من بعض المسلحين ، لأن أبي يعمل في الصيرفة ، وجـدي عبـد اللطيف تاجر معروف كان يورد لوزارة التجارة بعض احتياجاتها كالشاي والسكر والطحين . . عمي إسماعيل قال :

– لماذا بقـيـتـم في بغـداد أصـلاً ، ولماذا لا تعـودون إلى بريطانيا؟

نحن فـعـلاً كنا على وشك الذهاب إلى بريطانيـا بعـد أن يصفّي أبي أمور عمله في الصيرفة . . استنكر عـمي إسـماعيل هذا الأمر ، وزاد استـغرابه الشـديد ، وقال لماذا هذا الانتظار؟ لم يكن ينبـغي بقـاؤكم في بغـداد أصـلاً ، لا أثناء الحـرب ولا بعـدها ، لأن الصـرافين أكـثـر عـرضـة للخطف والقـتـل من التـجـار . . . . عـمي عـاد مع ابنه شـادي إلى بوخـارست بعـد أيام . . شادي الذي جعلني أشعر بالعار .

جئنا من دولش مطلع التسعينيات وعشنا في بغداد وقت الحـصـار دون أن نشـعـر بالجـوع أو العـوز ، ثم جـاءت الحـرب

الأخيرة ، حرب أمريكا التي احتلت العراق ، فعدنا إلى دولش بعدها بعامين وبقينا عاماً واحداً لم أشعر فيه بالارتياح . . . وبدأتُ ألح على أبي بالعودة إلى بغداد . . اكتشفت أني مثله أحب أن أكون في بغداد . . وأن عمي إسماعيل لم يكن يدرك تعلّق أبي بالعائلة وبيت جدي في بغداد . . اقترحت أمي أن نعود جميعنا إلى العراق مرة أخرى . . ولكنّ الوضع كان يزداد خطورة . . وأبي لا يدري ماذا يفعل . . وفي النهاية حسم أمره وقرر أن يشطرنا نصفين . . نصف هنا ونصف هناك . . أنا وأبي في بغداد ، وأمي وبدر في دولش . . قال إن الوضع سيكون مؤقتا . . مثلما قال في التسعينيات . . الكلام نفسه . . الكثير من الناس كانوا يعودون ويقولون إن الوضع مؤقت ، أو يسافرون ويقولون إن الوضع مؤقت . . عشنا كل حياتنا بوضع مؤقت . . والدكتور عامر أيضاً سيعيش خطورة هذا الوضع ، لأنه المؤقت . . وماذا بعد هذا الوضع المؤقت ، إذا ما أردت العودة ولا تستطيع؟ . . سألت الدكتور عامر ، فقال :

– أنا هنا بشروطي وليس بشروطهم .

– هل تعرفهم منذ زمن طويل يا دكتور؟

– نعم أعرفهم منذ وقت طويل . .

– ولماذا أنت هنا؟

– إني هنا لأجرب سراً من أسرار الشرق اسمه السمبل سوليوشنز ، وتلك الحلول البسيطة أوقعتني في غرامها .

وجعلتني أتعلم وصفات الكلام الجميل التي كان تتقنها أمي الشامية ، والتي كانت تعمل على طرد الكآبة والحزن دون الحاجة إلى الثيريبيز والعلاجات .

– لا أفهم ماذا تجرب هنا ، أو لماذا جئت أصلاً إلى هذا المكان الغريب؟

– جئت بسبب حمى الوطن .

– هومسك؟

– إنها ليست الهومسك بمعنى الحنين الى الوطن . . إنها حمى الأرض . وهي الصفات التي يتشابه فيها الإنسان مع أرضه . . يقول أبوقراط عالجوا كل مريض بنباتات أرضه ، فهي أجلب لشفائه .

– وهل هذا الخراب هو نبات أرضه؟

– لم أقصد الحرب ، ولكن قصدت الجذور .

– وما دخلي ودخلك في هذه الحرب؟

– الحرب ضرورة يا صخر . . الحرب هي طمث الرجال الذي عن طريقه يتخلصون من سمومهم .

– كيف عدت؟

– عدتُ من هولندا إلى بلدتي ، ومن هناك إلى هنا لا يتطلب الأمر سوى بيكب ، أو دابة قوية .

آخر الليل تبسّطّ بالحديث أكثر ، وهذا ما يحدثه الظلام غالباً مع المشاعر والأسرار ، وعرفت من الدكتور عامر قصته

كـاملة . .لقـد ترعـرع في المنفى ، وكـبـر في الإمـارات وسط مجموعة من الإخوة والأخوات من زواج والدته الثاني . كادت سـوريا أن تصبح جزءاً من الماضي بالنسـة للأطفـال ،لولا أنهـا كـانت حـاضرة في حـيـاة الأسـرة من خـلال الطعـام والأغـاني والقصص .

عندما بلغ عامر الثامنة عشرة من العمر قرر العودة إلى بلده لإكمال دراسته في الجامعة بسبب عدم قدرة الأسرة على دفع تكاليف الدراسة في الإمارات . وصل عامر مطار حلب حاملاً حقيبة سفر وكيساً مليئاً بقطع الشوكولاته ، كان الأسد الأب لا يزال ممسكاً بالسلطة .أُوقف في المطار مباشرة وتم استجوابه عن والده الذي مـات في المعـتـقل قـبل عـشـرين عـامـاً ، وبعـد سين وجيم تركوه في النهاية بعد أن صادروا كيس الشوكولا وختموا جواز سفره .

بدأ عـامر الدراسـة في الكليـة الطبـيـة ، وكـرس كل جـهـوده للدراسـة فـقط ،لكنه بقي تحت أنظار رجال الأمن طوال الوقت وزاروه في الجامعة أكثر من خمس مرات طالبين منه الانضمام إلى صفوف حزب البعث الحاكم . اعتذر عامر وقال لهم إنه لا يرغب بالانضمام إلى أي جماعة سياسية . ضغطوا عليه بكل الوسائل ، وحاولوا منعه من المشاركة في الامتحانات .

- لكنـي بقـيت مـصـراً على مـوقـفي ، وفي آخـر مـرة تم استدعائي إلى مقر المخابرات . . أبقوني نحو خمس ساعات ،

وتم استجوابي بخصوص أمور كثيرة ، ومن بين الأسئلة التي طُرحت عليّ . . هل أنت مثل والدك؟ هل تعلم أن والدك كان معارضاً للأسد؟ فقلت لهم أنا لا أعارض أحداً . . أريد أن أكون حراً فقط .

رغم كل الضغوط ، أنهى عامر دراسته الجامعية وبدأ العمل طبيباً في مستشفى بحلب المدينة التي اختفى فيها الوالد إلى الأبد . وعندما بدأت مظاهرات السوريين في شوارع مدينة درعا جنوب سوريا في شهر مارس عام ٢٠١١ ، شارك في الاحتجاجات ضد نظام الأسد منذ اليوم الأول .

– كان الآخرون يرون أن ما جرى في درعا ليس سوى مزحة ، ولن تسفر عن شي ، كنت أرى غير ذلك ، كنت أعتقد أن شيئاً ما يحدث ، شيء ضد حكم عائلة الأسد ، ولم أتردد في الانضمام إلى ذلك . . وقفت إلى جانب الثورة منذ بدايتها ومن صميم قلبي ، كنت أنشد الحرية للشعب السوري ، أدركت لاحقاً أن عشرات رجال الأمن كانوا يندسون بين المتظاهرين ، كانوا أيضاً يهتفون مثل المتظاهرين ، لكن عملهم كان جمع الأسماء وأخذ صور المتظاهرين . بقيت أشارك في المظاهرات ، لكني بدأت أغطي وجهي وأخفي سيارتي . . كنا نساعد النازحين من أبناء القرى التي دمرها النظام في ريف حلب . . كنا نوفر المسكن والطعام للأسر النازحة ونجمع الأموال سراً من الأصدقاء ونشتري الملابس وأغطية النوم للنازحين . . كنت

أشعر بالخوف طوال الوقت .

ذات يوم تلقّى عامر مكالمة هاتفية لمراجعة فرع المخابرات العسكرية في حلب ، وفي نفس الليلة اتصل به أحد الأصدقاء وحذره بالقول : «لا تذهب ، إنهم يعرفون أنك تساعد الأطباء ، يجب أن تخرج من سوريا» . استرجع عامر الأموال التي أودعها لدى الأصدقاء واشترى الوقود من السوق السوداء . بعد خمسة عشر يوماً توجه بالسيارة إلى معبر باب الهوا مع تركيا الذي يسيطر عليه المعارضون ، ومن هناك اتجه إلى أوروبا . اختبأ داخل شاحنة لنقل البضائع عدة أيام إلى أنْ وصل هولندا . حصل عامر أخيراً على حق اللجوء في هولندا ، ومن هناك جاء إلى هنا .

ولم يجبني الدكتور عامر عن سؤالي بشكل واضح . . لماذا هو هنا؟

(٣٠)

المكان، خارج حدود المكان

الزمان، نهايات ٢٠١١

الدقائق تمر وكأنها أعوام طويلة ، وأنا أراقب السيارات تأتي وترحل ولا شيء غير ذلك . . ولكن الوجوه كانت مختلفة ، بعضها ملثم وبعضها متجهم بدون لثام ، وكأنها ترتدي أقنعة شبيهة بالتي تصنعها خالتي سوزان . . أدركت أول ما أنزلوني من السيارة أن الموت هو ليس أسوأ ما يصيب الإنسان ، ولكنه العار . ما أن رأيت إحسان حتى بدأت الصراخ . . لم أستطع الكلام خوفاً من عار التلعثم في الكلام . . كنت مكتّف اليدين . . ومحبوس اللسان . أردت الهجوم عليه ، وبدون ان أتحرك من مكاني انتباتني هستيريا الصراخ ، وبعد الصراخ جاءني إحسان إلى غرفة الطبيب ، وأقسم لي بأنه لا يعرف مِن أمْر اختطافي شيئاً ، ثم قال لي أنه كان يمكنه أن يضع لثاماً على وجهه لو كان من ضمن الخاطفين لكي لا أعرفه . قرأ على رأسي فاتحة الكتاب وآية الكرسي والمعوذات ، وجاء لي بالحلتيت وهو صمغ نبات كريه الرائحة والطعم ، رائحة بخاره مثل الثوم والبصل الذى أصابه العطن ، وتلك الرائحة يكرهها

الجن ويفرون منها ، وأحيانا تكون سبباً ، كما قال إحسان ، في خروج السحر المأكول والمشروب . ثمة مجال للضحك حتى في هذا المكان . وبعد أن خرج إحسان ، عكنش الدكتور عامر وجهه ممتعضاً من رائحة الحلتيت التي انتشرت في المكان ، وقال لي : لا عليك ، أنا الذي سأعالج إحسان من هذا الجني الذي تلبسه . . ثم ظل يضحك حتى جعلني أضحك .

معاذ أيضاً زارنا أكثر منّ مرة وهو مكشوف الوجه ، وكان ينظر إلي بتركيز ، رجل ، لم أعرف اي شيء عن أسراره سوى أنه صديق قديم للدكتور عامر . . وسيم طويل القامة يمتلك عينين واسعتين وحادتين ، وعندما يضحك يبدو فمه صغيراً جداً بالقياس إلى خشونة ملامحه والشعر الأسود الكثيف الذي يحيط برأسه ووجهه ، أما ملابسه فاعتيادية ومقتصرة على قميص وسروال مع غترة يضعها حول عنقه . . . كان يأتينا ممتطياً الجمل أو الحصان من أجل التمويه ، ومعه مجموعة كبيرة من الجمال ، لكي يبدو الأمر كما لو أنه يقود قطيع إبل تكلأ في الصحراء . .

قال الدكتور عامر عنه إنه يشبه وزير الداخلية في هذا المكان ، وله دهاء كبير . . لم أعرف من أي بلد عربي هو ، ولكن أحسست بأني قد رأيته أو عرفته من قبل . . سحنته ورأسه الكبير مع عينيه الواسعتين يدلان على أنه من أهل العراق . . ولدي شعور مؤكد بأني قد رأيته من قبل دون أن أتذكر أين . .

كان المثل الأعلى للجميع ، وبدا لي أن الخوف هو الذي يجعله كذلك ، فما أن غادر المكان حتى تحدث عامر بالإشارات ووضع سبابته على فمه ، ففهمت بأنه يطلب مني عدم التعليق أو الكلام . . كان خائفاً منه حتى بعد أن ابتعد . . ولم أتحدث إليه بما كنت أفكر فيه . .

نهض عامر من مكانه بعد خروج معاذ ، وكعادته كلما بحث في غوغل ورأى شيئاً يستحق المشاهدة دعاني لمشاهدته . . كالفيديو الذي رقص فيه عباس الأسمر ، والفيديو الذي مات فيه ، وأحياناً كان يسمح لي بأن أتصفح الإنترنت على لابتوبه ، ولكن بحضوره فقط . كلما فكرت بأنه يمكنني التوصل إلى باسوورد الواي فاي عن طريق لابتوب الدكتور عامر ، أنبذ هذه الفكرة من رأسي ، ومعها الكثير من الأفكار ، لكي لا أخون ثقته بي .

عباس أبو العسل شرطي أسمر ينطلق كالزنبلك مع كل صوت للموسيقى . في أي مكان يكون فيه في عيادة أو شارع أو عرس ، فإنه ينهض ويهتز كالسعفة مثيراً الضحكات والهمهمات . هو الذي علّمني وباقي الطلاب هذا النوع من الرقص في رحلة مدرسية لساحة الاحتفالات عندما كان يعمل سائقاً لباص المدرسة . وبعد انتشار صيته ظهرت صورته وهو يرقص في السيطرة بينما طابور السيارات ينتظر .

الدكتور عامر ناداني لكي أراقب ذلك الفيديو عن عباس

الأسمر . . ولم أكن أتوقع أن أرى عباس السائق بالذات في اليوتيوب ذات يوم . . عباس أصبح في نهاية الخمسينيات من العمر تقريباً . . يراقب حماماته البيضاء ، ويجلس بلحيته اللتي يملؤها الشيب أمام حوض ترابي مزروع قرب نقطة السيطرة التي يقف فيها ، ويربي كلباً وعدة حمامات من النوع الزاجل . عندما تمر السيارة الحوضية التي تسقي النباتات المزروعة في الجزرة الوسطية للطريق يستوقفها عباس الأسمر ويأخذ خرطومها بين يديه ويسكب الماء غزيراً على نباتاته . أحياناً يتمازح مع زملائه بأن يضع رأس الخرطوم بين فخذيه كما لو كان يتبول هذا الشلال الهادر من الماء ، أو يغسل نفسه تماما بالماء المتدفق .

كنت لا أزال أفكر بالرجل الذي كان هنا قبل قليل ، وهو معاذ ، أين رأيته يا ترى؟ أنا متأكد من أني رأيته من قبل . . بقي هذا السؤال يحوم حولي ، ويزعجني . . عامر يقول إنه شخص مرهوب الجانب في هذا المكان ، وأنا أتساءل مع نفسي هل أن معاذ موجود هنا لكي ينتفض لكرامته المهدورة ، أم أنه جزء من منظومة كبرى تنتقم لعدوان الغرب علينا عبر مئات السنين . . للرسوم المسيئة . . للاستعمار ونهب الشعوب . . للاحتلال الأمريكي للعراق . . لكذب بوش على العالم وعلينا . . هذا الأخير هو الذي يجب أن يكون السبب ، ولكن كيف يكون قتل الابرياء هو الطريق الى ذلك؟ وكيف يسير

الكثير من الشباب العرب والأجانب في مثل هذا الطريق . . الكثير مما أفكر به كنت أشارك به الدكتور عامر . . سألته :

– وماذا عن الأجانب الذين يأتون من كل حدب وصوب . . بالتأكيد فإن علائم يوم القيامة وحدها غير كافية لبعث الحماسة في نفوسهم لدرجة أن يتخلوا عن دنياهم ويسافروا من أجل الجهاد .

– هناك مواقع إلكترونية تخاطب الشباب من أصول عربية وإسلامية في الغرب ، وكذلك من الشباب الذين تحولوا إلى الإسلام حديثاً ، ليكونوا محركات تطرف وعنف في مجتمعاتهم .

– أعرف هذه المواقع جيداً عن طريق إحسان ، وبعضها باللغة الإنكليزية .

– هناك أيضاً من ينتابهم الفضول لدخول منظمة سرية أو يشعرون بأنهم يمثلون فلماً من أفلام الأكشن ، وهناك من يعتقد أنّ الجهاد هو (الروك آند رول) للعصر الحديث . والذي كان منبوذاً أصبح قويّاً بالسلاح الذي هو عنصر جذب كسيّارة الفيراري بالنسبة لآخرين . هنالك عوامل كثيرة تؤثّر على المسلمين ممن يعيشون في الغرب . فالشبّان يريدون تغيير العالم وأن يكونوا محبوبين ومتمتّعين بحسّ الانتماء . باورفل إز سكسي . القوي بين الرجال يكون أكثر جاذبية .

– ألهذا يستمتع بهذا الدور بعض الشباب من غير العرب؟

– أو هم جاؤوا يبحثون عن المدينة الفاضلة . وهذا المكان يمنحهم الإحساس بأن كل واحد منهم سيحقق العدالة على طريقة روبن هود . غابت الدولة العادلة فجاؤوا يبحثون عن المدينة الفاضلة . . . . . دولهم الظالمة أفقرتهم وهمشتهم . . ولا ننسى إتفاقهم جميعاً على قضيّة نفاق المجتمع الغربي في ما يتعلّق بالاسلام . . إن القانون يمنعهم من التظاهر بالعنصرية ، ولكنهم في داخلهم عنصريون للنخاع . . وما أن تسنح الفرصة للتعبير عن هذه العنصرية حتى تظهر كالوحش من القمقم .

– أليس هذا حالنا نحن في العراق وحال الجميع؟

ظل الدكتور عامر يواصل حديثه الخافت وكأنه طبيب تخدير . . وانا أفكر بقدح مليء بشراب ساخن داكن اللون ، إلا أن القطرات التي تتعرق عليه من الخارج تكون عبارة عن ماء صاف . . أين صورة شراب الشاي الساخن ، وأين صورة البخار؟ . . كونترول زائداً زد ثم اختفت الصورة من رأسي ، لم أكن مقتنعاً بأن يكون الماء الصافي هو ما يتبخر من شراب غامق اللون . . وفجأة عدت للتفكير بما فكرت قبل قليل . . أين رأيت معاذ هذا من قبل؟ أنا متأكد بأني رأيته ، ولا بتوبي لو كان معي لكتبت بضع كلمات على محرك البحث غوغل . . كلمات قد تكون مفاتيح لمعرفة شخصية معاذ الذي هو بالتأكيد يحمل اسماً مستعاراً غير حقيقي . . . كلمات مثل ضابط . . جيش سابق . . تنظيم ، أو يمكنني إجراء البحث عن كلمات

أخرى ككلمة مقاومة أو تمرد أو عمليات إرهابية أو جماعات ومنظمات سرية . . أو ضباط سابقين انخرطوا في المقاومة والتمرد . .

لو كان لابتوبي معي لرسمت صورة مجسمة له قد تساعدني في تذكر وجه معاذ ، وتجعلني أعرف أين رأيته . . درست النحت في الأكاديمية ، وسيسهل عليّ رسمه رسماً ثلاثي الأبعاد مع برنامجي الثري دي ماكس والفوتو شوب ، وأنا أعلم بأني حتى لو قمت برفع الصورة على محرك بحث الصور ، فلن أعثر على معلومات عنه عبر غوغل الذي لن يبحث سوى عن لوحات مشابهة للوحتي من حيث الهيأة فقط ، دون أن يتمكن من التعرف عليها ، لأنها من صنعي أنا ، ولم يسبق أن نشرها أحد غيري . .

لم أتوصل إلى حقيقة معاذ ، ولا تذكرت أين أكون قد رأيته ، ولكني بقيت أسترجع صورته وأنا أحاول أن أعرف أو أتذكر أين رأيته . . كأنني أعرفه حق المعرفة . . أين رأيت معاذ؟ . . هل يشبه إحسان؟ لا لا لا يشبه إحسان . . إنه يشبه أحداً آخر . .

(٣١)

المكان: هناك

الزمان: نهايات ٢٠١١

لماذا ، إذن ، أنا هنا؟ . . . إذا كـان هذا التنظيم منشـغـلاً بالجهاد ، فما لذي أفعله هنا معهم؟ . . معاذ ينظر لي بفضول ، والصغار منهم أقرأ الطيش في عيونهم ، وكادوا أن يذبحوني بعد اختطافي ، وكان يمكن أن يحدث ذلك كشربة ماء ، لولا اتضاح أن الأمر مجرد تشابه في الأسماء . . إذن هم تأكدوا جيداً قبل أن يقتلوني ، فهل هذا يجعلهم شرفاء ، أم أنهم كانوا يستثيروني ويحطمون أعصابي؟ .

بعد أن أصبحت فائضاً عن حاجتهم . . فكرت في أنهم سيتصلون بأهلي ، ويطلبون فدية كبيرة لأن أبي يعمل في الصيرفة ، ولكنهم قالوا إنهم ليسوا عصابة ليفعلوا ذلك ، وإنما مجموعة مسلحين يجاهدون ضد الاحتلال والحكومة التي جاءت مع الاحتلال . انقضى الاسبوع الأخير من شهر تشرين الأول ٢٠١١ ودخلنا الشهر الثاني . . يوماً أقول لنفسي إنهم يريدون كسبي إلى صفهم ، ويوماً آخر أقول إنهم ينتظرون

الاستفادة مني في شأن من شؤون عملياتهم ضد الجيش والشرطة ورواد الاسواق . . ترددت طويلاً قبل أن أقول للدكتور عامر الذي كان يعاملني كأخ صغير :

– ولكنهم أبرياء . .

دخل معاذ الغرفة في تلك اللحظة ، ظهر بشكل مفاجئ وقال :

– القتلى الذين يسقطون كل يوم لا يموتون بسبب الإرهاب ، لكن بسبب انعدام العدالة والوطنية . أمن المواطن هو مسؤولية الحكومة ، وليس مسؤولية الناس العُزّل . فإذا كانت الحكومة تستغل الناس العزل من أجل أن يكونوا دروعاً بشرية أو من أجل أغراضهم السياسية ، فهذه جريمتهم وليست جريمتنا ، فهم يعلمون ما الأذى الذي سوف يتعرضون له ، ومع ذلك يدفعونهم للموت . . فمن الانتحاري هنا؟

تجرأ الدكتور عامر ، وقال :

– الانتحاريون هم جبل الجليد الذي يوجد خلفه جيش من الذين يمدونه باللوجست اللازم لإداء هذه المهمة . . وهذا الجيش هو هؤلاء الذين يستمدون من التاريخ اعتقادهم بأنهم وحدهم على حق ، وبأنهم سيمتلكون الجنة .

– لا يا دكتور ، وراءهم يقف جيش من مرارة الفقر حد الإملاق و قسوة الظلم حد الفاحشة . هناك اليأس الزؤام بسبب بطالة اليد وفحش الغنى للطغاة والقامعين والفاسدين . . هناك

البدع والأباطيل وعبادة القبور . .

التفتَ اليّ الشيخ معاذ ، وسألني :

– وأنت ماذا تظن يا صخر؟ الذنب ذنب من؟

– أياً كان المذنب ، الناس هم الضحايا .

– انظر إلى بغداد الآن ، وستعرف من المذنب . . إنهم الكفار المرتدون والمتعاونون مع القوات الأجنبية . . وسنقاتلهم حتى إن أدى ذلك إلى قتل من يسقط عرضاً من الأبرياء .

استغربت كيف أن الدكتور عامر يطرح رأياً مخالفاً بحرية تامة ، وعجبت من هذا التناقض بين أن يدافع الدكتور عامر عن رأيه هذا ، وفي الوقت نفسه يكون موجوداً في هذا المكان ، وينقذ حياة بشر آخرين لا يعرف عنهم شيئاً ، وقد يكونون قد ساهموا في القتل والتفجيرات ، وعندما يأتون له بالجرحى يظهر براعة كبيرة في إسعافهم دون أن يعرف إن كانوا قتلة أم ضحايا . . هناك غرفة مجاورة لغرفتنا مزودة بكل شيء حتى بجهاز نقل دم . . كنت أساعده في رفع المريض أو قلع ملابسه . . وفي الليل كنت أتظاهر بالنوم حتى وأنا أعلم أنه ينال النشوة عن طريق بعض الأفلام التي يشاهدها .

في الصباح أعدت مشاهدة فيديو عباس الاسمر الذي كنت قد رأيته . . من الصعب عليّ مشاهدته من جديد ، ولكني أردت أن أتأكد أنه هو . عباس الأسمر سائق حافلة المدرسة ، والذي كان يأخذنا في رحلات للزوراء وساحة

الاحتفالات أيام التسعينيات . . . وبعد الحرب انتمى للحرس الوطني وانتشر صيته عندما ظهرت صورته وهو يرقص في السيطرة بينما طابور السيارات ينتظر . كانوا يصطادون مثل هذه الفيديوات عن من يسمونهم الأعداء . . وراحوا يضحكون على هذا الشرطي الذي يتشابه مع غيره وسيسقط قتيلاً مثل غيره . . لا يعرفون بيته ولا أين يسكن . . وطبعاً لم يفتحوا بابه أو رؤوا أخته المعوقة التي كانت تجلس وحول رقبتها تلتف ثمرة طويلة جداً من الخيار التعروزي تسميها بالحية . . ولا عرفوا أن الكهرباء الوطنية عندما تنقطع فإنهم يعيشون في ظلام دامس ، أو يشعلون فتيلة تخرج من قنينة قديمة . . لم يكن لحاقهم بمصاريف المعيشة ممكناً ، كأنهم ، بتعبير أبي ، ساقية ماء تكافح وتجري بين صخور وعرة . . لا يعرف بهم أحد . . ولا يهتم بهم أحد . . . . وحتى عندما تمسح أم عباس الأرض وتنظف المكان ، فإنه يبقى كئيب الشكل وبدون إضاءة . . وقد حكى لي أبي كيف ذهب عباس يسأل عن أخيه المصعوق بالكهرباء الوطنية ، وسأل الطبيب :

– هل هو في المستشفى؟

قال له الطبيب :

– نعم

– أين هو؟

– في الثلاجة . .

ابتسم أبي بأسى وقال : المؤمن ممتحن .

انفتحت باب الغرفة وجاء من يناديني صخر إبراهيم . .

وتساءلت مع نفسي يا ترى أين هو أبي إبراهيم الآن؟

(٣٢)

المكان: هنا وهناك

الزمان: لحظة عباس

لم يكن يراه أحد ، ولا عرف ما حدث له أحد ، ولا فتح بابه المخلّع أحد إلا عندما أصبح عسكرياً يقف في السيطرة وهو يرقص . . أسمر وله لحية بيضاء . . لم أر لحية كلحية عباس الذي ينادونه بالأسمر وهو أسود البشرة . كانت بيضاء اللون ومشذبة على شكل هندسي جميل ، كأنه يعوض بها حرمانه وشظف عيشه ، كأن هندستها تعبير عن العقل ، وباقي جسمه تعبير عن الجنون . . ولكي يثبت ذلك كان يتقافز على صوت الموسيقى مع كل أغنية يسمعها . . طيب القلب بشكل كبير . . ويقول بأنك إذا اشتكيت للبشر سيقولون ساعدك الله وفرّج همك ، فلماذا لا أشتكي مباشرة لله العلي العظيم ، وأترك أمري له لا للبشر؟ . . يتحول إلى سكون ما أن تمر من أمامه امرأة . . المرأة فقط هي التي تجعله يثقل . . وكان كلما قاد حافلتنا ومرّت إمرأة وقع في الغرام وأصبح أثقل من الجبل . . الحب لا يُذهب العقل كما يقول ، ولكنه يجعله راجحاً ، ولم تكن مهنته الجديدة في الحرس الوطني سوى وسيلة لكسب

القوت له ولأهله . . قضى في انفجار . . رأيته في الفيديو يصرخ من الألم . . كان معتاداً على الرقص وليس على الألم .

كنت في الابتدائية عندما عرفت عباس الأسمر . . من الصف الأول لحد الصف السادس الابتدائي . . كل عام نذهب في سفرة لساحة الاحتفالات . . وكان عباس هو سائق سيارة المدرسة . . وعلّمنا جميعا الرقص وهزّ الرقبة . . وكنا نغني له . . يا سايقنة دوس دوس حتى انحصّلك عروس . . يا سايقنه دوس المية حتى انحصلك عجمية . . هذا سايقنا الورد هسه يوصلنا ويرد .

في يوم من أيام الحصار أخذتُ قوطية سفن معي إلى رحلة مدرسية . . . الكل نظر إليها لأنها غالية وسعرها ٤٥٠ دينار . . لا أحد يستطيع أن يشتري في وقتها علبة ببسي أو سفن بهذا السعر . . استحيت وانقهرت وذبيت القوطية ولم أشربها . . لم أشرب منها ولا كمع واحد . . وضعتها على جانب الطريق ، فرأيت عباس يرفعها من الأرض ويضعها في السيارة . لم يشربها هو أيضاً ، ولكنه احتفظ بها لأحد ما .

عباس يتجول معنا في ساحة الاحتفالات ونحن نسأله . . هذا شنو وذاك شنو؟ . . اليدان اللتان تمسكان بالسيفين العملاقين مأخوذان من قالب يدَيْ صدام حسين . . والشبكة التي تتدلى منها هي شبكة صياد مليئة بخوذ قتلى إيرانيين جُلبت من جبهات القتال بعد انتهاء إحدى المعارك . . وضعت

تلك الخوذ أسفل السيفين وقد بلغ عددها خمسة آلاف خوذة . . . وتحت هذين السيفين المتقاطعين ، كانت تمر القوات المسلحة في ساحة الاحتفالات الكبرى في المنصور .

أرادوا بعد الحرب إزالة قوس النصر ذاك لولا الأمريكان منعوهم من ذلك ، وتم الاكتفاء بازالة خوذ القتلى الإيرانيين وإرجاعها إلى مصادرها . . الكثير من التماثيل أيضاً أُزيلت ، والأشياء تغيرت أسماؤها . . . وكل هذه الأشياء ارتبطت عندي ببغداد . . ولما كنت أشوفها تتهدم انقهر . . . انقهرت على أي شيء يتهدم . . . . أبي يقول إنه عندما قتل الملوك ، انقتل كل الزعماء اللي قتلوهم . . ولما يهدم الماضي بهذه الطريقة ، راح ينهدم الحاضر أيضاً . . العنف ما يجيب غير العنف . . والانتقام لن يجلب سوى الانتقام . . وفعلاً صار القتل بفلس ، والجثث عشرة بفلس . أما عباس الأسمر فوجد عمله المجزي حين انتسب للحرس الوطني . . وكنا نقصده عند المراجعة لأي معاملة رسمية ، فيدخل على الموظف بضحكة عريضة مع موال أو أغنية . . وعندما يستفيق الموظف من الصدمة تكون المعاملة قد أُنجزت .

يا للمفارقة العجيبة . . أنْ أرى إحسان يفجر عباس الأسمر . . الاثنان يتفجران . . الثاني سائقنا الورد . . والأول صديق الكلية . . ومثل هذا الخبر يمر هنا مرور الكرام ، بدون ضجيج ولا حزن . . كأنه أمر يجب أن يحدث . . كأنه بذرة

تغرس ويجب أن تغرس . . والبذرة هي فكرة دفاع بطلها شاب متحمس دائماً . . عن عقيدة ما . . عن ضريح ما . . عن رمز ما . . عن قائد تاريخي ما . . عن شعار أو مستبد مقدس . .

قبل شهور وأنا أتحدث مع إحسان عن حلم الصعود الذي حلمته ، كانت كل الاحتمالات ممكنة . . وكنت أُنصت لما يقول ، وأسمع معه بعض الدروس الدينية على اليوتيوب ، ولكنني الآن أقف على الحافة . . مذهولاً وحزيناً . . ولا أريد القفز من الحافة ولا البقاء في هذا المكان . . أريد الابتعاد عن سهل مُسطح رملي كبير يُعدّ ، كما يقول الدكتور عامر ، مَعْبراً طبيعياً بين سوريا والعراق . على غربه سلسلة من التلال ، وتحته بقايا وآثار تاريخية لعديد من المدن التي وجُدت حول واحاته .

– أين نحن؟

– نحن هنا . . . فوق ميراث الأرض برمّتها . والكل في نزاع من أجل هذا الميراث العظيم . أكراد وعرب وأتراك وسريان وتركمان وسنة وشيعة وهلمّ جراً .

– أين نحن؟

– في جسر التواصل ما بين مناطق شرق الفرات وغربه . . ما بين البحر الأبيض المتوسط والخليج . . . . فمن أي عشيرة أنت؟

– لماذا؟

– لأن الكثير من العشائر العربية التي قدمت لهذه المنطقة

قبل الفتوحات الإسلامية ، كقبائل طي وعقيل ، ظلت محافظة على دينها المسيحي حتى مطلع القرن الثالث عشر ، وهناك من يقول حتى الرابع عشر . وكان لهؤلاء مدينة تقع في حوض الخابور وهي مدينة عربان ، والى هذه المنطقة كان مطران منطقة تكريت السرياني العراقي يرسل مطارنته لخدمة القبائل العربية المسيحية لأجل تحريضها على التوطين والاستقرار في المنطقة المسماة باعربايا ، وهي المنطقة الواقعة ما بين القامشلي الحالي ومدينة الموصل العراقية ، وجنوبها كانت تمتد ديار ربيعة لتشمل أجزاءً مهمة من محافظة الأنبار العراقية الحالية بالقرب من حدود محافظة دير الزور السورية .

مرة أخرى وقعت بالحيرة . . كيف يكون إنسان مدرك لكل هذه الحقائق ، كالدكتور عامر ، متطرفاً . . . قال لي إن الحقائق واحدة ، ولكن الاسم الذي نطلقه على الحقائق هو المختلف ، وليس الحقائق نفسها . وكم تبدو المسألة مريحة قبل اختراع الاسماء ، ليس لأن التاريخ لم يكن موجوداً فقط ، ولكن شجرة العائلة أيضاً لم تكن تعني سوى نسختها الأخيرة التي يراها وتعلق ببال الجميع . يبدو لي أن اختراع الأسماء كانت ضرورة من ضرورات البقاء ، وبما أن الذاكرة أصبحت مصدر إحراج واقتتال بين الجميع ، فبالتأكيد أن الإنسان يبدأ عده العكسي نحو الفناء .

- إنسان يفكر بهذه الطريقة ماذا يفعل هنا؟

- المبلل مـا يخـاف من المطر . . وأنا قـد تبلل كل أهلي السابقين واللاحقين .

السابقون واللاحقون صار عددهم عشرة أو أكثر بقليل ، وأنا كنت الحادي أو الثاني عشر . . نسكن جميعاً في أكواخ منعزلة ، وبعضهم يتدرب تدريبات شاقة ، أما أنا فكان عليّ أيضاً أداء الصلوات الخمس خلف رجل يؤمنا في غرفة فارغة مخصصة للصلاة . . وعندما يأتي الشيخ معاذ يكون هو الإمام . . تركوني أنتظر بدون شروط ولا تعليمات . . . حاولت الاسترخاء قليلاً ما دامت حياتي ليست معرضة للخطر . . . . لم أعد في عجلة من أمري في هذا المكان ، وبانتظار مصيري أو إشارتي الخضراء . لم يبق لي إلا الدعاء والاستغفار ليجعل الله لي من كل ضيق مخرجاً ومن كل هَمْ فرجاً . . قال لي الدكتور عامر : الله لن يتخلى عن أولئك الذين يبحثون عنه ، فإذا كنت في الطريق إلى الله فإياك والرجوع .

ما حذرني منه الدكتور عامر لن يحصل ، هذا ما أشعر به ، ولكن ما طلبه مني بعد ذلك كان على درجة من الغرابة ، فقد سألني :

- هل جربت أن ترفع الأذان؟

(٣٣)

المكان: الهضبة

الزمان: لحظة صخر

قبل أن يفجر إحسان نفسه ، كنت قد التقيت في هذا المكان بشتات من الألوان والأجناس . . يذهبون ويجيئون ، دون أن أراهم جيداً . . كلهم في طريقهم من مكان إلى آخر عبر هذا القفر الذي يشبه المعبر أو المحطة ، ولكن العدد الأساسي للموجودين هو عشرة تقريباً . . الكثير منهم مروا من هنا للموت من أجل العقيدة ، ولكن الأكثر هم الفقراء الذين عجزوا عن تغيير واقعهم بالطرق السلمية ، فجاؤوا من أجل المرور إلى مكان أفضل في الجنة . وأنا لم أكن أنتمي لأي من الطائفتين ، ولا للطائفة التي قال الدكتور عامر إنها جاءت من أجل تجربة جديدة ومدهشة . .

– وما هو الشيء المدهش هنا؟ لا أعرف أين الإثارة والفضول؟ . .

– ألا تعرف كيف ينظر المراهق بطريقة رومانسية إلى الموت؟ . . ألم تفكر في فترة المراهقة في أن ترقد في المستشفى لكي يهتم بك الآخرون ، أو تفكر بالموت حباً بالانتقام من

الأهل أو الحبيبة أو أي شخص آخر؟ . . الرومانسية هي خليط من حب الألم والأسى وتَمني العذاب . . وبدون عمر الشباب لا أحد يجد العذوبة في هذا العذاب .

ما يتحدث عنه الدكتور عامر لم أجربه أو أمرّ به في حياتي . . صحيح أني تمنيت الموت عندما رأيت حنين تصعد سيارة باهر البيجو ، ولكني تمنيته لها ولباهر وليس لي . . وهذا الأمر لم يكن ليجعلني أفكر بأنْ أهرب من الحياة بهذه الطريقة . . ولا بطريقة إحسان الذي كان يريد إنقاذي من متاع الحياة الدنيا ، وأن أضمن الجنة التي كانت حكراً على المسلمين ، فأصبحت حكراً على أنقياء المؤمنين من أمثاله .

الدكتور عامر هوّن علي البقاء معهم فترة من الوقت . . والوقت كان يمضي بكل الأحوال . . كنت أسمع أن أحداً ينادي اسمي ثم أكتشفُ أنه لا يوجد أحد ، أو أسمع أصواتاً لأبي أو جدتي أو أخي بدر ، ثم أرجّح أنه كان حلماً من أحلام اليقظة . لا تقلق ، قال لي الدكتور عامر ، هذا دليل على أن الصحة الذهنية بألف خير . . المكان هادئ هنا ، وجلوسك وحدك في الظلام بهدوء تام وبدون استخدام أي أجهزة كهربائية يجعلك تسمع أصوات أو نداءات سمعتَها في الماضي . . أنت تشتاق لهذه الأصوات ، فيعوضك عقلك الباطن عنها ، ويجعلك تسمعها فعلاً ، وهذا يساعدك على تجاوز حالة التوتر والقلق . . سنعيد كل شيء كما كان . . وبعض الصدمات التي أوجعتك

قد تقوّيك أيضاً ، فلا تدع رواسب الكدمات والأحزان تقتلك .

ليت كل شيء يرجع فعلاً كما كان موجوداً قبل أن تخيفني سجا بموتها ، وقبل أن تقتلنني حنين بسلوكها الشائن . . . في هذا المكان تأملت ما حدث لي بشكل مختلف . . سخَفته وعاملته كوهم من الأوهام . . نسيت كل شيء ، ولم أنس تلعثمي الذي منعني من شتم حنين في تلك اللحظة . أردت هنا ، في هذا القفر ، التجدد التام ونسيان حتى هذا الفشل الذي مر في حياتي . قلت في لحظات بأني سأضرب بكل مصائب الدنيا عرض الحائط ، لن أتعذب من أجلها بعد ذلك . . ولن أتألم لأني لم أستطع أن أقتلها فيما مضى . لم أستطع ذلك حتى عندما رأيتها تغلق باب سيارة باهر البيجو ذات علامة الأسد المعدني الذي يمشي كالمهرج . . ولكنْ في لحظات أخرى تنهار هذه المواساة ، وتعود الأفكار السوداء لتسبب لي أشد الحزن وأكبر التعاسة . إنها حنين التي أخذت قلبي من مكانه وذهبت إلى شخص آخر من عمر أبيها . . وأنا لا أستطيع أن أمحو من بالي كيف ضحكتْ بلا مبالاة رخيصة أكدتْ لي أن تلك الحقيرة لا تعرف السعادة إلا مع باهر أتفه التافهين . . أحاول أن لا أصرخ وأنا أسمعها . . أحاول أن لا أصرخ وأنا هنا . أحاول أن أنسى ولكني أتذكر .

لا تقلق ياصخر ، يقول الدكتور عامر ، الحزن هو الذي يصنع الإنسان . . وبعد جرعتين أو ثلاث من الحزن سيتحسن

الوضع . غريب جداً هو الوقت الذي بقيت فيه مع الدكتور عامر . . المفروض بأني مخطوف ، ولكنه خطف غريب من نوعه . . لم أكن متوتراً أو خائفاً هنا . . أنا أنتظر فحسب . . وصدق الدكتور عامر في عدة نصائح . . قال لي إن الظلام يجلب الهدوء للنفس ، وبذكر الله ستنسى كل أحزانك القديمة ، والأفكار السود التي كانت تسبب لك التعاسة . أما اللعثمة فتعايشْ معها إلى أن يجيء أوان رفع الأذان . .

(٣٤)

المكان: الأكاديمية

الزمان: لحظة باهر

كرهت نفسي لأني تلك اللحظة لم استطع شتمها . . خفت أن تتلعثم كلماتي فأصبح سخرية للآخرين أو موضع شفقتهم . . ما قاله الدكتور عامر صحيح : إن ما يسبب لك ولنا الكثير من الألم هو الكلام . ألم تعجز في عز المشاعر عن الكلام ، بسبب خوفك من اللعثمة؟ هذا لو تعلم أمر جميل لأن آفة الغضب هو الكلام . ولو كنت قد تكلمت لندمت على كلامك ، حتى وإن لم تتلعثم . فافرح لأنك سكتت ولم تتكلم . . ولا تجلد نفسك أكثر من ذلك . . فأنا سأقوم بتجربة مفاتيح أخرى . . سوف نجربها كلها يا صخر قبل أن تعثر على المفتاح الصحيح .

تكسرت الحشرجة في صدري وهي تبتسم . ثم خرجت على شكل خيط من الدمع راح يتشكل أمام عينيّ وينزل في بلعومي ويجعل العالم يتحول إلى موشور من الخيوط الملونة . ليلاً انقلبت على ظهري فأحسست بخيط الدمع يدغدغ صدغي ثم يدخل الى أذني . . أدركت في تلك اللحظة بأني كنت أبكي كما تبكي النساء ، وأني أبكي من أجل حنين

التي لا تستحق الحياة في هذه الدنيا ، فلماذا وكيف لا أمحو اسمها من ذاكرتي ، ولا أجد الدواء لضيق الصدر الذي أشعر به؟ . . في تلك الفترة جاء إحسان ، فوجدت نفسي متعلقاً معه بكل شيء قديم . . وبدأت أسمع تلاوات القرآن في السِّيديّات أو المواقع الدينية ، وأحسست بوقعها الغامض في النفس بعد أن كانت ، فيما مضى ، تبعث ضجري ومللي بالأصوات التي تسمعها جدتي حبيبة . . الصوت الأول عراقي خشن وعميق ، والثاني بغنة رفيعة ولهجة خليجية .

إحسان استلمني عند هذه النقطة مع صوت مصري جميل وصادح يشد المستمع إليه بقوة . . زاد على تلك السيديات سيديات أخرى فيها دروس دينية ومحاضرات شيقة لشيوخ محترمين ومقنعين كانوا يتحدثون عن الإيمان وكيف أنه لا يتعارض مع أن نكون في قلب الدنيا التي نعيش فيها . . ولكنه يتعارض في أن تكون هذه الدنيا هي الوحيدة في قلبنا . . لم يكن إحسان يشبهني في شيء ، وصداقتنا كانت تحصيل حاصل بحكم زمالتنا في قسم النحت . . وهو القسم الذي ترك الدراسة في المرحلة الثالثة فيه ، بعد أن تملكتْه فكرة غريبة تقول إن صنع المجسّمات حرام . . أصبح يبرر ذلك بأنها أصنام تقربنا من الجاهلية ، وليس بكونها تنافس عمل الخالق عز وجل حسب .

بين إحسان والدكتور عامر أكثر من مشترك . . كل واحد

منهما له وجه بشوش يجبرك على محبته . وهذا النوع من البشاشة قليل الحدوث بين المتدينين . . والاثنان لهما علة واحدة وهي أن أهليهما قد تعرضا للأذى من قبل السلطة . . إحسان قُتلت عائلته في مداهمة للتفتيش عن إرهابيين في منطقة الطارمية . . والدكتور عامر هذا الذي يسهر على راحتي الآن ، ويطبب جروحي وجروح غيري قاسى فقدان أبيه وأصدقاءه على يد رجال الأمن في نظام الأسد . بدأت أُشفق عليه ، وأتعاطف معه ، بالإضافة إلى كوني أحبه . . إنه هارب من وضع صعب مع علة في بطنه لم يعثر لها هو ولا باقي الأطباء على دواء . . ظننت أن مجيئه إلى هنا كان مجرد نزوة أو ردة فعل على فعل أحمق ، وأنه جاء إلى هذا المكان دون أن يفحص جيداً ما جاء من أجله ، ولكنه لم يكن يشعر بالندم ، لأنه كان يائساً بالأساس . . واليأس جعله يصل إلى هنا . . وأنا لا أريد أن أكون سائراً بالطريق نفسه . .

لم أفهم لماذا أنا هنا . . لم يطلبوا فدية من أحد . . لم يعذبني أو يستجوبني أحد . لم يجبروني على حضور دروسهم أو تبني أفكارهم . . . . إحسان ، قبل أن يفجر نفسه في نقطة السيطرة التي يقف فيها عباس الأسمر ، أقسم لي أنه لم يكن هو السبب . . ولا دخل له بما حدث . . جاء إلى غرفتي وقال :

– كانت صدفة .

– كنتُ عائداً من بيتك للتو عندما اختطفني جماعتك ،

وأنت الآن معهم ، فكيف تكون صدفة؟

– أُقسم لك ، إنها صدفة وليست صدفة . يبدو أنهم عرفوا ميولك من خلالي ، وراقبوك وانت تخرج من بيتي ، ولكنهم لم يخبروني بخطفك ، حتى رأيتك أمامي معصوب العينين . ولا زلت لا أعرف السبب الحقيقي لاختطافك؟

– اليس لديك تأثير عليهم؟

– الأمور هنا منضبطة مثل الساعة ، والأمر بيد معاذ .

– وأنت ، بما أنك تعرفهم وتعرف وزيرهم ، ماذا تعتقد أنهم فاعلون؟

– حالتك هي الأولى من نوعها ، ولا ينفع معها سوى . . . . .

لم يكمل جملته بكلمات . . ولكن فهمت من إشارة يده أنه يقصد الهرب . بعدها سمعت أنه قد فجر نفسه . . فهال علي الأمر ، وفقدت كل فكرة جميلة معناها مع فقدان حياته وحياة عباس الأسمر . . ولم يعد الإيمان بما يعتقده إحسان ممكناً ، وبدأت استكشف المكان أكثر وأكثر عندما يسمح لي الدكتور عامر باستخدام الإنترنت على لابتوبه .

أيّ عمل يستحق أن يُشار إليه لم يحدث لي قبل أن أرى معاذ مرة أخرى . . انضم إلينا ذات يوم أثناء الصلاة ، وأصبح ظهره أمامي . . بعد قليل من قضاء الصلاة انضمّتْ إلينا صحفية اسمها هيا ، جاءت تأخذ بعض الصور لقناة ألمانية . .

كان ذلك بالاتفاق مع معاذ ، كما فهمت من الدكتور عامر . . قال لي إنها لا تملك لا حرية التنقل ولا السؤال ، إلا فيما يسمح معاذ بتصويره ، وما يريد التنظيم للعالم أن يراه . . . إذن هم ليسوا عصابة خطف وقتل ، بل تنتظيم معروف ، وإنْ كان غير شرعي أو معترف به . .

لم تكن هيا خائفة . . كأنها كانت تمتلك حصانة ما ، ولا شيء يخيفها على الإطلاق . الكاميرا في يدها انتقلت إلى يدي عندما دخلت علينا فجأة وقد تدفق الدم من كفها . . طلبت مني أن أصورها وهي تنزف . . سمعت من أمي قانوناً تسميه بقانون مورفي يقول إنه من الخطأ جعل أي أداة ميكانيكية تلاحظ أنك مستعجل ، وليست الكاميرا فقط هي التي لاحظت استعجالي وارتباكي . . ولكن هيا أيضاً لاحظت ذلك ، وأرشدتني إلى كيفية استعمال الآلة حتى وهي تنزف . . أرشدها الدكتور عامر إلى سَدْية الطبيب . . هناك سألني عامر :

– ما هي فصيلة دمك؟

قلت له

– أُو نكتف .

فقال لي :

– هيا ، إذن ، تمدد على النقالة .

تحدثت هي بالإنكليزية ، كما لو كانت لغتها الأم ، وعندما

أجبتها أنا أيضاً بالإنكليزية نظرت لي باستغراب غير مبالغ فيه ، ولكنها لم تتفوه بكلمة . . لحظات من الصمت ثم أخذ الدم يتدفق من جسمي إلى جسمها ، والتقت نظراتنا هناك قبل أن ننهض بعد نقل الدم . . بيضاء شاحبة اللون لديها فم صغير وعيون عسلية ، وأكثر ما يلفت النظر في وجهها ابتسامتها التي عندما ترتسم تحفر غمازة واحدة في خدها الأيمن .

كان الوقت مساء ، فلم أتبين أكثر من هذه التفاصيل التي رأيتها .

استيقظت متأخراً من النوم ، وكانت السماء تنث مطراً خفيفا في الضحى . . الزمان يسهل تعريفه ، ولكن المكان مجهول بالنسبة لي . . جئت إلى هذا المكان في منتصف أيلول والآن نحن في بداية شهر تشرين الثاني في مكان لا أعرف عنه شيئا سوى أنه على الحدود العراقية ، في المنطقة التي سماها الدكتور عامر ميراث الكون ، وقال إن فيها كانت تقوم الاديرة على امتداد الأرض من تكريت والموصل وحتى القائم ودير الزور . . . ولكن تلك الحضارة التي أسسها السريان الآشوريون ، تلاشت وتلاشى معها الكثير من أسماء المدن والمناطق الرافدينية في سوريا ، وظهرت بالمقابل أسماء لمدن جديدة في مطلع القرن العشرين هي القائم والرقة والقامشلي .

طلب مني الدكتور عامر أن أتناول بعض الخضار تعويضاً عن الدم الذي فقدته . . كنت طوال المساء أفكر بها . ووجدت

الفرصة سانحة لأسأله عنها :

- لماذا نقلت لها الدم؟

- لقد أصيبت في حادث سقوط من مكان عال؟

- هل صحيح أنها صحفية؟

- لا أعرف .

في صباح اليوم التالي استيقظت ، فوجدتها تجلس تحت ظل القمرية التي تجعل وجهها مقسّماً إلى خط أسود وخط أبيض . رأيت هيا مرة أخرى جالسة تحت أوراق العنب التي تحوّل لونها إلى الأخضر . . وبدت الشمس الخريفية وكأنها تتسلل من بين تلك الألواح العالية لعناقيد العنب ، ثم تشرق من وجه هيا التي تضع شالاً حول رأسها وتراقب تهيئة العجين وهي تضحك . بعد أن انتهت العجوز من تقطيع العجين ، طلبت منها أن تضع سبابتها في فمها ثم تاخذ التراب بأصبعها المبلل باللعاب ، وتضعه على مكان الجرح لكي يطيب . . فعلتْ هيا ذلك ، ثم رأيتها تحب هذا الفعل ، وتكرره أكثر من مرة . ناداني الدكتور عامر من أجل الفطور . . كان يحضّر كوبين من النسكافيه لي وله وقت الصباح ويحاول صرفي من النظر إلى النافذة . . كل شيء موجود هنا . . حتى حليب أبو قوس وبُن العميد موجود هنا . . ولكن أين يقع هذا الهنا؟ . . لا أعرف . . الأرض مترامية الأطراف ، وأنا انظر من النافذة الى ذلك الكوخ القريب واسمع بعض الكلمات التي ترددها العجوز بصوت

طغى على باقي الأصوات . . كانت تشبه جدتي حبيبة التي امتلأ وجهها بالشعر الابيض مثل رأسها ، وصارت تزداد غضباً كلما سمعت في الهاتف صوت حفيدها بدر الذي لا يعرف لغة القرآن كما ينبغي .

فهمت من صوت العجوز انها تنتقد هيا بشدة ، لأن أطراف شعرها الطويل ظاهرة من تحت نهايات الشال . انتبهت إلى الحضور الخجول ، المقترب من الغياب والصمت . . تحاشيت أن أسال ثانية الدكتور عامر عنها ، أو أن أُبدي اهتماماً بها أمامه أكثر من اللازم ، ولم أعثر على أي استنتاج عنها خلال الوقت الذي قضيته أنظر إليها من النافذة . . فقط كنت أتخيل أن مكانها يجب أن يكون على مقربة من الموج والغابات . . حيث ترقص قبالة المياه ، وتلعب مع الطيور والسناجب ، أو تنام على الرمل الدافئ وقت الصيف . . . فما الذي جاء بها إلى هنا؟ . . نحن هنا في ما يشبه الضياع . . في اللا مكان . . بنهاية المسافة بين ولادتي في الثمانينيات إلى الوقت الحاضر ، أي بعد شهرين من مجيئي إلى هنا في منتصف أيلول . تمنيت لو استطيع الخروج والسلام عليها . . فتحت الباب ولم أخرج . .

خشيت أن أفعل ذلك في البداية ، ولكن عندما دخل الدكتور عامر إلى الحمام من أجل الاغتسال ، خرجت اليها وسلمت عليها فعلاً ، فردت السلام . وعندما تزحلق الشال عن شعرها الناعم اكتفت بإرجاعه إلى الخلف كيفما اتفق . . كأنها

غير خائفة من شيء ، وليست بحاجة إلى الالتزام بشيء تحمله إلا كاميرتها . . . . وجهها صاف بدون ذرة واحدة من المكياج ، وثيابها محتشمة بالرغم من كونها مسيحية كما افترضتُ . . شكرتني هيا مرة أخرى على تبرعي لها بالدم ليلة أمس . . ولم أكرر السؤال الذي سألته للدكتور عامر عن سبب إصابتها البليغة ، ولم أحصل منه على رد شاف . جعلني ذلك أشك في أنها قد لا تكون صحفية أجنبية ، ولكنها واحدة من عشرات الشباب والشابات الذين يمرون في نفق محطتنا جرحى او سالمين ، ثم يتفرقون من هنا إلى أماكن أخرى . لم أعرف اي شيء عن أسرارهم بعد . . ولم أر وجوههم ما عدا كبيرهم معاذ الذي لا أعرف أين رأيته . . لم أشأ أن أبالغ في أفكاري ، وأجعل من وجود هيا أمراً يجعل لحياتي في هذا المكان معنى ، فأنا أعلم بأن حياتي هنا على حافتها الخطرة ، وأنا أدفع ثمناً باهضاً لعنادي مع أبي وأمي وإصراري على البقاء في بغداد . . الله كم كانت الظروف مواتية للسعادة وأنا صغير . . وكلما كان أبي يريد أن يأخذني للاستقرار نهائياً في إنكلترا أقول له مستحيل أن أفعل هذا . .

لماذا؟

يجب أن أكون موجوداً مع سجا وأصدقائي وجيراني ، وبيبتي حبيبة التي بالرغم من مبالغاتها كانت تحبني جداً . . إذا ذهبتْ لرؤية الطبيب تريدني معها ، وإذا تفحصت أدراجها

المليئة بأقراص الدواء . . جعلتني أقرأ تواريخها عدة مرات قبل أن ترميها إلى سلة الأزبال . . تقول إنني حنون وأعتني بها عندما أبيت معها في عطلة نهاية الأسبوع . . . . حتى أبي كنت اعتني به عندما يحتاج ذلك فعلاً . . وعصمان كان مصدر سعادة بالنسبة لي ، وكم أشعر بالراحة عندما كان يرقّيني وأنا صغير بالآيات ، فاستجيب لها نفسياً على الفور ، وأشفى من رعشات ونوبات عصبية تشبه الصرع . . زوجته ملَك كانت مربية ، ولكنها تربي الحمام والبلابل ، ولديها بالحديقة كم دجاجة ، وكتاكيتها كانت تأكل أي شيء أقدمه لها حتى وإن كان نشارة القلم المقطوط . . وأحياناً أطلع لألعب كرة القدم بالشارع مع غزوان وياسر ، وسجا تتفرج علينا . .

أطفال المنطقة يسمون سجا المخبلة . . وأنا الوحيد الذي كنت أرفض هذا اللقب ، ليس لأنها صديقتي ، وليس لأنه لا يتماشى مع تربية صوفي أمي وقوانينها الصارمة ، ولكن لسجا طريقة في عدم الانتباه . . وهي أن تسمعني فقط وأنا أُعلّمها . . ونادراً ما أتلعثم معها في الكلام ، لأنها لا تعرف ما هو التلكّؤ في الكلام ، ولا تنتظر مني أن أصل إلى بطولة لا أستطيع الوصول إليها . . ولهذا كنت أصل إلى البطولة مع سجا التي لا تراقبني من أجل أن أكون بطلاً معها أو غيرها . . كل يوم تقعد على الدكة بباب البيت . . وطول ما إحنا نلعب الكرة هي تصفق وتضحك . . بيبي حبيبة قالت ذات يوم وأنا صغير هاي

مو بنت محمود ، لكن طلعوها من الميتم وتبنّوها . شنو يعني تبنوها؟ . . لا نعرف . . لا يهم . . لا نفهم . . ونسينا الموضوع ورجعنا نلعب بالشارع آني وياسر وغزوان . . الدنيا حلوة بس للصغار . . زاهية إلهم حتى لو شيصير ما يصير . . ظلينا نلعب بالشارع خمس سنين . . وبالأخير غزوان استشهد بسيارة مفخخة ، وياسر انتقل لبيت عمته في منطقة أخرى بعد أن هاجر أهله جميعهم لأمريكا ، وأصدقاء المدرسة صاروا كل واحد بجهة ، ودجاجات ملك زوجة عصمان أكلها الكلب . أما حماماتي ففتحتْ لها سجا باب القفص لكي تطير ، وجاء أبي وصرخ بي صراخاً مجنوناً ، وكاد أن يتهشم القفص فوق رأسه ورأسي .

خمس سنوات وسجا تضحك ، والهمرات تفوت من شارعنا . . إلى أن جاء يوم سجا لم تعد تضحك بعد . . ظلت جالسة بباب البيت وتزوّع . . تمرضتْ وما عرفت شنو صار بيها . . بس سمعت بيبي حبيبة تقول يمكن حامل . . شنو يعني حامل؟ وليش؟ وكيف؟ منعني الخوف أن أعرف . . بل لم أرد أن أعرف سوى أن سجا راحت للمستشفى ، أخاف أن أعرف أكثر من ذلك بعد أن انتقل أبوها من المنطقة . . . وبقيت شهوراً وسنيناً وآني ما أدري وين صارت سجا . . . . أسأل ولا أحد يجاوبني بشكل أكيد . . حتى أبي كان يقول لي كل شي ماكو . . إنها مصابة في رأسها وراحت بم عمتها بعرب

تيلتاوة . . . . إلى أن أصبحتُ في الكلية وتعرفت إلى إحسان ، وعرفت كيف ولماذا ماتت سجا .

هيا جاءت مرة أخرى لزيارة الدكتور عامر من أجل فك ضمادتها ، فسألتها :

- كيف وصلتِ الى هنا؟

- هذه قصة طويلة .

خرج الدكتور عامر من تحفّظه وقال لي ، بعد أن خرجتْ هيا ، من الممكن أن تضرك هذه المرأة . . قال لي ذلك همساً ، وعادة ما يكون للكلام وقع أشد إذا قلته همساً . نظرة واحدة جعلته يفهم كل شيء . . لاحظ اهتمامي بها . . ولا أعرف إن كانت قد لاحظَتْه هي . . . فقط شعرت بأن وجودها يخفف عني أسوء الأوقات . ولما حذرني الدكتور عامر من أي شيء قد يؤخر إطلاق سراحي استفقت من وهمي وانتبهت إلى ما أنا فيه من ظرف عصيب .

في بعض المناسبات يكون الحديث عن الطقس في بلاد أمه مجّرد كسر للحواجز بين الناس ، وفي بعضها الآخر يستخدم لكسر الصمت المحرج ، أو لاختبار أمزجة الآخرين ، وبناء على طبيعة ردهم على تحيتك المتعلقة بالطقس ، بإمكانك معرفة ما إذا كان الأشخاص الذين تحدثت إليهم لا يرغبون في الحديث أم أن مزاجهم معكر . . . ولكن صخراً لم يعد يحلم كثيراً بالحديث مع أحد ، أو الهروب بعيداً من واقعه القديم

والجديد . . أصبح يذكّر نفسه بأن أكثر ما يؤلمه هو الكلام . . و تذكر بأنه عندما كان يصل إلى المدرسة فإنه يسعل دائماً قبل أن ينزل . يجب أن يسعل . . سواء قبل النزول إلى المدرسة أو التحدث بالموبايل . . سعاله هو تمهيد لخروجه من حالة الصمت التام إلى الكلام . . كانما توقظه تلك الإشاره من أحلام اليقظة ، وتعلن دخوله إلى عالم الواقع المر . . إلى المدرسة .

(٣٥)

المكان: هناك في الهضبة

الزمان: نهايات ٢٠١١

تجرأتُ بعد الغروب ، ففتحت باب الكارافان وخرجت إلى هيا . . كان دافعي هو الفضول فقط . . ليس هناك مجال لأي وهم جديد ، ولا يمكن هنا البدء بحديث عن الطقس . . هذا المكان ليس فيه سوى قاعدة واحدة ، وهي أنه مكان غير مفهوم . . والدكتور عامر بالرغم من اهتمامه بي وسعة أفقه ، متحفظ وحصيف ، ولا يريدني أن اتعلق في هذا المكان المؤقت بأي وهم من الأوهام . . أنه يريدني فقط أن أشفى من علتي عن طريق رفع الأذان . . ولكن لا بأس من اختلاس دقائق أفتح بها الحوار مع هيا ، ما دام الجميع منشغلين بأجتماع طويل اشترك فيه الدكتور عامر أيضاً . .

سألتُها السؤال الذي اريد سؤاله للجميع . . ماذا تفعلين هنا؟ قالت لي بأنها صحفية والصحفي يتبادل الحديث مع كل الناس سواء كانوا من الأخيار أو كانوا من الأشرار . . إذن ، أنا الآن في قلب المفارقة ، أي أن تكون هيا موجودة هناك بإرادتها ، وأكون أنا موجوداً رغماً عني . . ولماذا أنا موجود رغماً عني؟ . .

لأني لم أقتنع بما كان إحسان طوال الوقت يقنعني به : إن العالم مليء بالرذيلة ومن السهولة أن ترمي حجراً فيسقط على ما يؤيد ذلك ، فقد زاد عدد المطربات العاريات عن حدّهِ ، وتخطت رذائلهن وقصصهن كل الحدود ، وهنّ الآن الأكثر استحواذاً على اهتمام الشباب وحصداً للمال الحرام . هنا دغدغني الفضول . أنا موجود في مكان مختلف عني ، وأتعامل مع هذا المكان بحالة من الانفصام . . لم أكن أتفق معهم لأنهم لا يعرفون عن الدين إلا نسختهم هم تحديداً ، ونستطيع إسقاط ذلك على التعامل مع الشريعة تحديداً ، ولكني أيضاً أميل إلى الاقتراب منهم ، وتفهم طريقة تفكيرهم .

قلت لهيا إنني بالنسبة لهم مسلم . . هذا صحيح ، ولكني غافل عن واقع الإسلام الحقيقي . . أوكيف يجب أن يكون . وكل ما صدر من كتب خلال السنوات الأخيرة كنت أقرأه عن طريق صديقي إحسان . . بعبارة أخرى أُعيد قول ناس آخرين في هذا الشأن . . مثما يعيده إحسان نفسه كالببغاء . . وحتى وأنا أفكر وأناظر بين الآراء ، كنت أقرّ مع نفسي بعدم تمثّل أفكاره للواقع الجديد ، أو مستجدات العصر ، ولكني كنت أجد الواقع أيضاً لا يتمثل الدين كما يجب ، وأمامي الفترة الأخيرة التي كانت تجعلني أتساءل عن هذه الحالة المعاكسة ، أي عن الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون وعدم تمثُّلِ هذا الواقع لأفكار الدين . . وكنت أجد أي قول من الاثنين ليس تعميمياً وغير

دقيق فحسب ، بل هو خاطئ ومنفصم أيضاً . لأن كل فريق يرى أن الدين يساعدنا على الانتقال من مكان إلى مكان أفضل ، ولكن في الآخرة فقط ، أي بعد الموت ، فما النفع في ذلك !؟ . . ليس الجميع مثل إحسان الذي لم يكن متديناً بسبب الهروب من الفقر ، أو نسيان حب قديم ، ولكنه كان مهتماً بالدنيا مثل اهتمامه بالآخرة ، ويجد أن أكثر مراحل تعامل البشرية فسقاً هي المرحلة الحالية التي نعيش فيها . بتعبير آخر ، إننا لا نكاد نجد إلا القليل والقليل جداً من واقع هذه المرحلة لا يحتاج إلى إصلاح . وعن هذا ربما يصعب علينا أن نعطي أمثلة ، ببساطة لأننا يجب أن نعطي ، في هذه الحالة ، عناوين عدد كبير من الساسة والراقصين والشاذين والسماسرة والكتّاب والمرابين والمقاولين والمطربين الذين أكلوا عقول الشباب . . إنه عالم مرّ ومتوحش وفاحش يسير نحو الهاوية . . . ولم يعرف له مثل هذا السقوط الأخلاقي عبر تاريخ طويل . . فأي زمان هذا الذي تخرج فيه فنانة على الناس ، وهي تضع الماس في مداسها أو موبايلها أو فستانها أو أظافرها ، بينما هناك طفل يموت من أجل دولار واحد؟

مثل هذا الكلام الذي كان يقوله إحسان هو ما قرّب لي الأفكار معه في البداية . . ولكني لا أعتبر هذا المكان هو الحل . لم يجد إحسان وسيلة يختارها للحرب على الرذيلة سوى العنف . . جادلته كثيراً في تفضيل أغلبية الناس للسلم وكيف

كانوا ينتظرونه بعد صبر طويل لكي يكون هناك الخير ، وليس الشر ، بعد الحرب في العراق . . قال لي إنهم لا يرون ومصابون بالعمى . . قد يكون صحيحاً ادعاء أمريكا بأنها قد جاءت لكي تحرر وتبني العراق ، ولكن ما لم تقله بوضوح أنها سوف تبنيه بعد أن تدمره وتفكك مفاصله وتدرسه وتفهم أسراره وتضمن تماماً كل مفاجأته ووثباته الغادرة . وبسيطرتها على العراق تضمن سيطرتها الفعلية على الشرق الاوسط كله ، وبالتالي عموم العالم .

أحياناً أجد معه حق في اعتقاده بأنْ يجد ضالته في مثل هذا المكان . قد يكون هذا المكان هو العلاج أو الحل ، ألم أهون لنفسي بقائي فيه أنا أيضاً من أجل سبب آخر هو رفع الأذان؟ .

(٣٦)

المكان: غرفة الدكتور عامر

الزمان: لحظة بدر وصخر

لم أتوقع أن يأتي ما لم يكن بالحسبان ، ولا خطر على بالي أن يحدث في يوم من الأيام ، فيتمكن أخي بدر من الوصول لي ، بدلاً من وصولي أنا إليه . . كان يمشي في الطريق إلى باكنغهام بالاس . . يحمل بيده قارورة مياه معدنية . .

ناداني الدكتور عامر ، وقال لي . . تعال تصفح غوغل أو اليوتيوب ريثما انتهي من كتابة هذه الرسالة . . ولكن لا تفتح ايميلك ياصخر ، فأنا أنظر إليك . . ولم أكن أنتظر ملاحظته هذه لكي لا أفتحه . . . فقط فعلت ما أفعله كل مرة . . كتبت اسم أبي باللغة العربية على غوغل ، ثم اسم أخي بدر وخالتي سوزان الفنانة باللغة الانكليزية . . فحدث ما لم يخطر لي على بال ، ورفعت يدي لا شعورياً إلى جبهتي ، ثم صرخت بصوت واطئ . .

– انظر يادكتور . . أنظر . .

– ماذا؟

– هذا الشاب هو أخي بدر .

- أخوك؟؟

- نعم .

- إنه يبدو نسخة بيضاء منك . وحتى صوته يشبه صوتك بشكل كبير .

هل هذا معقول؟ إنه أخي بدر يتظاهر في لندن ضد استعمال حراس البكنغهام لفراء الدب الأسود في قبعاتهم الطويلة . أعدت الفيديو من بدايته ، وبدأ قلبي يخفق خفق الطبول ، وأنا أستمع إلى أخي بدر يتحدث للمراسل الصحفي :

تتذرع وزارة الدفاع بشتى الذرائع قائلة إن العثور على البدائل الملائمة لهذا الفراء غير ممكنة في الوقت الحالي ، لهذا فإنها تواظب على استخدام الفراء الحقيقي من دببة سوداء تُقتل في كندا ، إن قتل هذه الدببة من أجل القبعات الطويلة لحراس البكنغهام بالاس هو أمر بالغ القسوة ومثير للجدل حتى أن وزارة الدفاع رفضت التصريح بأسماء التجار الذين تشتري منهم الفراء قائلة : «إذا تم الإفراج عن أسماء المورِّدين للصحافة فإن حياة هؤلاء الموردين قد تكون معرضة لخطر الإيذاء اللفظي أو الأذى الجسدي» .

أكمل بدر كلمته الاحتجاجية ، ثم توارى بعيداً عن المراسل الذي أكمل كلامه قائلاً :

«منذ مئتي عام وهذه القبعات ذات الوبر الأسود الكثيف يتم ارتداؤها من قبل الجنود البريطانيين ، لترمز إلى الانتصار

على الحرس الإمبراطوري لنابليون ، والذين كانوا يرتدون قبعات جلد الدب في معركة واترلو عام ١٨١٥ . . وهذه القبعات عددها من عدد أفراد حراس القصر الملكي ، وهو ١٢٧ قبعة ، ومقابل كل واحدة من تلك القبعات المشتراة هناك دب قُتل بوحشية ، إما عن طريق اطلاق النار عليه أثناء مطاردة مستمرة لأيام ، أو اصطياده في فخ مؤلم أثناء الصيد ، وما لا يقل عن واحد من سبعة دببة لا يقتل على الفور بعد اطلاق النار عليه ، ولكنه قد يصاب بجرح بليغ ، ثم يعمد للهروب وهو ينزف ، فيموت في وقت لاحق من فقدان الدم أو الموت جوعاً . أما في حالة الأمهات مع أشبالها الصغار ، فإنه يمكن أن يعني ذبح عائلات بأكملها» .

هنا عاد أخي بدر إلى المراسل الصحفي وقال له :

«بعض المصممين ، مثل خالتي سوزان ، كانوا من بين الذين قدّموا خدماتهم إلى وزارة الدفاع في السنوات الأخيرة لتصميم القبعات البديلة التي لا تحتاج الفراء الحقيقي ، ولكن الوزارة لا زالت مصرة على قتل الدببة لاستعمال فراءها» .

انتهى التقرير ، وطلبت من الدكتور عامر أن أعيده مرة ثالثة ، فسمح لي بإعادته أكثر من مرة ثم نزّله على فلاش لكي آخذه معي الى البيت فيما بعد . . وهل سأعود الى البيت يا دكتور . .

– طبعاً فأنت موجود هنا عن طريق الخطأ .

– إذن لماذا طالت فترة احتجازي لشهرين . . لماذا لا تطلقون سراحي؟

– آن الأوان وسيطلقون سراحك هذا اليوم أو غداً .

دخلت في مشاعر متناقضة . . قلق لغموض المكان ومعاذ وكل شيء من حولي ، وفرح لأني رأيت أخي بدراً بعد كل هذا الغياب ، شعرت بالشوق إليه ، وداهمتني رائحة الهواء المشبع بالمطر وقت الشتاء ، ثم حزنت لأني لأول مرة أدرك بأن عالمه الذي نبذته بإرادتي هو ليس فقط حلقات معدنية توضع فوق الشفة والحاجبين ، وصراعاً مع طلاب متنمرين يجاهرون بالعنصرية ، ولكنه قد يكون إنسانياً عندما يخاطب العالم الذي تبلّد وتصلّبت مشاعره ، مثلما تبلدت أمام الحرب التي شنتها أمريكا على بلادي فدمرتها تدميراً هائلاً . . لا زالت أمريكا مطلَقة اليد في هذه البلاد المدمرة ، ولا من رقيب ولا ضمير عالمي يحاسبها على شرورها ، أو يحاكم رئيسها كمجرم حرب . ما زلنا ندفع ثمن تبلد العالم أمام خطاب بوش الذي قال فيه إن تلك الحرب جعلت بلاده أكثر أمناً . . باتت القضية التي تشغل العالم هي الحروب الصغيرة التي نشأت عن حرب العراق وبسببها . . وضاعت الجريمة الأولى التي لولاها ما كانت أنهار الدم تجري وأشلاء العراقيين تتبعثر فرجة للعالمين .

يبدو عالم بدر مثالياً وبعيداً عن الواقع المر الذي نعيشه في هذا الطرف من العالم . . ما مجموعه مئة وسبعة وعشرون دباً

قـتلوا في العـام الماضي وحـده من أجل هذا الفـراء الناعم المستـعمل من قـبل وزارة الدفاع البـريطانية لصناعة قـبعات الحراس . . الدب قد يصاب بجرح بليغ ، ثم يعمد للهروب وهو ينزف ، أو يموت في وقت لاحق من الجوع و فـقـدان الدم . أمـا في حالة الأمهات مع أشبالها الصغار ، فإنه يمكن أن يعني ذبح عائلات بأكـملها . كأن بدر يتحدث عن البشر عندنا ، لا عن الدببة عندهم . . أنا مثله أحب الحيوانات وأدافع عنها . ولكن هل يدافع أخي بدر عن الدببة لأنه يعرفها أكثر مما يعرفنا ، أم لأنه يريد أن يجعل حقها في هذه الأرض مثل حقنا تماماً ، أم إنه يعتقد هكذا العالم يتوازن . . بوجود أشكال وألوان عدة . . عاقلة وغير عاقلة . . مؤمنة وطائشة . . طيبة وشريرة؟ . . .

لو كنت هناك لكان قد جرّني جراً إلى تلك التظاهرة ، كما جرني إلى مباراة لكرة القدم في لندن . . ومن نظرة واحدة إلى من كان معه يستطيع المرء أن يدرك أنهم ليسوا أشراراً ، وأنهم أيضاً لديهم قضية يدافعون عنها ، ولكن عيبهم أنهم لا يعرفون عن قضيتنا شيئاً . كيف نريدهم أن يعرفوا ونحن أنفسنا لا نعرف؟ . . كل واحد منا جعل الدين على مقاسه . بيبي حبيبة حـولتـه إلى جن ومـلائكة ، وعـصـمـان حـوله إلى خـوارق وكرامات ، وهيا لا تعرفه ، وأبي تخلّى عنه أصلاً ، إحسان فقط هو من بالغ في جديته إلى حد الموت فـقُتل عـباس الأسـمـر معه ، الوحيد الذي لا أفهمه هو معاذ ، ونظرات معاذ . . فهي لا

تخيفني فقط ، وإنما تجعلني أدرك شيئاً خفياً يرفضه الإدراك السليم ، لأنه لا يمكن أن يكون صحيحاً البتة . . إنه يكاد يفحصني بنظرات حيادية فيها بعض الفضول . . أكيد أن له اسماً اخر . . وأريد أن أعرف أين رأيته .

عندما وجدني عامر بدأت أستيقظ معه لصلاة الفجر . . استعمل مقولة ابوقراط نفسها وأراد أن يشفيني بنبات أرضي . كنت ، حسب قوانين أمي التي تسميها قوانين مورفي ، واقفاً في طابور لا يمشي ، والصف الذي بجانبي هو الذي يمشي . . فإذا انتقلت للطابور الماشي ، فقد يقف ، والطابور الأول هو الذي يمشي . . أنا في داخلي صخر آخر ، يجيد كتابة الشعر ، والبوستات البليغة على الفيس بوك . . ولكنه لا يستطيع التعبير عن نفسه بالكلام الفصيح أمام أتفه التافهين الذين قد ينظرون له نظرة دونية . . وجدت الدكتور عامر موجوداً في الطابور الثاني الذي يمشي ، وكان عليّ أن أمشي معه ، عسى أن لا يتوقف فأضطر للعودة إلى الطابور الأول . . وإذا ما طلب مني رفع الأذان لكي يعالجني من التأتاة ، فهذه هي الخطوة الأولى المبنية على أسباب . أنا أحب الأذان منذ صغري . . لماذا؟ سألني الدكتور عامر ، هل كان يرتبط عندي بعودتي من المدرسة وقت الظهيرة وأنا جائع متشوق للغداء ، فقلت له كلا ، لا أعتقد ذلك ، فأنا أحب سماعه حتى أيام الجمعة وباقي أوقات اليوم .

ألزمَني الدكتور عامر بأخذ نفس عميق ثم التحدث عبر

جـمل مكونة من ثلاث أو أربع كلمـات فـقط ، ولا يزيد على ذلك ، فـالتلعثم قـد يقوم على صـعوبة تصور الجـملة القـادمـة للمتحدث واهتمامه بما سيقوله آنياً فقط ، وبالتالي يحدث له تكرار بعض الحروف ، وعدم وضوح بدايات الكلام ، ولهذا فإن المتلعثمين قد لا يعانون المشكلة مع أغنية أو عبارة حفظوها أو أحبوها من قبل . التفتُّ إلى طلبه عندما قال لي ، وهو يبتسم ابتسامة مشجعة :

– هيّا لرفع الأذان . .

قال هيَا بطريقة مشددة . . . انطلق هذان الحرفان الهامسان على شكل صوت مبهم في لحظة استذكار شيء مهم . ومن المحاولة الأولى ، ودون أن أتردد استطعت رفعه بدون أن أتلعثم . أخذت نفساً عميقاً ثم استخدمت الزفير . . وخلال الزفير الأول قلت الله أكبر الله أكبر . . وخلال الزفير الثاني قلت لا إله إلا الله . . وخـلال الزفـيـر الثـالث قلت مـحـمـد رسـول الله . . واستمريت في رفع الأذان .

سـبق لي أن ذهبت إلى طبـيبٍ تخـاطبٍ وتمرنت عنده ، وكان نوع التمرين هو بأن يأتي لي بكتاب عليه صور وأنا أعلّق عليـهـا ، وقـبل كل كلمـة أسـتـخـدم الزفـيـر وأقـول الكلمـة ، وأستخدم الزفير وأقول الكلمة ، وهكذا كان التمرين مدة ستة أشهر ، وبعدها ذهبتْ عني التأتأة بشكل بدا لي نهائياً ، وبعد ستة أشهر أخرى ، عادت لي التأتأة من جديد ، وعالجها أخي

التوأم بدر عن طريق أغاني الراب . . كنا نجلس سوياً ويعطيني ورقة عليها الكلمات الملحنة عن طريق برنامج في الكومبيوتر ، فإذا ما غنيتها وحدي تلكأت وتلعثمت ، وإذا ما غنيتها معه زال التلعثم تماماً . أحببت هذا العلاج عن طريق ترديد الأغاني واستمريت أجربه بعضاً من الذي قضيته مع بدر في دولش ، ولكن جاءت وندي وخربت كل شيء .

لا أعلم ، ربما يكون تصرفها في القطار هو السبب ، سعيداً كنت أغني مع بدر أغنية راب سياسية أنا كتبتها بنفسي اسمها (علامة استفهام) ، وتتحدث عما حدث في العراق بطريقة غير مباشرة . . وندي قالت إنه اختيار سخيف وكلمات أسخف . . لم تفهم ما معنى أن أتحدث عن الجنود الأمريكان ، وعن نشر الفوضى ، وعن الحرب المدمرة . . راحت تشوش علينا بتقليد صوت دوي الطائرات . . فووووووووم . . فووووووووم . . كادت أن تجنني بتصرفها ذاك . . قلت لها كُفّي عن هذا الصوت المزعج . . ماذا تريدين . . قالت ساخرة أحب سماع قصة الجميلة النائمة؟ فقلت لها حسناً هذه الحرب هي نسخة العصر من قصة الجميلة التي سممتها زوجة الأب . . ازداد ضحكها العالي ، ولو كان بدر هو المعني بسخريتها تلك ، لاستخدم تكنيكه الساخر معها ، وأظهر لها لا مبالاته التامة ، بل بدأ يسخر منها هو الآخر ، وينعتها بأبشع الأسماء والصفات ، بينما هو يضحك بصدق ، أما أنا فقد بدأت أصرخ

بصوت عال ، ولم أتوقف عن الغناء حسب ، ولكنني توقفت عن التمرين فترةً طويلة . . ووندي كانت هي السبب!! هل رفعُ الأذان يشابه ذلك التمرين نفسه الذي حسّن حالتي؟ . . . . . لا أعرف .

(٣٧)

المكان: أعالي المكان

الزمان: لحظة حنين

- كيف حدث هذا؟

سألتُ هيا ، ونحن نقف بالباب بانتظار مجيء الدكتور عامر ، لكي يبدو الأمر لقاءً أو كلاماً بالصدفة إذا ما عاد على غفلة من الاجتماع . .

فقالت لي :

- إن الفكرة هي كل شيء ، فإنْ كنتَ مؤمناً فإن قطعة خشب صغيرة جداً مقطوعة من باب قديم تصبح أثراً مقدساً ، وإذا لم يكن لديك إيمان ، فالصليب المقدس كله يصبح إطار باب قديم بالنسبة لك .

- هل أنتِ مسيحية؟

- هذا الكلام ليس لي ، ولكنه لزوربا .

- هل أنت مسيحية؟

- الذي يقرأ كثيراً يضيع دينه ثم تضيع حياته . الأبواب أمامي مفتوحة على مصراعيها لأني إنكليزية من أصول

فلسطينية . . وكلما حاولت ملء روحي بكلام أمي أو أبي أشعر بالعجز على فعل ذلك . . روحي أصبحت بلا روح . . تنقلت بين ثورات الربيع العربي . . كل الثوار يصرخون بالله أكبر ، وهم يقطعون الرؤوس ويغمرون الأرض بالدماء . لا أدري كيف يؤمنون بالله بالأساس ، ثم يقتلون شخصاً آخر يؤمن به؟ .

– جميعهم شباب متحمسون لفكرة أو عقيدة واحدة ، ويُكفّرون من يخالفها .

– الحماس هو علة الشباب كما يقول أبي ، وفقط عندما تصبح بلا أسنان يتعين عليك أن تدرك الحقيقة .

– وهل الشاب الذي لديه أسنان مثلي لا يستطيع إدراك الحقيقة .

– حتى وإن أدركها الشاب أو الكهل ، فسيبقى يمثل دوره حتى النهاية . سيبقى يرفع الأذان ، وحتى وإن أصابه كسر بليغ ، سيعمد لأن يصدق نفسه وهو ينزف .

– هل تشكّين بكلامي؟

– أنت مؤمن يا صخر ، وهذا شيء جيد لأنك انسجمت مع إيمانك كل الانسجام ، ولكن عندما ترى شخصاً يعتنق شيئاً آخر تأمله واحترمه أيضا لأن الأدوار جميعاً تتكامل في النهاية . . وما من شيء آمنت أنت به ، إلا كان لغيرك دور فيه أيضاً . . وتبقى المراجعة أمراً في غاية الضرورة من أجل أن لا تكون عيوب الآخرين فقط هي التي تستحق اللوم أو الانتقاد ،

وأن نتوصل إلى عيوبنا أيضاً التي صدمت الآخرين ، فجعلتهم يصيبوننا بصدمة قوية . والعيوب كثيرة جداً ، ومتصلة ببعضها البعض ، ولا تخص التاريخ والجغرافية فقط ، ولكن تخص الأخلاق أيضاً . فجيلان مثلاً طفلة عراقية أزيدية عمرها أربع سنوات ، وهي من أهالي قرية كوجو في سنجار ، وتقول الأخبار أن هذه الطفلة شاهدتْ المذابح التي حدثت بحق أهل القرية ، ومن ضمنهم جميع أفراد عائلتها ، وهي الآن ترتعب كلما سمعت صوت الأذان ، وتسارع للهرب مذعورة وهي تقول لأطفال المخيم : (اهربوا . . سوف يقتلونكم) .

- . . . . . .

- قل لي الآن يا صخر ، من منكما على صح ومن على خطأ؟ أنت الذي انقذك الأذان من التأتأة في الكلام ، أم جيلان التي كانت تهرب نحو الجبل كلما سمعت صوت المؤذن يردد : «الله اكبر» .

- ألهذا أنتِ صحفية تتجول بين المخاطر وتغامر بحياتها للإقتراب من الأدوار كلها؟

- كنت اشعر بأن حياتي تذهب هباءً وأنا ضائعة بين أفكار أبي والأفكار التي أتأملها في الكتب ، ففعلتُ ما فعله دون كيشوت وخرجت أبحث عن الحقيقة .

- وهل عثرتِ عليها؟

يبدو أن الاجتماع الذي يشارك فيه الدكتور عامر قد انتهى

دون أن أنتبه لذلك . . فجأة سمعت صوتاً غريباً من بعيد يقول :

– ولك ابن النصرانية يا أخرس ، شكاعد تسوّي بين النسوان؟

شعرت بسخونة تسري في جسمي كله ، وأخذتُ حجارة من الأرض رميتها على مَن صرخ بهذه الكلمات ، شعرت بإهانة أكبر من تلك الإهانة التي وجهها لي جان شقيق وندي . . قال لها ماذا يفعل هذا المسلم عندنا؟ ، فضربتُه وأوقعتُه أرضاً . . وهذا شاب آخر لم أره من قبل ، يقصد إهانتي ، وينعتني بابن النصرانية وأنا أقف في مدخل غرفة الدكتور عامر . . في الحالتين لا أملك أن اتكلم خوفاً من التلعثم ، فألجأ إلى استعمال يدي بدلاً عن لساني . .

الغريب أنني بعد أن قذفته بالحجارة هرب ، وتوارى عن الأنظار . استغربت هروبه السريع والمفاجئ بعيداً عني ، ظننت حجارتي هي السبب ، ولكن الإطلاقات النارية التي بدأت تنهال علينا من كل صوب كانت هي السبب . . حدث اضطراب شديد أربك الوضع في المكان الذي أصبح فجأة تحت قصف كثيف لم أتبين مصدره . . هرب الرجل الذي صرخ بي قبل قليل إلى بيت العجوز ، وبقيت أنا وحدي أسمع صرخات هيا :

– ابحثْ لك عن ساتر .

لم أفكر بشيء في تلك اللحظة غير الهروب . . أدركت أن الأمور تسير لصالحي ، وأن فرصة الهروب قد حانت ، ويجب أن لا أتردد أو أخاف . . هيا يا هيا . . هيا يا هيا . . فكرت في تلك اللحظة بأن هيا أيضاً يجب أن تهرب ولا تذهب معهم . . رأيت الجميع يدخلون بيت ترفة السورية وأنا أنزل دكة الغرفة التي كنت أقف عليها مع هيا قبل القصف ، واتشارك فيها السكن مع الدكتور عامر . تركتْني هيا وذهبت بعيداً ، ثم جاءت بعد قليل تحمل كاميرتها لتصور ما حدث من مكان غير مكشوف . . ولكن القصف توقف فجأة مثلما بدأ فجأة . . والجميع اختفى داخل كوخ ترفة العجوز ، ما عدا معاذ الذي رأيته من بعيد يقف ورجل آخر متجاورَيْن خلف أكياس من الرمل . . . . اقتربتْ هيا مني أكثر . . كم خطوة لا أعرف ، لأني كنت مشغولاً بالنظر إلى الرجلين . .

ماذا يحدث؟ هل هذا معقول؟ . . قريباً منهما توجد سيارة ، وكانت تحمل في مقدمتها علامة معدنية . . العلامة المدفونة في قعر دماغي طفت إلى السطح بسرعة غريق خفيف الوزن . . العلامة هي لأسد يمشي . . يبدو الأسد الماشي كأنه مهرج أكثر من كونه أسداً . . طوال الوقت وأنا أريد أن أعرف أين رأيت معاذ من قبل . . . . ولا زلت غير متأكد لبعد المسافة ، استمر الرجلان في الحديث بصوت عال ، وكأنهما لا يرياننني . . ولولا اللحية الكثة التي تغطي وجه معاذ لقلت إنه

وباهر الذي يقف بقربه يتشابهان . ماذا يفعل باهر هنا؟ هدأ كل ضجيج القصف ، وجاء الدكتور عامر بسرعة لأخذ لابتوبه من الغرفة ، فقلت له :

– الآن عرفت لماذا أنا هنا . . إنهم خطفوني من الأساس عقاباً على ما فعلتُه . .

– ولكنك لم تفعل شيئاً .

– بلى فعلت .

– انت محتجز بدون تعذيب ولا فدية ولا قتل . . مجيئك إلى هنا مجرد تشابه في العنوان . .

– قالوا في البداية إنه تشابه أسماء ، ثم تقول لي الآن إنه تشابه في العنوان . أنا قد عرفت السبب . . لأني رأيت توّاً أخا معاذ هنا .

– ومن هو أخوه؟

– إنه باهر . . باهر المتصابي الذي خطف مني حنين . . كنت قد رأيتها تركب معه السيارة فعجزت عن النطق بكلمة واحدة . . أحسست بالعجز التام عن الكلام . . كنت أمشي عندما استدارت السيارة من رأس الشارع ، وعادت تمشي بحذائي في باب الأكاديمية . . أصبح رأس باهر قريباً مني والنافذة مفتوحة فبصقت عليه وعليها . هذا كل ما استطعت فعله يا دكتور . . بصقت عليه وعليها . . ألا تظنها جريمة تستحق الخطف؟

– هل تقصد أن الرجل الذي رأيته مع معاذ قبل قليل هو نفسه باهر ، أستاذك في الكلية؟

– نعم .

– لكنه ليس أخا معاذ يا صخر؟ إنه شخص حقير مخطوف وقد يقتل .

– هل هذه صدفة أخرى يا دكتور؟

– لا ليست صدفة ، ولكنه هو الرجل المقصود بالخطف وليس أنت . . هذا الرجل مخطوف مع سيارته لسبب يستحقه . . لقد جاؤوا به قبل قليل إلى هنا .

كلام الدكتور عامر أشعرني بأني أدور في دائرة ، ويجب أن أعود لمبتداها لكي أعرف أين رأيت معاذ . لأكثر من شهرين وأنا أبحث عمن يكون معاذ ، وأين رأيته ، وقد ظننت قبل قليل أنه يشبه باهراً ، وما تصورت أنه سيجعلني أتذكر وأعثر على الجواب . . باهر هو الذي أوحى لي بالجواب . . إذا كُنّا أنا وباهر مخطوفَيْن . . فأكيد أن ثمة شيء مشتركاً بيننا ، وهذا الشيء المشترك هو حنين . . وللتو أدركت أن معاذ يشبه حنين ، وحنين ليس لديها إخوة . . إذن وحدها حنين إذا نظرت إلى معاذ ستعرفه . . إنه ابن عمها أو أبن خالها . . ولا داعي للسؤال كيف عرف معاذ بأنني صخر الذي أحب قريبته حنين طيلة سنتين ، فالذي رآها تصعد سيارة باهر ، قد رآني بالتأكيد وأنا أبصق عليه وعليها . .

كان القصف قد توقف . . والدكتور عامر يوشك ان يخرج من الغرفة عندما قال لي ، وكأنه يقرأ أفكاري :

– لم تكن مقصوداً بالخطف يا صخر . . معاذ كان يريد أن يطلق سراحك في اليوم التالي لعملية الخطف ، لولا أنهم تأخروا في القبض على باهر ، ولم يستطيعوا المجيء به إلى هنا إلا هذا الصباح؟

بقيت مأخوذاً بكلام الدكتور عامر بعد القصف الذي توقف ، اختفى الجميع . . تركوني ودخلوا بيت ترفة ثم لم يخرجوا منه . . . مداهمة المكان جعلت المعسكر يتبخر إلى أسفل بلمح البصر . وهرب البعض بسياراتهم قبل وصول الشرطة بنصف ساعة تقريباً . في هذه الفترة الوجيزة كان عامر يحثّني على الهرب معه من المعسكر إلى بيت العجوز ترفة . . حدست أن هناك نفقاً تحت الأرض يبدأ من هناك ويذهب إلى اتجاه من الاتجاهات . . تسمرت في مكاني ولم أتحرك . . أنا لست منهم ولا أنتمي إليهم ، فلماذا أهرب معهم؟ . . هذه فرصتي للهرب منهم ، حتى وإن كان مصيري السجن لدى الشرطة ، فهذا أفضل من أكون رهينة أبدية بأيدي هؤلاء . . عامر قبل أن يتوجه إلى الكوخ احتضنني بقوة ، وكانت آخر كلماته :

– لم يكن تشابهاً في الأسماء ، يا صخر ، ولكنه تشابه في عنوان السكن . . باهر منذ البداية كان هو المقصود بالخطف ، وليس أنت؟

استدار الدكتور عامر ، وهو يمسح دموعه بظاهر كفه ، ثم ركض إلى الكوخ الذي ابتلع الجميع في غمضة عين . . راقبته وهو يبتعد وقد غمرني الألم لفراقه ، ومعه انشغال جديد بالكلام الذي قاله الدكتور عامر قبل قليل . .

تشابه في العنوان؟

أي أن باهر ، الذي جاء يسكن شقة مصعب التي فوقنا ، كان هو المقصود بالخطف وليس أنا . . لم يعد الأمر صدفة ، ولكن لعبة أقدار متقاطعة حاك خيوطها الشيخ معاذ لأنه أراد الانتقام من باهر . . وليس لأنه أراد أن يعرف ما علاقتي أنا بقريبته حنين التي بصقتُ عليها عندما ركبت السيارة مع باهر . ظننت قبل لحظات أنهم قد اختطفوني بسبب بصقة بصقتها ، ولم يكن هذا حقيقياً . . كما لم يكن حقيقياً في البداية أنهم خطفوني بسبب تشابه في الأسماء . . الآن فقط اتضح بأن قصة خطفي لا دخل للأسماء بها ، ولا إحسان كان له دخل في وجودي هنا ، لأنه نفسه مات وهو لا يعرف أن ذلك كان بسبب نذالة من نذالات باهر الحقير ، وأكيد أن ما فعله مع حنين كان أمراً مهولاً يستحق القتل من أجله .

فترة من الوقت مضت بين القصف ووصول الشرطة . . لم يبق سوانا أنا وهيا . . أما باهر فلم أره خلال الفوضى التي حدثت ، ولا معاذ عاد موجوداً . . سيختفي هو وجماعته من هنا ، ويظهرون في مكان آخر . . يبدو أن الصحراء كلها

وطنهم . ، وليست المدينة . . ولو كان إحسان حياً لأخبرته بهذه الفكرة التي طرأت في تلك اللحظة على بالي داخل سورة من رياح رملية بدأت تعصف في جميع الاتجاهات . توجه أحد الضباط ، وكان برتبة نقيب ، باتجاهنا ، واختلط صوت الرصاص مع أصوات مكبرات صوت تطالب بالاستسلام . . لم يكن قد تبقّى سوانا أنا وهيا في المكان مع مجموعة مخطوفين جيء بهم قبل وقوع المداهمة . . رفعتُ كلتا يديّ وقلت لهم بأني كنت مخطوفاً بالأساس . . وهيا قالت إنها صحفية جاءت إلى هذا المكان قبل شهر واحد .

وُضِعنا في شاحنة صغيرة تمهيداً لنقلنا لمكان آخر ، وبعد الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات تقريباً ، اقتربنا أخيراً من بوابة كبيرة تحف بها أشجار يوكالبتوس عالية تخفي ما وراءها وتتقدم طريقاً فرعياً خالياً يبدو أنه يقود الى مكان ما اعتقدت أنه من تلك الأمكنة التي تسلم للناس عُددهم وكهربائياتهم وموادهم الإنشائية ، ولكن اللافتة كانت تشير إلى أنها مقبرة الشهداء في الكرخ . ثم بدأت اللافتات المألوفة تعترض طريقنا . . هذه كلية الزراعة ، وهذا معمل للحليب ، ثم أرض زراعية يتفرع بالقرب منها طريق ملتوٍ يعود إلى برية شاسعة كثيرة الحصى تذكرتُ أن أبي قصدها ذات يوم لاستلام سيارة جديدة . بغداد لم تعد بعيدة ، ولم يعد بامكاني تمييز اللافتات عن بعضها البعض . . فشعرت بأن الوقت مضى بسرعة

غريبة . . وأن المغرب قد حان مع اشتداد البرد .

صنوت الرصاص لعلع من جديد ، وسمعنا من نداءات الشرطة مع بعضهم البعض أن هناك قوة أخرى تقتحم الحرم الجامعي بحثاً عن مطلوبين ، وتمنع الطلبة من الدخول والخروج من هناك . . . واصلنا السير من مسرب مخصص لسيارات الشرطة يحاذي طابوراً طويلاً من السيارات المتوقفة قرب سيطرة أبي غريب من أجل التفتيش . . كنت أسمع الضباط يتحدثون مع تلك القوة المهاجمة للكلية وأقسامها الداخلية ، ثم يقولون فيما بينهم إنها كلية الطب البيطري ، فشعرت بالاطمئنان قليلاً . . . إننا ، إذن ، فعلاً مع قوة من الشرطة ، وليس مع عصابة أخرى ترتدي ملابس الشرطة . كانت سيارتنا تضم مجموعة من الرجال المختطفين الذين يلهجون بالشكر والثناء على إنقاذهم . .

أول أن هبطنا منها ، بدأ رجال الشرطة يستجوبونني . . لا أدري لماذا عزلوني عن الباقين ، أو لماذا لم يصدقوني عندما قلت لهم إنني قد خُطفت من بيتي قبل شهرين . . وإن أبي كان في بريطانيا عندما جاء رجال يرتدون زي الشرطة ، اقتحموا منزلنا في الطابق الأول ، وأخذوني معهم . . وهناك أدّعوا أن اسمي يتشابه مع اسم شخص آخر . . ومع ذلك احتجزوني عندهم حتى جاءت مداهمة الشرطة لتحرير وجبة من المخطوفين وصلت في صباح هذا اليوم . أخبرتهم بكل شيء ما عدا قصة

حنين والكوخ الذي هرب منه الدكتور عامر .

أخذونا إلى معتقل حدست أنه على طريق المطار . . وعلقوا رجلاً من يديه ورجليه . حاولت أن أتفادى رؤية ذلك ، لكن أحد الحراس أمسك بوجهي باتجاه ذلك المشهد لكي أراه جيداً . . وكأنه يفعل ذلك من أجل نزع اعترافات مني . انضم إليه آخرون وراحوا يسحبون الأحبال حتى كادوا أن يمزقوا أطرافه . ولا زلت أتذكر صراخه حتى الآن ، أرادوا نزع اعترافات غير التي قلتها عن أي شيء أو شخص رأيته هناك . . لعلهم يشعرون بأني أخفي عنهم شيئاً ، ويظنون بأني قد لا أكون مخطوفاً ، وإنما من جماعة معاذ . . وأنا نفسي لا أعرف لماذا أخفيت عليهم قصة الكوخ الذي هربوا منه . . أو كيف أخبرهم به وقد هرب منه الدكتور عامر أيضاً . هل سمعت بمصطلح «متلازمة ستوكهولم» ، سألني الدكتور عامر بعد أن وجدني مطمئناً إليه غاية الاطمئنان ، فقلت له كلا ، قال لي بأنه مصطلح يطلق على نوع من أنواع العلاقة بين الخاطف والمخطوف ، حيث يميل الثاني أحياناً ، وتحت ظروف القهر والاستياء من شيء مشترك ، إلى التعاطف مع الأول ، والارتباط به عاطفياً ، أما الشعور المضاد ، أي عندما يتعاطف الخاطف مع المخطوف فيسمى بمتلازمة ليما . . . ويحدث عندما يكون الجاني على قدر كبير من الطيبة ، ولكن الظروف هي التي دفعته لارتكاب جريمة الخطف .

كان عليهم أن يتدبروا بصمات الأصابع واللعاب والقرنية وغيرها ، ثم بدأ التحقيق بتوجيه أسئلة كثيرة ومرهقة . وكل شخص يحقق معه يقولون له إن دليل تعاونك معنا هو إعطاؤنا أسماء أشخاص تعتقد أنهم من الممكن أن يشكلوا خطراً علينا . . وبدا لي أن تتبع الشيخ معاذ كان مهماً لدرجة أن جاء محقق أمريكي للسجن ، وراح يسألني أسئلة يترجمها المترجم إلى العربية . . . . يبدو أن أسئلته يجب أن تكون مفهومة لمحقق عراقي كان معه . . ونصفي الإنكليزي لم يفعل شيئاً سوى زيادة شكوكهم حول علاقتي بالإرهاب . . توقعت أن يكون الضابط الأمريكي مختلفاً ، وفعلاً لم يسخر مني لدى حديثه معي أو مع المترجم ، فقط قال لي أعطنا أية معلومات أخرى عن معاذ . . قلت له بأني لا أعرف شيئاً أشي به ، لأني لست منهم بالأساس . . فقال إنه سيحولنني إلى مكان تأنف الكلاب من العيش فيه .

عندما يكون أحد المحققين موجوداً ، لا يكون بالإمكان لأحد أن يمد لي يد المساعدة ، أو أن ينقذني من وضع التحقيق المرعب . ولكن بعد انتهاء التحقيقات ، يقوم بعض الحراس بتوفير العلاج والطعام ، ومعه السباب والشتائم والإهانات . يسمونني بالأخرس ، وأنا لا أستطيع الرد ، وحتى إذا ثرت في وجوه السجانين من خلف القضبان ، ازدادوا ضحكاً ، وقالوا لي :

– حسناً أنت لست أخرس . . أنت أبو نص لسان . .

تكنيك أخي بدر الخاص بالنيل ممن يتجاوز عليه بالإهانة لا ينفع هنا . . يتظاهر بأنه لا يبالي . . ويروح يرمي غريمه بشتى الأسماء والصفات القبيحة لأنه متأكد بأن ذلك الغريم سيبالي وينزعج . . حتى أنه يستطيع فوراً تأليف الأغاني التي يُطلق فيها أسماءهم على الحفاظات والقاذورات والقمامة ، فإذا ما فعلوا العكس وأطلقوا اسمه على أسوء الأشياء فإنه لن يبالي ، أو يتظاهر بأنه لا يبالي ، وقد يضحك أيضاً . أما أنا فلا أملك إلا أن أتظاهر بالخرس إذا ما صعدتُ سيارة الأجرة ، لكي لا أتلكأ وأتلعثم في الكلام . . أخاف أن أكلم أحداً ، أو أتعرف على زميل . . أخجل حتى عندما أسأل الأستاذ على انفراد ، ولكي لا أعيش في هذا العذاب ، قضيت أكثر أوقاتي في المدرسة صامتاً وبعيداً عن باقي الطلاب . من أيام المدرسة الابتدائية وأنا أحب الجلوس وحدي ، وأتهرب من الطلاب الجدد الذين لا يعرفون بعاهتي . . في الثانوية تفاقم الأمر ، وأصبح المدرسون يدركون محنتي ، ويقللون قدر الأمكان من أن يجعلوني أجيب على الأسئلة ، أو أتلو ما حفظته في اليوم السابق . . مدرس اللغة الإنكليزية أرسلني مرة من المرات لجلب الطباشير من صف آخر ، وخمنت أنه لم يشأ أن يحرجني عندما يأتي دوري في قراءة المسرحية . . أبي كان يسألني . . لماذا إذن تريد البقاء هنا؟ فأقول له لا أعرف ، وأنا أعرف جيداً لماذا أريد البقاء هنا . .

في إنكلترا لو وجدوني جالساً وحدي ، ولا أختلط مع باقي الطلاب ، لأخذوني الى الطبيب النفسي ، ولأصبحت موضع اهتمامهم ومراقبتهم . . وأنا لا أريد هذا . . أكثر شيء أكرهه في الدنيا هو أن يصبح عيبي ، الذي به انخلقت ، موضع تقليب واهتمام ، أشعر حينها بأنني معروض للفرجة بالمجان ، وأني يجب أن أتقبل هذه الإهانة على أنها علاج . الأطباء لا يفهمون . . وأبي أيضاً لا يفهم ، ووحدها سجا ، التي لا تفهم ، كانت تفهم مشكلتي لأنها لا تهتم بها ، ولا تضحك عليها ، ولا تعرف أن خربطة الحروف والكلمات عندي شيء يثير الضحك أصلاً . . أحسن شي هو أن أصمت مع الجميع إلا مع سجا . أصلاً كنت أفرح عندما يقولون لي : عينك على سجا . . خطية ما تفتهم دير بالك عليها . . أشعر بأنها أختي التي يجب أن أحرسها . . وبقيت أحرسها بينما الكل كانوا يتهربون منها ، عاهدت نفسي على ذلك ، وكنت الوحيد الذي يلعب معها ويحادثها ، ولم أسحب نفسي منها حتى بعد أن كبرت وأصبحت في عمر المراهقة ، كانت هي الوحيدة التي تتغاضى عن مشكلة لساني ، ومعها فقط كنت لا أفكر بترتيب الجملة قبل أن أقولها ، ولا أخاف لجلجة الحروف إذا نطقتها ، ولا أكتئب فجأة إذا تأخرت معي الكلمات . . كنت كأني أحادث نفسي عندما أكلمها ، ولا أخجل من عاهتي معها . . وبقينا بهذا الشكل طوال الوقت إلى أن جاء اليوم الذي سكتت فيه

سجا ، ولم تعد تتكلم أو تصرخ أو تكبر ، فشعرت بأني لم أستطع حراستها كما يجب .

لا أعرف أين أنا ، ولا أين هيا الآن . . وهل أُفرج عنها حقاً . . أو إلى أي مكان ذهبت تبحث عن الحقيقة . . كنت أسمع صوت نقاشها العالي معهم طوال الليلة الوحيدة التي قضيناها سوياً في التوقيف . . وبعد ذلك لا أدري ماذا حصل معها أو أين أخذوها ، وهل ما زالوا يحققون معها لحد الآن ، أم هم يعاملونها بشكل مختلف ، لأنها صحفية بريطانية؟ سألت عنها كثيراً ، ولما عرفت بأنهم قد أفرجوا عنها شعرت بالراحة والاطمئنان . حاولت التأكد من أنها فعلاً قد أصبحت بعيدة عن الخطر ، وسألت عنها الحارس الذي كان يعذبني طوال الوقت ، فقال لا أعرف شيئاً عنها ، ولكني عرفت عن طريقه بأن باهر كان موجوداً هنا ، وقد أفرج عنه مع باقي المخطوفين . . . هنا فعلاً يمكن للمرء أن يستلقي على قفاه من الضحك ، لأن الحراس يجلسون في حلقات على الأرض مباشرة أثناء الطعام ، وسمعتهم يقولون :

– طلع الولد إنكليزي لعد؟

– لا نُص إنكليزي .

– والله لو تأذن أمه بعد ما نرجعلهياه؟

– قصدك حتى لو تقرع الناقوس؟

الغريب أنه هذا الذي يضحك مني هو نفسه الذي كان

يبادرني بالحديث من تلقاء نفسه ، ويبادلني الكلام أحياناً وكأنه شخص آخر غير الشخص الذي يهيننني ، ويوجه لي السباب . . حدث هذا أكثر من مرة حتى تجرأت وسألته كيف يمكن لإنسان مثلك أن يفعل ما تفعله؟ مد يده إلى جيبه ، وأخرج بعض أقراص الدواء ، وأخبرني بأن تلك الأقراص هي السبب . وبأنها من الممكن أن تساعدني أنا أيضا . وأكد لي أنه مسجون هنا مثل تماما ، يضرب الناس منذ أربع سنوات .

سألني الدكتور عامر ذات يوم : هذا الذي يرتدي الأسود في حرب النجوم ما اسمه؟ فأجبته :

- دارث فيدر .

- هي شخصية كانت إنساناً ، ولما انضمت للجانب المظلم أصبحت آلة ، ولا يزال بداخله شي من الإنسانية . . . أليس كذلك؟

- نعم .

- ليكن ذلك الجانب المشرق هو ما يهمنا ، وإذا كنا نعتقد أن السؤال هو هل الجنة والنار من نصيبه تكون الإجابة : «إذا كنت تستطيع أن تكون إنساناً ، فسوف تكون الجنة من نصيبك ، وسوف تكون راضياً» .

لو كان الدكتور عامر قد سألني «ماذا كان لقبك وأنت صغير؟» ، لقلت له الأسمر في بلاد أمي . . والأخرس في بلاد أبي . . وإني لم أصل إلى مرحلة الجرأة في الكلام ، بعد سجا ،

إلا في حالة واحدة هي تجربته التي نجحت معي في رفع الأذان . بدأت أبادر برفعه ليس من أجل تمريني مع الدكتور عامر فقط ، لكن حتى أخبر نفسي بأني لم أعد الشخص السابق نفسه . . وبأن هناك من يسمعني عند رفع الأذان . . الله قد ابتلاني بهذه المصيبه ، لأن فيها خيراً وصلاحاً لي . . وهذه الكلمات ما يواسيني به جميع النزلاء أيضاً . . هم لا يشعرون بما أشعر . . ولا يعلمون بأن حنين قد اختطفها مني باهر النذل ، وسجا اغتصبها الجندي الأمريكي ، ووندي رأيت أخي بدر يقبلها في الظلام .

يقولون لي خليك واثق من ربك ، فإنه معك ، ولا تهتم للبشر ، فالبشر ذاهبون ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . . ولكني لم أكن أفهم او أستوعب العبرة من قصتي ، وأصبحت أعيش حالة شبيهة بالخلوة الروحية . اللحظة بالنسبة لي هي ذكرى حتى قبل أن تنقضي . أعاملها على أنها حزمة ذكريات عذاب سترافقني حتى بعد أن أخرج من السجن . . وهذا السجن مجتمع مصغر عالي الجدران ، ومدرسة مظلمة خلف القضبان . . الفرق أن النزلاء الغرباء داخل الزنزانة الواحدة هم التلاميذ ، وهم أنفسهم المعلمون . يذهب الوقت ولا تنتهي الأفكار ، فراغ بلا حواف تتزاحم فيه أفكار وتتكون أفكار أخرى . . وكل ما هو عادي في الحياة يتحول إلى كابوس في الزنزانات . . هي مكان جيد للتذكر لا للنسيان . . مكان فسيح

ليشحذ كل واحد منا ذاته المهانة ويستقبل ذاتاً أخرى هي ذات الكراهية والانتقام . . والعالم نفسه ينقسم إلى جزئين لا ثالث لهما . . بشر ووحوش .

(٣٨)

المكان: مكان التجربة

الزمان: لحظة الدكتور عامر

الكتمان هو الطريقة الوحيدة لتحقيق معجزتي مع صخر ، لأنني لو أعلنت عما أريد فعله لما تحقق لي ذلك . . ولا يمكن أبداً لأي تلقين أن يأتي بثماره إلا في مقابلات ملكات الجمال الغبيات ، أو امتحانات المدارس الأكثر غباءً من الممتحنين . . قالت هيا أمامي عدة مرات بأنها تستغرب من صيحات الله أكبر يطلقها كل من يذبح ويفجر شخصاً آخر . . و لم استغرب أنا أن تكون الكلمات متشابهة ومبذولة إلى هذا الحد بين شباب غُسلت عقولهم ، ولم يعودوا يدركون ما يفعلون . . أنا جئت لهذا المكان بإرادتي ، وكل ما أخبرتُ به صخراً كان صحيحاً مئة بالمئة . . سألني :

– لماذا جئت الى هنا؟

قلتِ له :

– إن المرء إذا مرض يجب أن يتداوى بنبات أرضه .

وهذا صحيح إلى حد كبير . . أنا جئت إلى هنا من أجل أن أضع التفكير موضع التجريب ، أن أريهم كيف يشحذ العنف

سيوف الكراهية ، وأن أجرب إقناعهم بأن لا يذكى الانتقام . . وعندما رأيت صخراً أردت مداواته بنبات أرضه . . بدينه وإيمانه . . صحيح أن صخراً كان يعرف بإني أعالجه من التأتأة ، ولكن ما لا يعرفه هو أن فترة بقائه في الخطف امتدت أكثر مما هو مقرر من أجل هذه التجربة . . كنت وجدت فيه ضالتي بعد أن جئت إلى هنا لأكون طبيباً فقط ، دون أن أشارك في أي شيء آخر . . معاذ كان يعرف هذا جيداً منذ البداية . . وتَقبّله بقناعة تامة ، بل دافع عني ، وقبل أن يكون بينهم صديقه القديم ، الذي بالرغم من كونه مسلماً ، لا يؤمن بما يؤمنون ، . . لم أخبر صخراً بأي شيء من المعلومات عن معاذ ، ولكني أخبرته كل شيء عن نفسي . .

أنا ضعيف القلب ، وأضعف من جهة الجسم والطاقة . . ولي شغف بالفرح والكتب ، وبأن يكون ديني هو فرحي ، وأن لا يتعارض مع عقلي ، ولا قلبي المعلق بين أصابع الرحمن ، استوحيت من القرآن فلسفتي . . ومن سورة فصلت قوله تعالى «ادفع بالتي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم» . أي سحر هذا للخلق العظيم الذي لا يتأتى إلا لصاحب الحظ العظيم ، فيجعل حتى العدو ولياً حميماً . . ويعالج عداوته بالإحسان ، لا بالعضلات وسطوة الانتقام؟ . .

شاءت العناية الإلهية أن تنقذ صخر من القتل في آخر

لحظة عندما اكتشف معاذ أن هذا الشاب المخطوف ليس باهراً ، وإنما هو شخص آخر جاء بالغلط . كنت الوحيد الذي يعرف بقصة باهر هنا وما فعله مع حنين ، ومعاذ أخبرني أنه يستحق القتل ، وهكذا هو معاذ يظن أن الحق للسيف ، لا لشهادة الشهود وحكم المحاكم . جاؤوا بصخر إلى غرفتي فعثرت فيه على ضالتي . . شاب صامت مسالم يحاول ترميم نفسه أو العثور عليها ، وهذه الغرفة الخالية هي المكان الذي سمح له بذلك ، كأنه شعر بحاجته الماسة للفراغ ، فودع العالم الخارجي ، وواجه ذاته . . استغربت أنه بدأ يصلي الأوقات الخمسة ، وكان قبل أن يقول الله أكبر يقف ساكناً فترة طويلة وهو صامت تماماً . . وفجأة ينهي صمته المطبق ، ويبدأ التكبير للصلاة . . ربما كان يريد بهذه الطريقة أن يعثر على نفسه ، وأن يتأمل ، وأن يغلق باب الشر بوجه الأشرار . .

أحببته وأردت أن أفتح له باباً للخير شبيهاً لما موجود ويحدث لجسم الإنسان . . فكل ميكروب يصيبه ستكون له جولة شريرة ، ثم تبلعه الخلايا السليمة ، ويكون ديدنه الخراب ونهايته الزوال . وهذا النوع من الميكانزم الطبيعي للأجسام ، هو العلاج الناجع للمرض ، دون الحاجة في كثير من الأحيان لمذاقات الأدوية المتطرفة ، التي تترك في طريقها الآثار الجانبية . . وهي الآثار الشبيهة لما يحدث للمجتمعات التي يكون فيها الحب هو الجثة في حرب الأجسام مع الميكروبات .

سيوف الكراهية ، وأن أجرب إقناعهم بأن لا يذكى الانتقام . . وعندما رأيت صخراً أردت مداواته بنبات أرضه . . بدينه وإيمانه . . صحيح أن صخراً كان يعرف بإني أعالجه من التأتأة ، ولكن ما لا يعرفه هو أن فترة بقائه في الخطف امتدت أكثر مما هو مقرر من أجل هذه التجربة . . كنت وجدت فيه ضالتي بعد أن جئت إلى هنا لأكون طبيباً فقط ، دون أن أشارك في أي شيء آخر . . معاذ كان يعرف هذا جيداً منذ البداية . . وتَقبّله بقناعة تامة ، بل دافع عني ، وقبل أن يكون بينهم صديقه القديم ، الذي بالرغم من كونه مسلماً ، لا يؤمن بما يؤمنون ، . . لم أخبر صخراً بأي شيء من المعلومات عن معاذ ، ولكني أخبرته كل شيء عن نفسي . .

أنا ضعيف القلب ، وأضعف من جهة الجسم والطاقة . . ولي شغف بالفرح والكتب ، وبأن يكون ديني هو فرحي ، وأن لا يتعارض مع عقلي ، ولا قلبي المعلق بين أصابع الرحمن ، استوحيت من القرآن فلسفتي . . ومن سورة فصلت قوله تعالى «ادفع بالتي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم» . أي سحر هذا للخلق العظيم الذي لا يتأتى إلا لصاحب الحظ العظيم ، فيجعل حتى العدو ولياً حميماً . . ويعالج عداوته بالإحسان ، لا بالعضلات وسطوة الانتقام؟ . .

شاءت العناية الإلهية أن تنقذ صخر من القتل في آخر

لحظة عندما اكتشف معاذ أن هذا الشاب المخطوف ليس باهراً ، وإنما هو شخص آخر جاء بالغلط . كنت الوحيد الذي يعرف بقصة باهر هنا وما فعله مع حنين ، ومعاذ أخبرني أنه يستحق القتل ، وهكذا هو معاذ يظن أن الحق للسيف ، لا لشهادة الشهود وحكم المحاكم . جاؤوا بصخر إلى غرفتي فعثرت فيه على ضالتي . . شاب صامت مسالم يحاول ترميم نفسه أو العثور عليها ، وهذه الغرفة الخالية هي المكان الذي سمح له بذلك ، كأنه شعر بحاجته الماسة للفراغ ، فودع العالم الخارجي ، وواجه ذاته . . استغربت أنه بدأ يصلي الأوقات الخمسة ، وكان قبل أن يقول الله أكبر يقف ساكناً فترة طويلة وهو صامت تماماً . . وفجأة ينهي صمته المطبق ، ويبدأ التكبير للصلاة . . ربما كان يريد بهذه الطريقة أن يعثر على نفسه ، وأن يتأمل ، وأن يغلق باب الشر بوجه الأشرار . .

أحببته وأردت أن أفتح له باباً للخير شبيهاً لما موجود ويحدث لجسم الإنسان . . فكل ميكروب يصيبه ستكون له جولة شريرة ، ثم تبلعه الخلايا السليمة ، ويكون ديدنه الخراب ونهايته الزوال . وهذا النوع من الميكانزم الطبيعي للأجسام ، هو العلاج الناجع للمرض ، دون الحاجة في كثير من الأحيان لمذاقات الأدوية المتطرفة ، التي تترك في طريقها الآثار الجانبية . . وهي الآثار الشبيهة لما يحدث للمجتمعات التي يكون فيها الحب هو الجثة في حرب الأجسام مع الميكروبات .

معاذ العراقي كان يقول لي : وهل ينفع الدفع بالتي هي أحسن مع جورج دبليو بوش ومن لف لفه ، أو جاء معه؟

كان معاذ صديقي في الثانوية ، وأنهينا دراستنا الجامعية في حلب ، أنا في الطب ، وهو في الهندسة . وقد افترقنا بعد التخرج ، وذهب معاذ إلى العراق ، ثم اعتقل بسبب الشبهة في قتله لمترجم يعمل مع الأمريكان . . استطاع معاذ الهرب من السجن ، وأنا بدأت العمل كطبيب في مستشفى بحلب ، المدينة التي اختفى فيها الوالد إلى الأبد . وعندما بدأت مظاهرات السوريين في شوارع مدينة درعا جنوب سوريا ، شاركت في الاحتجاجات ضد نظام الأسد منذ اليوم الأول ، وقفت إلى جانب الثورة منذ بدايتها ، ومن صميم قلبي تمنيت الحرية للشعب السوري . أدركت لاحقا أن عشرات رجال الأمن كانوا يندسون بين المتظاهرين ، ويهتفون مثل المتظاهرين ، لكن عملهم كان جمع الأسماء وأخذ الصور . بدأت أغطي وجهي وأخفي سيارتي . شاهدت قناصي الحكومة يطلقون النار على المتظاهرين ، والجثث تلقى أمام أبواب الثكنات ، وألقت قوات الأمن القبض على أقرب أصدقائي ، ثم قتلوه ورموا جثته في الشارع . . راهن الأسد على عامل الوقت ، ونجح في ذلك ، فحلّ التطرف بدل التظاهر ، والعنف بدل السلام ، واختلط الحابل بالنابل ، وبات المتظاهرون السلميون ، يتوارون عن الأنظار وينسحبون بينما أشكال المتطرفين يسيطرون على ساحة

المعارضة ، لم يعد هناك متظاهرون ، وإنما ميليشات وجماعات وتنظيمات إسلامية . . استيقظ الناس بين ليلة وضحاها ليجدوها قد انتشرت مثل انتشار النار في الهشيم .

أتيت إلى هنا بإرادتي كطبيب يساعد هؤلاء المتمردين والمجاهدين في مجال التطبيب فقط . . أردت أن أختبر فكرتي وفلسفتي عن الدين ، وأن أجعل فكرتي موضع التطبيق في ميدانها الحقيقي . . وعندما رأيت صخراً وسمعته يتكلم أردت أن أعالجه مما هو فيه ، دون أن أخبره بأنه باق هنا لهذا السبب فقط . . لمعالجته من التأتاة . . لو أخبرته لما طاب أو شفي منها أبداً . . وهذا ما أظن أن يكون عليه علاج النفس الحقيقي ، وكذلك ما يجب أن يكون عليه علاج العقل والروح . . كلمات بدون صراخ أو استعراض في فاترينة . . وبدون إملاءات وخوف من نتيجة الامتحان كما هو الحال في نهاية العام المدرسي . . وبهذه الطريقة أيضاً تعاملت مع معاذ وجماعته . . انتميت لهم ، لأني أردت الإصلاح في هذا المكان . . أمثال معاذ موجودون بيننا بالملايين ، ولا يمكن أن نضع رؤوسنا بالتراب لكي لا نراهم . . فعلاً هم يتمشون بيننا في الشوارع ، ويجب أن نراهم ونتحدث إليهم ، ونعرف ماذا يريدون بالضبط ، قبل أن يتحولوا إلى أبطال بنظر المراهقين والشباب . ناقشتهم كثيرا ، وتكلمت كثيراً مع كل واحد منهم فأسموني بالبطران . . وعندما جاء صخر إلى هنا قلت لنفسي جاء أوان تطبيق جديد للتجربة . .

هذا شخص مخطوف بالخطأ . . ظنوه الشخص المطلوب دمه لمعاذ . . ظنوه باهراً الذي أخبرني معاذ بحقارته ، وبأنه قد أخذ قريبته حنين لشقة فارغة كان يسكنها في كرادة مريم قرب المستشفى العربي للولادة . . ذهبوا للعمارة التي فيها تلك الشقة ، وبدلاً من أن يصعدوا إلى باهر في الطابق الثالث ، قصدوا الطابق الثاني وجاؤوا بصخر صديق إحسان . . ولم يكن الخطأ بسبب تشابه في الاسماء ، ولكن تشابه في العنوان . . أدركوا أنه ليس الشخص المطلوب أول ما وصل ، قالوا أمامه إنه تشابه في الأسماء دون أن يشرحوا أكثر من ذلك . . ثم جاؤوا به إلى غرفتي ، وتأخر إطلاق سراحه لحين العثور على باهر . وعندما سمعته يتأتئ في الكلام ، قلت لهم اتركوه معي لفترة إضافية من الوقت قبل أن تعيدوه إلى أهله ، كان ذلك قاسياً ، ولكني بدأت أفكر بالنتيجة . . فكرت طويلاً كيف يمكن لصخر أن يكون علاجه على يدي . . ستكون النتيجة عظيمة إذا ما تحققت . . ولكن المشكلة أن هذه النتيجة لن تتحقق إذا ما أخبرت صخراً بأنه باق هنا معي لأجل هذه التجربة ، وإذا ما شعر بأنه ممتَحن بها طوال الوقت ، وعليه أن ينجح في هذا الامتحان . . لهذا هو كان في البداية لا يعرف لماذا استبقوه بعد أن أدركوا أن خطفه جاء عن طريق الخطأ ، كما ظل لا يعرف أن باهراً ، الذي يسكن مؤقتاً الشقة العلوية في عمارته ، كان هو المقصود بالخطف ، وأنه اختفى طيلة الفترة التي بقي فيها صخر

معنا ، وكأنه ، كأي مذنب ، استشعر الخطر ، وغاب عن الكلية ثم عن الشقة والعالم . .

معاذ لم يكن عاشقاً لحنين كما ظن صخر ، ولكنه قريبها الذي علم بهذا الأستاذ الحقير الذي عمل ما في وسعه للتغرير بطالبة من عمر ابنته ، فأراد الانتقام منه بقانونه ، وعلى طريقته . . وهذا ما تحقق في النهاية عندما عاد باهر يتردد على تلك الشقة الفارغة ، فصححوا الخطأ السابق وخطفوه مع سيارته البيجو التي رآها صخر في هذا المكان . . خلال ذلك كان صخر يقيم معي في الغرفة ، ومعاذ يتابع تجربتي في علاجه وينتظر نتيجتها . معاذ كان يحبني كأخ صغير مدلل ، ويثق بمهاراتي الطبية ، وأنا لم أتحدَّه في شيء . . والقانون نفسه الذي سيجعل صخر يتعافى يجب أن أطبقه مع معاذ ، أيَ أن لا أعتبر التجربة رهاناً أو تحدياً للربح والخسارة . . بل أن أجعل معاذ يراقب بهدوء ، وبالتالي يتحرك الجانب الطيب فيه ، وأجعله يحب التجربة ، وينتظر ويرى كيف يمكن أن يحصل التغيير بطريقة أخرى غير الجبر والقوة والتلقين .

أرادوا الإفراج عن صخر بعد أيام ، ولكني طلبت منهم أن لا يفعلوا ذلك لأني وجدته يتأتئ في الكلام . . قلت لنفسي سأحقق معجزتي في صخر . . سأطبق عليه شيئاً مختلفاً تماماً . .

- أي الأغاني تحبها يا صخر؟

- الأغاني الأجنبية فقط .
- هل هذا يجعلك مختلفاً عن باقي الشباب؟
- أحياناً .
- أنا أيضاً أختلف عنك ، وأحب سماع فيروز وأم كلثوم فهل يحق لي قتلك؟
- كلا طبعاً .
- فكيف إذن إذا كان الذوق واحد؟
- ماذا تقصد؟
- هل تعلم أن جميع إذاعات الأطراف المتحاربة في لبنان كانت تبث أغاني فيروز كل صباح . فهل هناك غباء أكثر من هذا؟
- أظن في هذه الحالة أن فيروز هي سبب الغباء .

ضحكنا معاً . . وضحك معنا معاذ الذي تعمدت أن يدور هذا الحديث أمامه عندما جاء لغرفتي لقياس الضغط . يده ممدودة أمامي وقميصه مرفوع حتى الكتف . . ولم يرد على كلامنا أو يعلق بشيء . . كان يظن أن ذلك الكلام هو جزء من تجربتي مع صخر فقط . . . . . وإن صخراً هو المقصود به ، بينما في الحقيقة كان معاذ هو أيضاً جزء من التجربة .

كنت أدرك أن ما أفعله قد يكون مضحكاً في عالم يسوده الظلم وتحكمه الفوضى ، ولكني لم أصب بالإحباط حتى بعد ان فشلت تجاربي مع الكثيرين ممن مروا هنا ، وقد جاؤوا من

الغـرب ، وهم يعـانون من أزمـة هوية ، أو من عنصـرية الغـرب الذي أصبح منافقاً حسب اعتقادهم . انتقل الصراع القائم في الشرق الأوسط إلى قلب القارة الأوربية ، وأصبح صراعنا هنا يثمر هناك عن شباب متطرفين من أصول عربية كأحمد الدغاركي الذي يبلغ من السنّ الخامسة والعشرين ، والذي روى كيف طرق التغيير باب حياته ، وأصبح يتعرض لمضايقات من رفاقه في المدرسة تتعلّق بأقوال عن رجم النساء في الإسلام وعقوبات الجلْد وغيرها ، وفي تلك السن المبكرة ، كان حادّ الطباع ولا يجيد النقاش بطريقة صحيحة ، حتى شكاه مدير المدرسة الى الشرطة التي أخبرته أنّ أصدقاءه خائفون منه بسبب سلوكه المتطرّف . شعر أحمد حينها أنّ المجتمع الذي يعيش فيه عنصريّ ، وكانوا يسمّونه إرهابيّاً . وعندما عبّر عن ذلك إلى أصدقائه المسلمين ، اتفقوا جميعاً على قضيّة نفاق المجتمع الغربي في ما يتعلّق بالإسلام ، فانكبّوا على مشاهدة العديد من أفلام الجهاديين ، حتى جاء احدهم أخيراً وأقنعه بالذهاب إلى باكستان . . . استدعاه رجال الشرطة للتحقيق ثانية وحولوه الى مركز يهدف إلى منع الشبان المسلمين من الانضمام الى التنظيمات الإرهابية . . هناك في ذلك المركز ، التقى أحمد تلميذاً آخر هو محمود البلجيكي الذي نجح في اقناعه بأنّه ذاهب الى مكان خطير سيؤذيه هو فقط في نهاية المطاف . بدا واضحاً من سياق الحديث أنّه لولا ذلك اللقاء مع

محمود البلجيكي لكان أحمد قد صار في باكستان وربما في العراق أو سوريا .

كل هذا الكلام الذي قرأته عن أحمد الدانماركي على موقع البي بي سي جميل ، ولكني شعرت بأنه لا يلامس سوى قشرة المشكلة . . والمشكلة هي أنهم يرسلون قواتهم للحرب في العراق وأفغانستان ، ويشعلون الحرائق ويخلقون الفتن والتطرف هناك ، ثم يلقون القبض على المجاهدين وهم في طريقهم للقتال إلى جانب المتطرّفين ، أو يرسلونهم الى أحد المشاريع ذات الطابع الإصلاحي ، التي أصبح عددها بالعشرات . هناك تحول أحمد الدانماركي إلى قراءة مارتن لوثر كينغ والكتب التاريخية والادبيّة التي يناقشها مع أصحاب القصص المشابهة لقصته . وطبعاً هذا أفضل من رميه وأمثاله في السجون ، ولكن القلق كان يتزايد عن النسبة الأكبر من الشبان والشابات الذين يرمون بأنفسهم طوعاً في أتون الحروب بحثاً عن بطولة أو ثأر لاعتقادهم أنهم يؤدون واجباً دينياً .

كنت أتساءل هل حقاً هنالك أمل لعلاج المشكلة بدون علاج أسباب المشكلة؟ . . لا يوجد شيء بالدنيا بدون سبب . الذي يأكل كثيراً معناها أنه إما محروم أو جوعان ، والذي لا يأكل معناها أنه أما مقهور أو شبعان ، والذي يكون طيباً معناها أنه قد تلقى الطيب في حياته ، والذي يكون شريراً معناها أنه تلقى اللطمات في حياته ، والذي يحيا مع اليأس معناها أنه لم

تعطه الحياة الدور الذي يستحقه . والحل يبدأ من وضع اليد على السبب لا على النتيجة . . وإذا كانت هذه الأسباب غير معروفة للغرب الذي لا يفهمنا ، بل لا يريد معرفة تلك الاسباب ، فقد يكون الأمر شبيهاً بالالتهاب الذي يحدث في أعقاب تلوث الأنسجة بجسم غريب ، فيقوم الجسم بتوظيف الخلايا والجسيمات المناعية ، وإرسالها إلى مكان الاصابة لكي تحارب هذه الأجسام الغريبة فيحدث الالتهاب الذي يعزز النظام المناعي ، ولكن الجسم إذا ما بالغ في مقاومة الميكروب سيتليف مكان الالتهاب ويتحول الى ندبة .

– فما رأيك يا صخر في أن نضع كل شيء تحت المجهر ، وننظر له من قريب لنعرف أسبابه؟

– أنا أتلعثم في الكلام منذ صغري . . عدنا إلى بغداد ، وأردت ذات يوم الخروج الى الحديقة فانقفل الباب عليّ ، وشعرت بالفزع . . عندما عاد أبي وبّخني بدون سبب . . وعندما عادت أمي تحدثت معي فتلعثمت وتخربط كلامي . . لم تخرج الكلمات بعدها بشكل طبيعي . . شيء غريب فعلاً أن بدأت هذه العلة بهذا السبب البسيط ثم بقيت بعد ذلك .

– هل كنت تتعافى منها أحياناً؟

– نعم .

– متى؟

– عندما أكون مع سجا . لأني أشعر بأنها لا تراقبني وأنا أتحدث .

– لندع المأساة جانباً ونبدأ الحكاية بدون دراما ، لأنه لا توجد هنا سيارات إسعاف . . . ها .ها . ها . . ما هو أكثر يوم تتذكره في بغداد؟

– عندما ذهبتْ سجا للمستشفى ، وعلمتُ من إحسان فيما بعد أنها لم تصب في حادث ، ولكن قتلت بسبب الجندي الأمريكي الذي اغتصبها .

– من الواضح أننا سنحتاج إلى سيارة اسعاف مع الطبيب المناوب .

ضحك صخر بأسى . . وضحكت معه ثم سألته :

– وما هو أكثر يوم تتذكره في دولش؟

– إممم . . المفروض أنه يوم وندي التي صفعتها في القطار . . ولكن هناك أيضاً يوم أمي .

– حدثني عن يوم أمك؟

– عدت ذات يوم إلى البيت ، فوجدته مقلوباً رأساً عِلى عقب . . البيت كان عبارة عن أكياس فارغة تملأ غرف النوم والمطبخ . . أفرغتْ أمي كل خزانات البيت من الأكياس التي تستعمل للتسوق ، ووضعتها خارج خزاناتها وراحت تبحث بينها عن كيس معين؟

– عن أي كيس كانت تبحث؟

– أعلن متجر معروف عن جائزة كبيرة لمن يحتفظ بكيس من أكياس المتجر المصنوع قبل عشرين عاماً ، وكانت الجائزة سيارة حديثة .

– احكِ لي شيئاً آخر عن أمك؟

صمت صخر ولم يجب . . قلت له :

– حسناً احك لي شيئاً عن وندي؟

كشف لي عن وشم في ذراعيه يحمل اسمها ، فقلت له :

– هل هذا وشم قابل للإزالة .

– يزول فقط بمضي الوقت . كنت مراهقاً ، والمراهقة هي أسوء وقت لوضع الوشم ، لأنك لا تعرف من تكون ، أو من تحب .

– هل كنت تسأل نفسك من أنا؟

– نعم .

– ومن أنت الآن؟

– لا أعرف؟

– ولكنك تصلي .

– أصلي كي أنتمي .

– وترفع الأذان .

– هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعل الجميع يسمعني .

كنت أتحدث مع صخر عندما نادوني من أجل اجتماع . تركته وحده في الغرفة ثم خرجت مسرعاً . . بعد قليل حدث القصف الذي استبق المداهمة ، وتمكنّا من الهرب . . ودعّت

صخراً على عجل وأنا أبكي . شعرت بأن مهمتي معه ناقصة ، وخفت عليه أن لا يجد بعد هذه الغرفة مكاناً آخر يجعله يكمل ما بدأته . . وأنا أيضاً خفت أن لا أجد الطريق ، لأن ما رأيته هنا كان أسوء مما توقعته . . أفكارهم محمية داخل رؤوسهم . . ويجب توخّي الحذر لدى الحديث إليهم . . لا أحد يسمع . . لا أحد يرى . . لا أحد يفهم ما أقول . . . . . قال لي معاذ :

– لا تلمنا لأننا لم نأخذ منك ما تريد ، لأنك أنت أيضاً لم تأخذ منا ما نريد . .

قلت له ، وأنا أضحك بأسى :

– إذن الظاهر الشغلة بدها قسطرة . .

أنا هنا كنت قد بدأت أشعر بالخوف ، أنا هنا كنت تعيساً ، عيونني ليس عيوناً ، ولكن زجاجات . . . . ذات صباح خرج عباس الأسمر إلى حديقته من أجل رشها بالماء ، فتمزقت بطنه . . ورمى خرطوم الماء من يده ، وتبللت ملابسه بالماء الذي تطاير من الخرطوم ، والدم الذي حلق في الهواء . . خشيت أن تتحول عيوني إلى شيء شبيه بعيون القطط مع دجاجة مخطوفة . مع صخر فقط أصبحت أشعر بالراحة والاطمئنان . . فهو الوحيد الذي سمعني هنا ، وخفف من احساسي باليأس وفقدان اليقين . . كنت أكلم الله في سجودي ، وأقول يا ربي هل أنت راض عني ، وعن أشياء كثيرة

عملتها في حياتي؟ هل أنا موجود هنا في المكان الصحيح . . عيني كانت تتساقط منها الدموع وأنا أشكو حيرتي وضعف حيلتي . . وكل هذا التضرع أثناء السجود جعلني أحس أني أكلم الله ، وهو يسمعني ، ويجيب طلبي . جاء صخر إلى هنا . . فوجدت فيه قوتي . . وشعرت بأنه إشارة قدرية أراد الله بها أن ينقذني مما أنا فيه ، ومع مرور الوقت كانت حيرتي تتلاشى ، وسلام نفسي يعود إلى نفسي . . حتى أني كنت أحس لما أتكلم مع صخر بأني لست خائفاً مهموماً . . وأنّ تلعثمي في اليقين ليس له وجود . . جربت أن أجعله يرفع الأذان دون تأتاة ، وجعلت من تلك الخطوة امتحاناً لثباته على اليقين ، فلما نجح في ذلك ، نجحت أنا أيضاً في التغلب على شكوكي . . وعاد إليّ اليقين . . تناظرت حالته مع حالتي فوق خطين متوازيين . . يظن صخر بأني قد أهديته الطريقة التي يتجرأ فيه على الكلام دون خوف ، وما لا يعلمه هذا الشاب النقي المسالم الذي عالجته من التأتاة عند رفع الأذان ، بأنه هو الآخر قد أهداني الطريق الصحيح ، وعالج تلعثمي في الإيمان ، وأنقذني من المتاهة التي كنت فيها . . وها هو يمضي بعيداً عني . لا أعرف أين سيكون بعدي . . ولكني أعرف أين سأكون أنا بعده .

(٣٩)

المكان: بيت إبراهيم

الزمان: الآن

خرج صخر من السجن كئيباً أكثر من أي وقت آخر . . لم يعد يضحك أبداً . . وكل ما يفعله هو التوضؤ والاغتسال والتهيؤ للذهاب إلى الجامع قبل كل صلاة . أخذه الخاطفون عندما كنت في بريطانيا ، وكان هو على أبواب الامتحانات للدور الثاني في الأكاديمية . . وعندما عدت من السفر رحت أبحث عنه بين السجون والعصابات والعلاّسة دون جدوى . . أنا نفسي كدت أنْ أُختطف عندما ذهبت مع عصمان إلى المحمودية . التقينا هناك بشيوخ عشائر وعدونا بأن يحاولوا التوصل إلى مكان صخر . . عدنا إلى بغداد ، وقد شارف الوقت على الغروب ، فقطع علينا الطريق مجموعة من الملثمين ، وأجبرونا على التوقف ثم أنزلونا من السيارة ، أخذوني وتركوا عصمان في الشارع وكان السبب في تركه ، كما بدا ، أن مقاعد السيارة لا تكفي أكثر من ثلاثة ، فتركوا عصمان لوحده لا يعرف إلى أين يتوجه . أخبرني عصمان فيما بعد أنه عندما خيم الليل اقتربت سيارة مدنية منه وسأله صاحبها عن سبب

وجوده في هذا الوقت وفي هذا المكان بالتحديد ، وعندما أخبره بما حدث لنا أمره بالصعود في سيارته وهو يشتم ويسب الأوضاع التي آل إليها العراق . أخذه في ظلام الليل الحالك إلى دار واسعة وسط أرض زراعية ، وبعد أن أدخله غرفة الضيافة أشعل المدفأة ثم غاب وعاد بالطعام . . راح يسأله عن الأشخاص الذين تعرضوا لنا وعن الاتجاه الذي توجهوا اليه ، بعد ذلك نادى على أحد الأشخاص وطلب منه أن يجلس مع عصمان ريثما يعود .

جاء هذا الرجل إلى البيت الذي احتجزوني فيه وسمعته يتحدث معهم بسطوة وغضب شديدين ، ويبدو أنه كان مهاباً من أهل المنطقة ، واستطاع ان يفرض بالقوة مطلبه عليهم في إطلاق سراحي وإعادة السيارة . اصطحبني معه إلى سيارتي فتبين لي أنه من العسكريين ، وكان يشعر بغضب عندما يسمع عن القتل والسلب في منطقته ، ولديه معرفة بالأشخاص المتورطين ، لذلك عندما حدثه عصمان بما حدث لنا راح يتتبعهم إلى أن وجدهم . استطاع تخليصي في الصباح الباكر ورافقني إلى نقطة آمنة من أجل تامين عودتي إلى بغداد . رويت له حكاية صخر ورجوته أن يتقصّى أمره أيضاً ، فوعدني بذلك وأوفى بوعده ، إذ اتصل بي بعد أيام ليخبرني بأن صخر غير موجود في منطقته ، وأن عليّ البحث في مناطق أخرى .

بقينا نبحث في مناطق أخرى محيطة ببغداد ، إلى أن

هداني عصمان إلى فكرة البحث عنه في السجون . . بقينا نتنقل من شخص الى شخص آخر دون أن نصل إلى نتيجة أكيدة ، حتى استطعنا في النهاية الوصول الى المكان الذي يوجد فيه صخر عن طريق أمي . . ذهبنا معاً لابن صديقتها وجارنا القديم جمال . لم يكن الوصول إليه أمراً سهلاً ، لأني لم التقه منذ زمن طويل . . ولكني اهتديت له عن طريق قريب له ، فلما وجدته وأخبرته بحكاية صخر ، بذل كل جهده لإخراجه من السجن . . أم جمال كانت صديقة أمي حبيبة وجارتنا في الكاظمية ، وهو أيضاً كان شيوعياً فترة من الوقت ، ولكنه الآن عضو في البرلمان ضمن حزب آخر . . عائلته هي خليط عجيب من الأيديولوجيات . . الأب قومي والأخ شيوعي وجمال انقلب مئة وثمانين درجة من التدين إلى الإلحاد ، ثم عاد وانقلب مئة وثمانين درجة من الإلحاد للتدين . . كان ساذجاً حينئذ وساذجاً الآن . . عجينة يتم تشكيلها وفق آراء الإخوة والأصدقاء والوضع العام للبلاد . ذهبت إليه ورويت له قصة اختفاء صخر لنحو عام كامل ، وعن طريقه توصلنا إلى مكان صخر ، وهو الذي تمكن من إخراجه من السجن . .

ظل عازفاً عن الكلام لا يريد أن يخبرني لماذا خطفوه بالأساس دون أن يطالبوا بالفدية . . . إنه مصمم مواقع يجيد اللغتين العربية والإنكليزية اجادة تامة ، وهذا عمله الذي يكسب منه عيشه حتى وهو طالب في الكلية ، فهل لهذا

السبب تم خطفه واحتجازه أكثر من شهرين قبل أن تأخذه الشرطة للسجن . . ظل صامتاً لا يعرف بأني قد علمت جزءاً من الحقيقة من جمال عضو البرلمان . . هو الذي روى لي الحكاية وأخبرني بأسماء الذين حررتهم الشرطة من تلك المنطقة النائية . . قال لي إن صخراً كان مخطوفاً في الصحراء حتى وقعت المداهمة ثم أخذوه مع المشتبهين إلى السجن وأطلقوا سراح الباقين . . كان اسم باهر من بين الذين أطلق سراحهم بعد المداهمة .

باهر؟ باهر كان مختطفاً هناك مع صخر؟ . . أكيد صخر يعرف هذه القصة وقد رآه هناك . . انتظرت أن يخبرني بها ولكنه لم يفعل . . حاولت العثور على باهر للوصول إلى خيط مشترك . . لم أعثر عليه . . ولكن الخيط كان في بالي دائماً وهو حنين . . حنين هي الشيء المشترك الوحيد بين صخر وباهر . . فهل كان له يد في خطف صخر . . إنه حقير ، ويفعل كل شيء حقير ، ولكنْ أُطلق سراحه وتبخر بعد ذلك ، وصخر هو الذي أخذوه إلى السجن ظناً منهم أنه ارهابي . . فكيف يكون ارهابياً وأمه اسمها صوفي ووالده إبراهيم الذي رفض أن يشتري له الرشاشة وهو صغير . قالت لي أمي حبيبة :

– أنت تخاف عليه أكثر من اللازم يا إبراهيم . لا يلعب سوى مع سجا المخبولة ، وليست لديه رشاشة مثل باقي الأطفال .

لم تتعدَّ معيشته في الخطف مع تجربة السجن عاماً واحداً ، شهرين في الخطف مع عشرة أشهر في السجن ، فكيف تكون هذه الأشهر قد غيرته على هذا النحو الرهيب؟ . . كيف يكون إرهابيا وأبوه إبراهيم وأمه اسمها صوفي؟ . . في المطبخ كانت تعرض باستمرار قوارير زجاجية شفافة بأحجام مختلفة ، ومحشوة بطبقات ملونة ومصفوفة من التوابل الطبيعية والأعشاب . . فلكل قارورة رائحة عطرية خاصة ، وكانت أحياناً تضيف هذه الروائح إلى الحطب الخاص بالمدفأة ليعم الإحساس بالراحة في جميع أركان البيت . . .

قضى صخر شهوراً عدة في السجن مع سجناء الجهاد وتنظيم القاعدة . . كنت أسمع من الأخ الأكبر لجمال فيما مضى أن النزلاء يحبون الغناء في السجن . . كل نزيل جديد يستقبله الشيوعيون بأغنية شهيرة تقول سبحان اللي جمعنا بغير ميعاد . . ولكنّ صخراً استقبلوه بسبحان مّن زيّن الرجال باللحى والنساء بالذوائب . . استقبلوه بالتجهم والأفكار التي جاء بعدها عازفاً عن الحياة ، ويتحدث فقط عن الآخرة . . لم يعد يمزح كثيراً ، وأصبح يصرخ غضباً كلما رأى مشهداً فاضحاً في التلفزيون . . أصبح كثير التذمر . . مستعداً للصراخ . . ولكنه لا يمكن أن ينزع الحياة من البشر حتى لو كانت غير جديرة بها ، ولم تنتابه الرغبة قط في إيذاء البشر . . . . فعن اي ساعة يتحدث هذا الرجل الأغن الذي اتصل بي وأبلغني الخبر الرهيب؟ .

لم أكف عن سؤال نفسي : ما الذي جمع صخراً مع باهر في مكان واحد؟ وما هذه المصادفة التي جعلتهما يُختطفان من قبل عصابة واحدة؟ . . لم أجد ما هو مشترك بينهما سوى حنين . . ولما انتظرت أن يخبرني صخر من تلقاء نفسه عن فترة الخطف تلك ، ولم يفعل ، سألته أنا :

– فقط أخبرني ما علاقة باهر بالخطف؟

– خطفوني بدلاً عنه .

– كيف؟

– جاؤوا إلى البيت وبدلاً من أن يصعدوا للطابق العلوي جاؤوا إلى طابقنا؟

– ولماذا أردوا خطفه؟

– لأنه . . . . . .

أجاب صخر على كيف ، ولكنه لم يجب على لماذا . . سأنتظر أياماً أخرى من الصمت ، ثم أعرف منه كل شيء . . ولكنّ شهراً مضى ، وأنا لا أعرف كيف يفكر ، أو ما يحدث له سوى اعتكافه في الجامع ثم اختفائه مرة أخرى . . . العبد في الأرض ، فإذن الله هو على الطرف الآخر . . تفصل بينهما كلمة دعاء واحدة يتنقل بها الناس منهم وإليه دون الحاجة إلى ذلك الرجل الأغن الذي تحدث بالهاتف عن الساعة . .

جمال عضو البرلمان ، هو الذي اتصلت به مباشرة بعد اتصال ذلك الرجل الأغن . . بحثت عن رقم جمال بيدين

مرتجفتين . . اتصلت به عدة مرات قبل أن يرد . . أخبرته بما قاله لي ذلك الرجل ، فنصحني أن لا أصدق مثل هذا الكلام أبداً ، وقال إنه سيتأكد من الأمر بعد قليل ، ولكني لم أنتظر ، وتأكدت بنفسي عندما ذهبت لأبحث في المستشفى . فوجدت ما هو أفظع بكثير . وامتنع جمال مع حمايته من المرور بشارعنا بعد ذلك . .

صوت الرجل ابتعد تماماً ثم اختفى . . . وإبراهيم يستعيده الآن ، ويجعله يتدرج في تذكّره . . لديه طريقة خاصة بتلفظ حرف العين كأنه خارجٌ من كهف سحيق موجود تحت حواجب مشعثة ولحية كثة ، وكاد إبراهيم أن يصبح مجنوناً . . لا يكف عن النظر من العين السحرية للباب إلى السلم ، ومن النافذة إلى الشارع . . . وتتردد في اذنيه دائماً صلصلة انفتاح الباب الرئيسي للعمارة . . لو جاء صخر الآن لما سمح لأحد أن يدفعه لكي يكون شخصاً آخر . وهذا الأمل يخفت مع مرور الأيام ، وأحياناً تهيج الرياح في تشرين الثاني ، فتجعله يفتح الباب في كل مرة ، وهو يتوقع أن يجد شيئاً غير الفراغ ، وأن يخلف الكوابيس وراءه ، لكي يستقبل العالم المعتاد الذي أحبه صخر . . العالم الضاج الصاخب بأصوات الأصدقاء ، وأشعار عصمان ، والسيارات المارقة في كل اتجاه عند باب الكلية ، إلى أن يسمع صوت سيارة الإسعاف يدوي من بعيد ، فيضيع ولا يعثر لذلك كله على أثر .

(٤٠)

المكان: قرب الموبايل

الزمان: أواخر ٢٠١٢

لا أدري ماذا حدث لي . مزيج متناقض من المخاوف والأوهام . في المساء أكاد أجن من دبيب أقدام باهر . . وفي الصباح أبحث عنه بدون جدوى . . أشعر بأن كل ما حدث لصخر كان بسببه هو منذ البداية . . وعندما أسأل عصمان إين هو؟ يقول لي إن الدكتور مصعب هاجر إلى كندا من أربيل ، والشقة فارغة من بعده . .

أريد الصعود إليها ولكني أؤجل ذلك حتى الصباح .

يجب أن أتاكد أولاً من نفسي ، وبأن ما أراه وأسمعه هو حقائق وليست أوهاماً . يجب أن لا أدع صوت باهر يعلو فوق كل شيء ، وأن لا أجعل من نفسي أضحوكة عندما أتصل بمصعب وأؤكد له أن قريبهم المزعج باهراً يسكن الشقة ، وبعد ذلك اكتشف أن ذلك مجرد وهم . ولماذا باهر؟ أنا سمعت أصوات الصعود والنزول والمشي على سقف شقتي ، ولكني لم أره وجهه إلا مرة واحدة في النافذة العلوية ، فلماذا أفترض انه يسكن الشقة؟ ، ولماذا افترض أن ثمة شخصاً هناك بالاساس؟

أنا حتى لم أسأل أحد الجيران عنه ، فلماذا كنت متاكداً كل هذا التأكد؟ . . . أردت أن أنتظر . . أردت اختبار الأصوات من جديد . . لعلي بالغت في سماعها مع صمت البيت وخلوه تماماً من السكان . قبل أن يشرق الصباح سمعت صوت مذياع يأتي من الطابق الأرضي فعرفت أن عصمان قد عاد من صلاة الفجر .

الكابوس نفسه يطاردني ، وتفسيره من اختصاص عصمان ، الذي قلت له إن الوحش يحاصرني في غرفة مغلقة ، فقال لي لماذا لم تخرج من بابها الجانبي؟

– لا يوجد باب جانبي يا عصمان .

– لا حول ولا قوة إلا بالله . إنه القضاء والقدر . . القضاء والقدر .

أقفلت الباب . . وبعد الباب أغلقت الموبايل . كنت غير متأكد من شيء . . . . وكل ما سمعته ورأيته أصبح موضع شك رهيب . . . . وأنا بقيت أنظر إلى الموبايل بعد أن أغلقه الرجل الأغن . . أقول لنفسي لعل كل شيء من حولي هباء . تأخرت في إقفاله ثم فتحته مرة أخرى ، وظل فيْ يدي لحظات ، قبل أن أُجري المكالمة مع جمال وأخبره ما حدث بصوت مرتجف .

عصمان خرج الآن . . وزوجته أيضاً تستعمل بابين للدخول والخروج . . كلما دخلت من الباب الرئيس خرجت من

الباب الجانبي . هي أيضاً تستعمله لاختصار الطريق الى بائع الخضرة . فبيتنا يقع ركناً على شارعين . ومن ذلك الباب تذهب إلى بائع الخضرة القريب من المستشفى العربي للولادة . . لديها موبايل . . اتصلتُ بها وسألتها هل سكن الشقة العلوية أحد ، فقالت إنها لا تعرف ، وإنها خارج البيت ولن تعود حتى مساء غد .

عقلي طين وصوت باهر ما يزال هناك .

(٤١)

المكان: البيت رقم ٥

الزمان: زمان صخر المفقود

بعد سماعها بخروج صخر من السجن استعجلت صوفي بالمجي ، لأن صخراً خرج من السجن ورفض السفر ، فقررتْ أن تأتي هي إلى بغداد . وصلت إلى المنزل ، وجاءت معها بقرص لسوزان بويل التي كانت شهرتها قد طبقت الآفاق . فتحتْ باب الثلاجة فوجدتُها معبّأة بشكل منتظم كما يحبها صخر . .الرف السفلي للخيار والطماطم ، والرف العلوي للأجبان والألبان ، والرف الأوسط للنساتل والحلويات وعلب البيبسي كولا . . احتفظت له بالثلاجة كما هي حتى بعد أن لم يعد يهتم بها . . واقترحت صوفي أن تذهب لمطعم القصر من أجل الشاورما التي يحبها بدر ولم ينسَها قط . .

جلست صوفي خلف مكتب صخر ، وفتحت الدرج الوسطي . . فعلت ما بوسعها وقتئذ لتعيد ترتيب المكتب ، قلبت الأقلام بين يديها ، ومشابك الورق ، ودفتراً قديماً . قالت لا شيء يدمر الروح مثل تصفح دفتر قديم . . اقتربت من الطاولة واكتشفت لأول مرة أسرار صخر . مجموعة من

سماعات متصلة ، وأسلاكٌ تلتفّ على نفسها ، ومواقع مبرمجة مسبقاً . . وكانت جميعها مواقع دينية ومحطات أخبار ، وسماعات كانت تمنع الإزعاج عني سنوات . كنت فقط أمزح معه وأقول : ماذا تفعل أيها الأفندي؟ . . ماذا تسمع أيها الأفندي؟ . . وأهرع للحديث معه فقط عندما تتأخر حاسبتي أحياناً في تنفيذ الأوامر ، أو تجعل الأرقام تضيع مني في لحظة واحدة ،

– ليس العيب في الجهاز يا بابا ، ولكن في مَن لا يعرف أسرار الجهاز؟

– ولكن ملفاتي لم تعد موجودة . .

– لأنك تكره قراءة التعليمات .

– يبدو أننا جميعاً نكره قراءة التعليمات .

أرقام ضاعت إلى الأبد ، لأنني أكره قراءة التعليمات . وأنا أفعل ما بوسعي الآن لكي أؤخر مكالمتي لمصعب الذي يقول عصمان إنه سافر الى كندا من أربيل . . أخاف أن أعرف ماذا حصل ، أخاف أن أعرف بأنهم بالفعل قد هاجروا وبأن باهر ، الذي تركوه لحراسة الشقة ، لم يعد له وجود في الشقة . . أنا أنتظر صعود باهر للدرج مرة أخرى . . أريد أن ألتقيه ، وأعرف لماذا خطفوا صخر بدلاً عنه؟ . . كيف يخطفون المَلَاك بدلاً من الشيطان؟ . . وأين هو الآن؟ . . قد أصعد بنفسي للتأكد . . أفكر وأنا أتتبع خطواته لماذا أسمعه على الدوام دون أن أراه . . كنت

أُكيّف نفسي على الاحتمال بين عام وآخر . . ولكنّ صخراً وحده كان على جانب الطريق . . بعيداً أكثر مما هو قريب ، ولا أعرف ماذا حدث معه بالضبط . . في حياته الكثير من الأشياء التي لا أعرفها . . وأنا فعلاً لا أعرف الكثير . . ولولا أنه لا يزال في بالي عندما استيقظ من النوم لما شعرتُ بالفرح أبداً . . . . ولكنه في النهاية ذهب وتركني بتلك الصورة! . . نعم لقد أنقذته من السجن عن طريق جمال عضو البرلمان . . . ولكني لم أتمكن من أن أنقذه في المرة الثانية . . كنت أنيقاً نظيفاً أقف بانتظاره في البيت ريثما يعود من الجامع ، وهو كان مهشماً مدمراً محطماً . . . تصرفتُ على سجيتي ، ولم أخبر صخراً بوجود أمه مع أخيه التوأم بدر في البيت . . قلت سأدعهما يسمعانه يرفع الأذان أولاً ، وفعلا هذا ما حدث . .

ارتفع أذان الظهر من الجامع القريب بصوته الصادح الذي لا يتلكأ . . فقال بدر : ذس إز إمّيزنك . . وقالت صوفي : أتساءل كيف يحدث هذا؟ صخر لا يتأتئ في الكلام . . وطار الاثنان من الفرح ثم خرجا إلى مطعم القصر من أجل الشاورما التي يحبها بدر . . لم يخطر على بالي ولو في الخيال أنهما سيكونان سوياً بعد قليل . . انتظرت اكتمال المفاجأة بعد عودة صخر من الجامع ، دون أن أكون عارفاً بأن المفاجأة ستكون هناك في المطعم . . وعندما أتذكر وجودهما سوياً ينكمش قلبي على نحو مخيف .

(٤٢)

المكان: بغداد

الزمان: عام ٢٠١٢

جاءت صوفي إلينا عن طريق طائرة يقودها بدر ، وهي تحمل معها رائحة البيت الإنكليزي ، وتضع على رأسها قبعة شبيهة بقبعة أمها إليزابث حاكتها لها أختها سوزان . . قالت : أنا لا أخاف التفجيرات ولا أهاب الخطر . . أريد أن أرى صخراً . . اشتقت إليه واشتاقَ إليه أخوه بدر .

بعد خروج صخر من السجن ظل رافضاً للسفر والذهاب لأمه وأخيه في دولش ، فتهوّرت صوفي بالمجي إلى بغداد في عام أمطار غزيرة ومعها بدر . . احتضنتُه وقبلته وفرحت به جداً ، وستكتمل فرحتنا أخيراً عندما يحضر أخوه صخر الذي لم يكن معنا . كان في الجامع ، كما هو شأنه دوماً ، يبات ويستيقظ فيه . إلى أن خابرني في يوم مجيء أمه صوفي وأخيه بدر ، وقال لي :

– هل أنت بخير؟

– نعم حبيبي أنا بخير . تعال إلى البيت . . هناك مفاجأة بانتظارك .

– ابقَ في البيت ، ولا تخرج منه . . سآتي بعد صلاة الظهر .

كان المفروض أن يرفع صخر أذان الظهر في الجامع ، وهذا ما حدث ذلك اليوم ولكن بتأخير دقيقة واحدة ، لأن اليوم الفائت كان يوم الانقلاب الشتوي ، وفيه يصادف أطول ليل في العام ، ومن بعده يتغير الوقت ، ويصبح النهار أطول من الليل ، وبالرغم من أنه يتأتئ في الكلام ، فإن تلك التأتأة كانت تختفي عندما يؤذن للصلاة . . شيء عجيب جداً ، ولكن هذا ما يحدث معه . ارتفع أذان الظهر بصوته الصادح الذي لا يتلكأ . . فقال بدر ذس إز إميزنك . . وقالت صوفي . . أتساءل كيف يحدث هذا؟ . . أنا في غاية التأثر . . وطار الاثنان من الفرح ، ثم خرجا إلى مطعم القصر الذي كانت تقف قربه سيارة شرطة وهمر أمريكية . . لم يخطر على بالي ولو في الخيال أنهما سيكونان سوياً هناك بعد قليل . . انتظرت اكتمال المفاجأة بعد عودة صخر من الجامع ، دون أن أكون عارفا بأنها ستكون هناك في مطعم القصر . . وكلما أتذكر الآن وجودهما سوية هناك ينكمش قلبي على نحو مخيف .

كيف سارت الأمور بهذه السلاسة على هذا النحو؟ . . كيف خصتني الدنيا بهذه المفاجأة الرهيبة التي لم تخطر لي

على بال؟ . . كـيف نسـجت خـيـوطهـا على هذا النحـو الغريب؟ . . صدق عصمان عندما قال :

– إنْ جادت بخيط العنكبوت تنقاد . . وإنْ عاقت تقطع سلسل الحداد .

(٤٣)

المكان: طائرة بدر

الزمان: كانون الثاني عام ٢٠١٢

إنها مشكلة أن تقود سيارة تجلس فيها أمك ، فكيف إذا كنت تقود طائرة هي فيها ، بالتأكيد أن الأمر مختلف ، وأن أمي لا تفعل الآن ما تفعله مع أبي عندما كانت تدفع قدميها للأمام للضغط لا إرادياً على كابحها الوهمي كلما أسرع في سيره بسيارتنا الكرونا في بغداد؟ سيارات الشرطة تعطي توجيهاتها للسيارت عبر مكبرات الصوت لفتح الطريق ، وعندما تصل إلينا تداعب أبي أحياناً حول سيارته المميزة بشدة نظافتها ، فتقول له :

– أنت أبو الكورونا النظيفة صير على يمين الطريق .

ليست لديّ فكرة عما أصبحت عليه بغداد الآن . . أنا أسمع في الأخبار أنها في حالة سيئة جداً . . ولكني مشتاق لها ولأخي صخر الذي خرج أخيراً من السجن . . انتابتني أحلى المشاعر عندما نظرت إليها من نافذة الطائرة . . خضراء وشاسعة الامتداد حول نهر دجلة الذي يشطرها إلى نصفين . .

اتساعها وخلوها من ناطحات السحاب يجعلها تبدو كأنها مدينة بدائية رمادية اللون ، أو كعوب أقدام بدون أجسام ولا أطراف . . كنت أنظر إليها باحثاً عن السر الذي جعل أخي صخراً يتعلق بها ، هل هي مثله منطوية على نفسها ، ولا تريد أن يراها أحد ، أو يعرف بها أحد ، أو يسمعها أحد؟ لم يعد هناك جواب معقول لأي سؤال في هذه المدينة . . أنا أيضاً جئتها وأنا لا أعرف ماذا ينتظرني ، فقط ابتسم لنفسي ، واستذكر رائحة الشاي في بيت بيبي حبيبة . . أو أبخرة الرز المسلوق المعطر برائحة العنبر . . وأحياناً تطغى رائحة الشواء على باقي الروائح . . إنها ظهيرة الجمعة ، والكباب يحتاج إلى الكثير من الشاي لهضمه ، و أكواب الشاي دارت عندما قرع شحاذ الباب . فكان صخر قد سبقني لفتح الباب . . بدأت الطائرة بالهبوط في مطار بغداد ففاجأت الركاب وطاقم الطائرة بكلمات عربية لم تكن فصيحة الحروف ، ولكنها ألهبت في الطائرة عاصفة من التصفيق . . قلت لهم :

– نهبط الآن في مطار بغداد . . الطقس مشمس ، ودرجة الحرارة خارج الطائرة خمسة وعشرون درجة مئوية ، والساعة الآن بتوقيت بغداد هي التاسعة صباحاً .

دمعت عيني ، وتحشرج صوتي أول أن بدأت بنطق تلك الكلمات ، حتى إني تحاشيت النظر إلى المساعد وهو يقول لي :

– I am impressed

ظل التصفيق مسموعاً بالرغم من أنني قد أغلقت مفتاح المايك ، وخرجت من كابينة القيادة متأخراً . . لا أريد لأمي أن تراني مرة أخرى . . لم أشأ أن أمنحها من جديد فرصة التفاخر بي أمام جمع كبير من الركاب المغادرين . . طوال الرحلة وأنا أتحاشى الخروج للسلام عليها ، ولكن المضيفة جاءتني متهللةالوجه ومنفعلة إلى حد الانهيار لتقول لي : أمك موجودة أون بورد ، وتريد السلام عليك . . ترددت في النهوض . . لم أجد نفسي متحمساً لأن تبالغ في فخرها بي كعادتها ، وأن تقول لجارتها في المقعد بفرح شديد : هذا هو ابني بدر الذي يقود الطائرة . . . . . غير أن ما حدث كان أمرَّ وأدهى . . نهضتُ من مكاني بعد أن اضطرني طلب المضيفة المنفعل للذهاب إليها . . قالت لجارتها في المقعد : انظري إليه كم هو وسيم وأنيق . . إنه ابني بدر قائد هذه الطائرة . . هي تتحدث وأنا أشعر بأني أتلقّى عقوبة بدل الثناء . . أشعر بالخوف من أن يسمع كلماتها أحد فيلتفت إلينا جميع الركاب ويكتمل فخرها العظيم . لولا أنني أشعرتها بأني مستعجل لاسترسلت في كلامها وانفعالاتها . . ولكنّ استعجالي لم يمنعها من إخراج ورقة من حقيبتها لتريها لتلك الراكبة التي تجلس قربها . . انعصر قلبي بقوة وشعرت بالحرج من فخرها الجديد بتلك الورقة التي كتبتها هذا الصباح . . ورقة كنت قد تركتها على سريري بعد أن خرجت الفجر مستعجلاً للحاق بسيارة الشركة

التي تقلنا للمطار . . كتبت لها فيها : آسف ماما ، لم أستطع ترتيب السرير . .

«آآآآآآآآه . . . أو دير . . أو دير . .» ذلك كان جواب المرأة السمينة التي راحت تزفر كميات كبيرة من الهواء . . . الهواء امتلأ بالآهات . . فشكرتُها وابتسمت ابتسامة محرجة لها ولأمي . . قلت في سري : «يا أمي أتمنى أن لا تُخرجي هذه الورقة مرة أخرى أمام صخر وأبي في بغداد ، وإلا تكون فعلتك هذه جريمة مع سبق الإصرار والترصد .»

غادرتُ بغداد قبل سبع سنوات طالباً في الثانوية وأعود إليها الآن طياراً في شركة خطوط أجنبية . . شعرت بانفعالات شتى من شدة شوقي إلى أخي صخر الذي أحبه كثيراً . . من النادر أن ينفصل توأم عن بعضهما البعض في سن الطفولة أو المراهقة ، ولكن هذا ما حدث بسبب إصرار صخر على الرجوع من بريطانيا . . لم أساله يوماً عن السبب الحقيقي . . خفت أن يحرجه ذلك أو يحرجني . . إلا أنه أصر على ذلك بطريقة عجيبة ، وبقينا في قلق قاتل عليه طيلة تلك الفترة التي كان يقضيها في بغداد بين زيارات الصيف السنوية كل عام . . وها قد مضى أكثر من عام منذ أن عاد أبي وحده إلى دولش بعد أن اتصل به عصمان .

كان صخر قد اختُطف ، ثم اعتُقل في سجن سري . . هذا كله حدث لصخر الخجول الذي يتلعثم في الكلام . شعرت

بالذنب الشديد لأني في أمان وهو من وضع سيّئ إلى آخر . . . أردت العودة ، وكذلك أمي كانت تريد العودة ، ولكن أبي لم يوافق ، لأن الوضع خطير جداً في بغداد ، وعودتنا ستضيف له قلقاً جديداً يعرقل رحلة بحثه عن صخر .

عندما كنّا في الخامسة من العمر أخذتنا أمي إلى حديقة عامة . . . تأخرنا حتى الظلام . . وأصبحت الحديقة خالية تقريباً من الناس . . فجأة سمعنا صفارة الإنذار تنطلق بشكل مفاجئ . . تقول أمي لم تكن هناك حرب في تلك الأيام ، ومع ذلك بدأنا نسمع صوت انفجارات وطائرات تظهر في السماء . . استعجلتنا الخروج من المنتزه ، وبدأت تركض وتجرّنا معها ، ولكنّ صخراً توقف وهو ينظر إلى الأرض . . . . وجدناه يبكي في الحديقة العامة ، وينظر إلى جهة محددة مثل شخص أعمى . . عيناه جامدتان وهو يقول look look look ، وكرر كلمة (انظري) أكثر من مرة بين العربية والإنكليزية دون أن يكمل الجملة . .

أنا لا اتذكر ذلك اليوم جيداً ، ولكن أمي تتذكره . . متى كان ذلك؟ قالت كان في شهر حزيران من العام ١٩٩٣ ، وإنها في تلك اللحظة رأت كفاً مقطوعة ومدماة على الأرض . . تلك الكف التي رآها صخر يبدو أنها قد حطت في الحديقة بعد انتهاء الغارة التي قامت بها الطائرات الأمريكية . . البعض قال إنها قصفت دائرة من دوائر المخابرات قرب جسر الخير ، والبعض

الآخر قال إنها استهدفت رسامة مشهورة ، رسمت صورة جورج بوش الأب على أرضية فندق الرشيد ، بصاروخ أودى بحياتها هي و زوجها . لاحظت أمي منذ ذلك اليوم طريقته الغريبة في الكلام . . وكانت قلقة جداً .

تشوش ذهني في العودة إلى البداية . . لأني سمعت صخراً أخي يتأتئ في الكلام أول مرة عندما عدنا من درس اللغة العربية فوجدناه مصاباً بنوبة فزع بسبب الباب التي لم تنفتح . . وبدأت أمي تركض به لمختلف الخبراء والمختصين بتصحيح النطق . . . وقال واحد منهم إن الطفل عصبي . . وكانت تزيد تلك التأتأة حينما تكون والدتي معه ، فأصبح في سن الثامنة طفلاً حساساً للغاية ، ولا يحب أن تعانقه أمه . في تلك الأثناء كنا في بغداد . . لا ننفصل عن بعضنا تقريباً ، حتى أيام الامتحانات . . وكان هناك توأم آخر سوانا في الصف لديهما خطة سرية بأن يتبادلا الأدوار عندما ينادَى على اسميهما في الامتحانات الشفوية . ويشعران بالإثارة لخداع المعلمين ، أما أنا وصخر فلم نكن نتمكن من فعل ذلك أبداً لأننا كنا متطابقين في الشكل مختلفين في لون البشرة . هو أسمر وأنا أشقر . . كأنني كنت نسخة منه بالألوان ، أو كأنه نسخة مني موضوعة تحت ضوء خافت . .

لم يتعلق صخر بي كثيراً ، ولكني كنت أعرف كم يحبني ، وإنْ كان كثير التعلق بأناس غرباء من المساكين أو

الضعفاء . الآن أستطيع أن أعرف لماذا تعلّق بسجا مثلاً . . إنه ليس مادة للتركيز أو المراقبة أمامها . . ومثلما لا يمكن لها أن تخصه بالانتباه الواعي الذي يضيق به كل الضيق ، فقد كانت تمنحه بعض الإحساس بالتفوق الذي يفتقده معي ومع الآخرين . . وكذلك الأمر مع عمو عصمان الذي كان درويشاً يعالجه بالرقية . . لم يكن صخر يشعر معه بأنه أمام منظار أو مرصاد كبير ، أو أمام مجهر يفحصه ويكشف عاهته . . ولهذا كان يكره الأطباء الذين رصدوه ، وحققوا معه طويلاً في بريطانيا ، فهم لم يفهموا أن ذلك الاختفاء والتواري عن الأنظار هو ما كان صخر بأمس الحاجة إليه . . وبعض تلك المشاعر والحلول البسيطة كانت تجعل صخراً يتعافى قليلاً من مشكلة مرضه العصبي الذي اختفى بعد الطفولة ، ولكن التأتأة لم تختفِ نهائيا وإن كانت قد تحسنت كثيراً . . .

قضينا فترة الحرب وما بعدها بعامين في بغداد ، ولكن في العام ألفين وخمسة ساء الوضع كثيراً ، فقررنا العودة إلى دولش والاستقرار نهائياً هناك . وهناك لم يستطع صخر إكمال السنة الدراسية للصف العاشر إلا بشق الأنفس ، لأنه كان يريد العودة ثانية إلى بغداد ، وأتذكر حينما كنا سوياً في مدرستنا الثانوية بدولش كان عليه مرةً أن يكتب قصة من الخيال العلمي ضمن درس التعبير ، فكتب قصة عن رائدَي فضاء أسماهما عصام وفارس انقطع اتصالهما فجأة مع الأرض ،

فشعرا بخوف شديد من وحشة الفضاء الذي يلف المركبة ، وقسوته واشتداد ظلامه . أغلق عصام مفتاح الاتصال عاجزاً تماماً عن إيجاد ما يُبرر هذا الصمت الغريب الذي يواجه محاولاته المتكررة للاتصال مع الأرض .

قال مساعده الرائد فارس :

- هل تظن أن هناك خللاً في الأجهزة؟

أجابه الرائد عصام :

- إن الأوتماتيك يعمل على نحو جيد ، ولا أعرف أين الخلل؟

ثم عاد يفكّر مع نفسه بأن الاتصال الأرضي قد انقطع منذ يومين ، وساعة بعد ساعة يتلاشى الأمل في التقاطه . . وحتى الأمل في التقاط قمر صناعي قريب أخذ يتلاشى ، وأصبح واضحاً لهما من الرقم الظاهر على مؤشر المسافة أن المركبة قد ابتعدت كثيراً جداً عن مسارها الأصلي إلى القمر ، وعن مجال أية نقطة فضائية قريبة . . لقد أصبحا في وحشة الظلام والمجهول .

معلمتنا قاطعت أخي صخراً قبل أن يكمل قصته ، وقالت له : هل تعتقد يا صخر أنه يمكن لرائدي فضاء أن يحملا اسمين عربيين؟

كانت القصة ستكون جميلة لو أكملها صخر . . قرأها لي في الليلة السابقة وقلت له بأني منبهر بها . . ولكن المسز

روبنسون قاطعته بملاحظتها القوية ، والتي وجدها الطلاب ملاحظة وجيهة ، وأدّت إلى همهمة تسري بينهم ، جعلت تلك الهمهمة صخراً يتوقف عن الكلام . . أصبح مؤكداً لديّ أن مشكلته في الكلام قد عادت إليه من ذلك اليوم . . وأن ملاحظة المعلمة أعادت له إحساسه الرهيب بأنه غير أهل لشيء .

بعد ذلك اكتشفت أني كنت على خطأ ، لم تكن المشكلة إحساسه بأنه غير مؤهل لشيء مهم ، المشكلة أن الأنظار توجهت إليه ، وأصبح موضع اهتمام وتركيز أمام الطلاب جميعهم ، فتلعثم وضاع منه الكلام . لهذا كان يستطيع ان يتكلم بطلاقة عندما يكون وحده . . وأيضاً إذا كان مع مجموعة من الناس لا ينتبهون إليه ، ولا يجعلونه محور اهتمامهم . . . . . كان من السهل عليه التحدث إلى بعض الناس ومن المستحيل التحدث إلى الآخرين دون تأتأة؟ المهم أنْ لا يكون تحت أنظار محتشدة عليه . . لاحظت ذلك مبكراً عندما كنا في المدرسة المتوسطة ببغداد ، كان خجولاً مع أي صاحب حانوت يحفظ اسمه ، ويرحب به عندما يدخل ، ومع الكثير من زملائه في الصف الذين يمزحون ويهرجون معه لأتفه الأسباب . ولكن في سفرة عائلية مع جدتنا حبيبة وعماتنا نهلة وهدى وندى كان مرحاً طليق اللسان . ما اكتشفته مع صخر أن مشكلة التأتأه لم تكن كيف يتحدث ، أو ماذا يتحدث ، ولكن مع من

يتحدث . . يكون طليق الكلام مع صديقته سجا أو مع أفراد معينين في حالات معينة ، ولكن في الصف الدراسي قد تأتيه الحبسة في الكلام ، خصوصاً إذا كان بين الموجودين من الطلاب وندي التي أحبها أيام المراهقة ، وظن صخر أنها فضّلتني عليه ، ولكنها كانت مراهقة أحبتني وأحبت جميع المراهقين في صفنا ، ولم تفضل أحداً على أحد .

في نهاية الصف العاشر من المرحلة الثانوية ، وهو الصف الوحيد الذي داوموناه سوياً في دولش ، مثّل صخر دور أحد العفاريت في مسرحية لشكسبير ، وكنت قلقاً وأخشى أن لا يستطيع قول حرف (p) أو الحرف (H) أمام مئة من االطلاب والمعلمين . . خشيت أن يقف هناك وفمه مفتوح ، وكنت أرى مشكلته في الكلام كأنها مشكلتي ، واكتشفت أنه إذا استطاع أن يتنفس بعمق ثم يُخرج الهواء من رئته ، يمكنه أن يتحدث بالهواء المتبقي ، وهذا ما علمته لصخر . . أن يتحدث مع الزفير الطويل . . نعم حصل على نظرات مضحكة ، ولكنه استطاع الكلام . . .

كان ينظر لي . . لي فقط . . عندما يتلعثم . . وكأنه ينظر في المرآة ، فأُحرّك فمي بزفير طويل ، أو أقول الكلمات همساً بدلاً عنه . . وأحرك رأسي تشجيعاً له لكي أحثه على الكلام . أحياناً كنت أتمنى أن التأتأه تكون في كلامي مثل كلامه . . أن تكون معي طوال الوقت ومع كل الناس ، على الأقل لكي

أشاركه المشاعر والأحزان ، ولقد قضيت ساعات في غرفتي أفكر وأسعى إلى معرفة ما يحدث في كلامه عندما يُحبس . . يبدو أن شيئاً ما يحدث له في الواقع وأنا لا أعرف به ، وهذا الشيء الذي لا أعرفه ولا عرفه الأطباء الذين لم يحبهم أو يستجب لهم . . هو الذي يجعله يقترب من دينه حتى أصبح لا يتأتئ أبداً عند رفع الأذان .

كل ذلك لم يجعلني اقترب من الدين كاقترابه . . وأصبحت لا أفهم لماذا يرفض مجيئنا إليه ، مثلما رفض السفر إلينا بعد خروجه من السجن . . يقول أبي إن الشبه بيني وبين صخر بدأ يخفت عندما أطلق لحيته . . أصبحنا ، بنظره ، من عالم آخر . . خصوصاً أمي التي لا تعجبه طريقة ملبسها ومعيشها . . وصار يتهرب من محادثتها على الهاتف ، ويعتكف في الجامع أطول مما يبقى في البيت . . ولكننا اشتقنا إليه وجئنا نزوره ونقنعه بالعودة معنا إلى بريطانيا .

طلبت أمي صوفي أن نفاجئه بمجيئنا . .

المكان: درب ومنازل

الزمان: شمس باردة

هذه المرة سمعت صوت باهر ، وليس أقدامه فقط . . . . شعرت بالدنيا تدور بي وهرعت إلى الشقة العلوية . . دخلت إليها بنسخة المفتاح التي تركها مصعب معي . . كنت لا أرى شيئاً . . أركض وأنا أصعد الدرج ، ثم وأنا أفتح الشقة ، وأنا أحبس أنفاسي ، وأنا أدفع الباب مفتوحاً ، وأنا أقف وسط الشقة . . لا شيء سوى الفراغ المظلم . أشعلت مصباح الصالة الذي أعرف مكانه جيداً . . بحثت عنه بيدي بسبب الظلام وإحكام الستائر ، فوجدت مفتاح الضوء على الجدار أصبح أكبر حجماً ، ولكن الضوء اشتعل . . الغرفة نظيفة ، وباقي الغرف أيضا وثمة مهد خشبي صغير احتل مساحة في الوسط . . استغربت وجوده في غرفة الهول ، وعندما مددت يدي إليه وجدته بارداً .

من خلف ظهري . . تحرك باب الشقة الموارب قليلاً ، فاستدرت ووجدت عصمان يقف بالباب . . . . بدا نحيفاً وفي بياض عينيه حمرة تخبط لونها الأبيض وتحوله إلى لون وردي . . استغرب عصمان اقتحامي للشقة بالمفتاح الاحتياط

الذي معي . . نظرت له وقلت :

– أنا أبحث عن باهر؟

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

– ماذا حدث؟ لا أفهم شيئاً يا عصمان؟ باهر ليس موجوداً في شقة مصعب . . أين هو؟ قبل قليل كان هنا .

– باهر ليس هنا؟ لا أحد يعرف أين هو .

– ألم يتركه مصعب لحراسة الشقة عندما ذهب لأربيل؟

– نعم كان موجوداً هنا في شقة مصعب حين كان هو وزوجته في أربيل ، وهذا حدث قبل أعوام ، وقبل أن يسافرا من هناك إلى كندا .

– لماذا اسمع صوته إذن؟

– لأنه كان يكره صخراً . .

– وأنا أكرهه للغاية ، واعتبره مسؤولاً عما جرى صخر .

– والله معك حق . باهر هذا شوكة حوت ، لا تنبلع ولا بتفوت .

– تعلم يا عصمان أن باهر كان مخطوفاً مع صخر؟

– نعم ، أستاز إبراهيم ، أعلم ذلك .

– خطفوه بعد شهرين من خطف صخر . . ثم أطلقت الشرطة سراح الحقير واحتجزت البريء . .

– صخر لم يكن بريئاً فحسب ، ولكن الشك يساورني بأمر آخر؟

- تشك بماذا يا عصمان؟

- بأن صخراً لم يكن على ما يرام بعد خروجه من السجن .

- كيف عرفت هذا يا عصمان؟ .

- لا تنكئ الجرح القديم يا أستاز إبراهيم؟

- أي جرح؟

- إنه قفص الطيور الكبير الفارغ الموجود على السطح . . لقد رأيته بعد خروجه من السجن يفتحه ويجلس فيه . . كان يبدو وكأنه يتحدث إلى سجا ، ويمد يده ليد أخرى لا يراها أحد ، فيبدو الأمر كما لو كان فعلاً هناك أحدٌ في القفص يسلم عليه . .

- أي قفص يا عصمان؟

- القفص الذي فتحته سجا صغيرة لكي يخرج منه الحمام ، فجئت أنت وصرخت بصخر وبها ثم ضربت القفص بيديك ، فطار من مكانه وارتطم بك . . هذا القفص الذي كاد أن يهشم رأسك ، رأيت صخراً يفتحه ويجلس فيه بعد خروجه من السجن .

- ولكن كيف يمكنني أن أفعل ذلك بصخر؟

- . . . . . .

- أنا أحبه حباً جماً يا عصمان .

- لم يكن الأمر بيدك . ألا لعنة الله على الخمرة . . إنها أم الكبائر .

لم يعد في البيت أحد سواي أنا وعصمان . . لا صوفي ولا صخر ولا بدر ولا مصعب . . فمصعب هاجر . . . وصوفي عادت على نقالة إلى دولش لإجراء العملية ، وبدر لم يستطع بدوره إلا أن يلحقها ، وصخر . . آه أينك صخر . . . أينك حبيبي . لا قدرة عندي على السفر بدونك . . هنا أنتظر أن أعثر على باهر ، يجب أن يأتي وأعرف لماذا أرادوا خطفه ، فأخذوك بدلاً عنه ، أكيد أن حقارة من حقاراته هي السبب في كل ما حدث لابني . . . وأكيد أن صخراً ضاع مني بسببه . . من المؤكد أن الحقير سيأتي ما دامت الشقة التي فوقنا فارغة . . كلما سمعت صوتاً على السلم انأخذت وظننته باهراً ، ولكني عندما أركض للعين السحرية لا أجده . . . . صوته يطغي على كل صوت آخر ، وليس من أحد على السلم . .

لم يعد هناك في البيت سوى اثنين . . أنا أقف قرب النافذة وعصمان يجلس بسكون على كرسيٍّ وثير أعطاه إياه المحل الذي كان يعمل فيه واسمه البيت الدمياطي للأثاث . . هنالك كان يجلس عصمان والتاج الذهبي للأريكة يعلو رأسه . . غائباً عن المحسوس والمعقول . . مائجاً في الباطن . . ساكناً في الظاهر . . . . منفصلاً عما حوله . . مطمئناً . . يدرج في المدارج . . يرتقي في المراقي . . يجاهد الجهاد الأكبر مع النفس . . . . بالكمنجة لا بالطبنجة . وقد تقطع عليه خلوته سونيا التي أسماها بالكلبة ، وأنا أيضاً قد أقطع عليه خلوته ، إذا

ما دعوته لرؤية ما أراه من النافذة .

كنت أرى نفسي ، أنا الذي يجلس هناك على الأريكة ، أريكة البيت الدمياطي مع عصمان . . . أراني من النافذة لا أستطيع حذف أي شيء من من الماضي الذي يعذبني . . الشمس باردة والدرب منازل مقفلة ، وأنا آخر من تبقّى في الشقة المطلة على خلاء تملؤه الحَلْفاء التي تنمو في الحدائق والمقابر والشوارع على حد سواء . . الشمس أفَلت والريح ترنحت وأصبحت خفيفة لا تعبث بأوراق الحديقة . . بعد عدة دقائق كان هناك زوار . . جاء مصعب ومعه ليلى . . . . يضحكان كما رأيتهما آخر مرة قبل ذهابهما إلى أربيل التي هاجرا منها إلى كندا . . بدر أيضاً جاء وهو مصاب في رأسه ويقول : لا أعرف لماذا فعل أخي ذلك . . . وأمه لم تعد رابطة الجأش ولا تقول شيئاً ، تبقى صينية وجبة الإفطار متروكة في غرفتها ، وأحياناً تطرق بيدها الهواء وهي ممدة في الفراش . . تقول لنفسها صباح الخير أنا جلبت لك بعض الفطور . وكلما تحولت إلى المرآة لرؤية وجهها تبكي وتقول كان يجب أن احتضنه وأذهب معه . . . لا يمكنني رؤيته بعد الآن لأنه ذهب وحده ، ولن أراه لا بعد عام ولا عشرة أعوام . . ذهب وحده ، وكان يجب أن أذهب معه . . لا زالت تعاني من الصدمة . . وتحول الحزن عندها الى اكتئاب . لا تدري أين هي ولا أين أنا ولا أين صخر أو بدر . . كانت صوفي تتحول الى إمرأة عجوز .

فأين أنت يا عصمان؟

عصمان كان سعيداً يجيل نظره في السماء الزرقاء ، وهذا ما يفعله دائماً عندما يضيق بالأرض ، فيظهر حُسنها الضد . . عيناه استفاقتا من الشرود تلك اللحظة ، فلما رآني واقفاً في النافذة تململ على أريكته الذهبية ، وقال لي :

– وينك يا أستاز إبراهيم؟

قلت له :

– أنا هنا . وينك أنت يا عصمان؟

– أنا هون يا زلة .

قالها عصمان بلهجة لبنانية عامداً وهو يضحك ضحكة معدية جعلتني ابتسم . . قال لي إنه سيأتي ومعه بعض الطعام . . كان في الشارع بعد قليل يحمل كيساً من الفواكه والمعجنات . ربما خرج كعادته من الباب الجانبي للبيت ، ودخل من الباب الرئيس . . . سمعت أذان المغرب من الجامع القريب يرفعه صخر بصوت منطلق من جهاز التسجيل . . غابت الشمس مرة أخرى دون أن يكون هناك سوى صوته . . كلما سمعته أعادني إلى ذلك اليوم الرهيب الذي أصبح فيه صخر في أكثر من مكان . . . . حبيبي أين أنت؟ هنا أم في الجامع أم في مكان لا أعرفه . . سقطت الدموع من عيني ، ولكنها ذهبت إلى الداخل .

المكان: البيت والقصر

الزمان: كل الزمان

لم يصدق إبراهيم ما حدث . . وبقي لا يصدق حتى الآن . . رن الموبايل عدة مرات ثم صمت . . وبعد ذلك صوت لا يشبه أصوات العراقيين الخشنة ، ولكنه رفيع به غنة ، قال له إن صخراً سيكون له قصر في الجنة . . ثم جاءه صوت آية قرآنية مسجلة وابتهال ديني . . قيام الساعة حدث في تلك اللحظة . . ودارت الدنيا بالأب الذي لم يصدق ما قاله ذلك الرجل في الهاتف؟ . . حاول الاتصال مرة أخرى بالرقم الذي طلبه قبل قليل ، ولكنّ يديه كانتا ترتجفان وقلبه ينتفض في صدره . . أخيراً استطاع ان يضغط على الرقم ، دون أن يظهر على الطرف الآخر غير نغمة رتيبة لخط مقطوع . . ماذا يفعل؟ رجلاه لا تقويان على الحركة ، ويخاف أن يتحرك من مكانه . . ليس بإمكانه فعل شيء سوى الاتصال بجمال ، وأن يركض . .

جمال هو الذي اتصل به إبراهيم ، وأخبره بما قاله ذلك الرجل من خبر مهول ، فقال إنه سيخرج من مبنى البرلمان ،

ويتـأكـد من الأمـر بعـد قليل ، ولكنّ إبراهيم لـم ينتظر ، وظل يركض إلى مكان التـفـجير . لم يسأل أحـداً مـاذا حـدث ، ولم يصَـرخ من شـدة ذهوله ، ولكـنه كـان يركض وينظر بين الوجـوه وعلى الأرض . . حـتى بعـد أيام طويلة كـان يذهب إلى المطعم وينظر إلى الأرض . عن مـاذا يبـحث؟ عن أثر منه . . أم عن الوشم على ذراعه . .

تكررت زياراته للمكان ، فأشـفق عليـه رجل الأمن الذي يعمل في حماية المطعم ، وقال له إنهم غسلوا المكان جيداً بعد الانفجار . . لا يدري إبراهيم كيف حدس رجل الأمن عن ماذا يبحث ، لربما هو اعتـاد وجود مثل أولئك البـاحثين عن شيء مجهول في الأرض الرمادية الجوفاء . فالكثير من الانفجارات قد تكررت قرب هذا المطعم الذي سبق للأمريكان أن قصفوه أثناء الحـرب . . آثار الماء لا زالت على الأرض المغـسولة قـبل قليل ، فتوقف إبراهيم عن النظر إلى الارض ، وتحرك من مكانه ثم وقف قرب البالوعة . . ظل يحدق حولها . .

في اليوم التالي جاء وحدق أيضاً حتى اعتاده رجل الأمن ولم يعد يتحدث إليه . لا يعرف عن ماذا يبحث بالضبط ، ولا لماذا يأتي إلى المطعم بين يوم وآخـر . المفـروض أن لا يسـتطيع الاقتراب من مطعم اسمه القصر ، وحسب كلام ذلك الرجل الأغن فإن عليه أن يكون فخوراً بابنه الذي سيكون له قصر في الجنة . . . . وإبراهيم ظل يستعيد كل ما حدث ، وهو لا يصدق

حتى الآن . . ويذهب لمطعم القصر وكأنه يريد أن يتأكد .

يا له من عذاب أليم ، لأن حياتي يجب أن تمضي على هذا النحو . . أشعر بها تريد أن تمضي بالرغم مني . . أشعر بالخجل عندما أتثاءب وصخر قد فارق الحياة . . ولكن التثاؤب يحدث بالرغم مني ، مثل أمي حبيبة التي عندما تتثاءب بصوت عال تبدو وكأنها تضرب كل أحزانها عرض الحائط . أنا أيضاً خفت أن يبدأ الجسم خياناته الأخرى فينام ويأكل ويتثاءب بصوت عال . . خفت أن أفعل ذلك حتى لا يحل النسيان التام ويكف صخر عن المجيء . . ولكن صخراً لم يجئ . . أين أنت يا أفندي؟ . . ماذا تفعل يا أفندي؟ . . عجباً من بعض الناس . . كيف يمكن أن يكون صخر قد مات؟

كلما غادرت منزل أمي حبيبة قبل صلاة العصر تأتي رائحة الكباب من منقلة جيرانها التي ينصبونها ويشعلون الفحم فيها كل جمعة من أجل الغداء . . رائحة كانت تجعلني فيما مضى أشعر بالجوع ، ولكنها الآن توجعني بدلاً من أن تجعلني أشعر بالجوع . . تسحقني ولا تجعلني أشعر بالجوع لأني لا أجوع . . ولا تجعلني أشعر بالشبع لأني لا أشبع . . . . كيف أشبع من الطعام وأنا لا آكل الطعام . . أو كيف استيقظ من النوم وأنا لا أنام منذ ذلك اليوم الذي جاءت فيه صوفي وبدر ، وجعلتني أشترك معها في المفاجأة . . أن ننتظر عودة صخر من الجامع لنجتمع لأول مرة على الغداء منذ أكثر من سنة .

(٤٦)

المكان: البيت

الزمان: الآن

طلبتْ صوفي مني أن تفاجئ صخراً بتلك الزيارة . . فاستجبت لطلبها وأنا أفكر بأنني ربما إن قلت له أن أمه موجودة ، فقد يبقى في الجامع ويعزف عن المجيء . . لا أدري لماذا فكرت بهذه الطريقة الغريبة ، مستحيل أن يفعل صخر ذلك . . وغريب أن أتماشى مع طلب صوفي فلا أخبره بوجودها في بغداد عندما اتصل لكي يتأكد من وجودي في البيت! . . هو عادة يأتي بعد صلاة الظهر ، وسأعد الغداء للجميع قبل أن يأتي ، ولكن صوفي اقترحت أن تذهب مع بدر لكي تشتري الصمون العراقي الذي تحبه ، والشاورما التي يحبها بدر ويحلم بها منذ يومين . . أرادت أن تخرج للمنطقة وتلتقي الناس . . تظنهم لا يزالون جميعهم هناك كما تركَتْهم قبل ستة أعوام ، وأن الحياة في بغداد لا زالت تلك الحياة بالرغم من المخاطر . . . . . وأن وأن وأن . . . . . قلت لها : خذي عصمان معك ودعي بدراً معي ،فقد يأتي صخر في أية لحظة ، وستكون مفاجأة جميلة أن يراه . قالت : لا ، لن نتأخر .

تأخرتْ كثيراً ، المكان مزدحم وعمال المطعم منشغلون بوفد أمريكي معه مسؤول عراقي بزي عسكري . . قالت لي صوفي أيضاً بالموبايل إنها تذكرت أيام الحرب التي عشناها عام ٢٠٠٣ . . ذكّرها منظر بعض العسكر داخل المطعم بتلك الأيام ، وكيف مضى الوقت سريعاً منذ ذلك الحين . . قالت إن إمرأة مسنة غادرت المطعم معترضة على وجود الأمريكان فيه . . وقالت إنها تنتظر دورها على كاونتر المطعم . . ستأتي بطبق كبير من الشاورما ، فيأكل منها بدر مع صخر . . إنها تقف الآن أمام شيش الشاورما التي تبدو شهية ، والتي تكشطها سكين عريضة تفصل الطبقة المحمصة عن الطبقة النيئة ، حافات اللحم المتيبسة هي المفضلة لدى بدر . . أما أصابع البطاطس المثالية التي تجمع بين قشرة خارجية مقرمشة ، وحشوة طرية بيضاء ، فهي التوليفة المفضلة لدى صخر ، والتي تتكون عند قلي أصابع البطاطس في مقلاة عميقة من الزيت الساخن جداً . صوفي تشرح لي كل هذا وتحدثني بدون توقف وهي تنظر للصمون العراقي الذي كان يشرطه العامل بالسكين ، والطقس مشمس مع بعض الغيوم البيضاء التي تتجمع ، قالت إنها سعيدة جداً ، و تكاد تحسّ وكأنْ ليس من تبرير لمن حذّرها من السفر الى بغداد . . وكان بدر مستعجلاً يتساءل متى يعود إلى البيت ويرى صخراً الذي تأخّر أيضاً في المجيء من الجامع . .

قالت لي صوفي بعد ذلك من المستشفى ، وظهرها مفتوح

حتى نهاية العمود الفقري . . إنها أردات دفع النقود ، وضغطت بأصبعها لفتح الزر الذي يغلق الجنطة فرأت صخراً قادماً من بعيد . .

«عرفتُه على الفور بالرغم من تلك اللحية الكثة التي تغطي وجهه . . عيناه الخضراوان تسبحان خارج ذلك الوجه الذي لا يعود له . . كأني لم أره منذ أعوام طويلة . . شعرت بالعذاب من كثر الفرح . . ووقفت في مكاني وقد انتابتني رجة قوية في قلبي . . ابتسمت له قبل أن يراني . . وقلت في نفسي أخيراً قد رأيته . . يبدو أنه قد علم أننا هنا فجاء خلفنا» . . كان يقف خارج المطعم يرتدي بدلة رسمية لا تلائم وقت الظهيرة . . إنه بتلك البدلة أصبح يشبه الرجل المفخخ الذي رأته في الشاحنة قبل سبعة أعوام . . كادت أن تتفجر مع سيارتها في تلك المرة التي وقفت فيها خلف تلك الشاحنة . . وهذه المرة نبّهت بدراً إليه وقالت له : انظر ، انظر . . إنه صخر . .

«ضحكنا له من خلف الزجاج وهرع بدر إليه . . في اللحظة التي اقترب منه بدر لاحتضانه تراجع صخر إلى الوراء . . المفاجأة على وجهه تحولتْ إلى هلع . . أصبحت المسافة بينهما كبيرة . . تراجع صخر كثيراً . . وأمره بالابتعاد ، فصرخ بعض الموجودين إنه رجل مفخخ . . . ركضت من مكاني كالمجنونة ، وأردت احتضانه ، ولكن صخراً كان يحاول أن يخلع شيئاً تحت سترته وهو يبتعد راكضاً عني وعن بدر . .

وقفت بينهما . . ظهري إلى صخر ووجهي إلى بدر . . لم يسعفني التفكير بغير أن أقف بتلك الصورة لكي أحول بينهما . . وفي أقل من لحظة حدث كل شيء . . هرج ومرج . . وصياح من حمايات الوفد وحراس يتراكضون . . يبدو أن الناس ينفضّون ، وصخر يتراجع دون أن يملك من أمره شيئاً . . إنه يترنح . . ثم حدث الانفجار الرهيب» .

متروك هنا بإرادتي . . أعيد هذا المشهد مع نفسي عشرات المرات . . وكلما أعدته زادت كثافة الدخان الأسود الذي يخنقني . . أفكاري لا تغادر دخان تلك المذبحة الصامتة المسفوحة على مبعدة أمتار . . أرى وجهه المفزوع لا يعرف ماذا يفعل وهو يرى أخاه ، وأعود عامداً إلى سؤال نفسي . . لماذا لم أخبر صخراً بوجود أخيه بدر وأمه معنا؟ . . لماذا لم أطلب منه أن يأتي الى البيت فوراً بدلاً من أن أقول له إن هناك مفاجأة بانتظاره؟ ظنّت صوفي أن الفرحة ستكون كبيرة وشبيهة بالجائزة ، فأية مفاجأة هذه التي أرادتها صوفي أمه ، وأية جائزة حضّرَتْها لنا الأقدار العمياء في ذلك اليوم المشؤوم؟ لا يخفى على شق التوأم ما يجول في بال الآخر . . وفي عمر العاشرة كان صخر في الحمام عندما أصيب بنوبة صرع . . أغمي عليه وكاد أن يغرق . شعر بدر بأنّ أمراً ما يحدث لأخيه التوأم ، فدخل إلى الحمّام في اللحظة نفسها ، ووجده أزرق اللون يكاد يكون فاقداً للوعي ، وبعد تدليك وتنفس صناعي استعاد صخر

وعيه . ولولا تدخّل بدر كان يمكن أن ألاّ يبقى صخر على قيد الحياة . لم يعد لدى بدر الآن شعور مماثل بأخيه التوأم ، ولم يكن لصخر من أهل غيري في بغداد ، وها هو قد تأكد من أنني في البيت قبل أن يفجر نفسه . . .

مؤلفات الكاتبة

* العرش والجدول ، رواية ، كاتارا ، الحي الثقافي ، الدوحة ٢٠١٦
* شاهدتهم وحدي ، مجموعة روايات للفتيان ، المؤسسة العربية لدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥
* سعيدة هانم ويوم غد من السنة الماضية ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠١٥
* أجمل حكاية في العالم ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٤
* التلصص من ثقب الباب ، دار المأمون للترجمة والنشر ،مقالات ، بغداد ٢٠١٣
* هذه الدنيا كتاب ، قراءات ، مجلة الرافد ، الشارقة ٢٠١٣
* أقصى الحديقة ، قصص ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٣
* زينب وماري وياسمين ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٢
* ماما تور بابا تور ، قصص خيال علمي إلكترونية ،الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ٢٠١٢ . دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ٢٠١٥
* الليالي الهادئة ، قصص ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠١١
* حفيد البي بي سي ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١١
* شاي العروس ، رواية ، دار الشروق ،عمان ٢٠١٠

* حلم وردي فاتح اللون ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٩
* نبوءة فرعون ، رواية ، المؤسسة العربية للدرسات والنشر ، بيروت٢٠٠٧و ٢٠١٦ ، دار ار أوثر للنشر لندن ٢٠١١
* الحدود البرية ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٤ .
* العيون السود ، رواية ،دار الشروق ، عمّان ٢٠٠٢ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٠
* يواقيت الأرض ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمّان ٢٠٠١ .
* رومانس ، مجموعة قصصية ، الاتحاد العام للكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠٠ .
* لا تنظر إلى الساعة ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٩ .
* العالم ناقصاً واحد ، رواية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٦ ، دار أسامة للنشر ، عمّان ١٩٩٩ .
* رجل خلف الباب ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٤ .
* أشياء لم تحدث ، مجموعة قصصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ .
* الفراشة ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٦ .
* الشخص الثالث ، مجموعة قصصية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٨٥ .

الفهرست

١) المكان : بيت صوفي . . الزمان : زمان صوفي 5
٢) المكان : نخيل يتحرك . . الزمان : أواخر تشرين الأول عام ٢٠١١ 10
٣) المكان : شقة إبراهيم . . الزمان : التسعينيات 18
٤) المكان : البيت . . الزمان : الآن وقبل الآن 27
٥) المكان : بغداد برستول . . الزمان : الثمانينيات 31
٦) المكان : بغداد . . الزمان : عام ٢٠٠٣ 34
٧) المكان : بغداد أيضاً . . الزمان : عام ٢٠٠٣ 42
٨) المكان : بغداد . . الزمان : ٢٠٠٦ 48
٩) المكان : شارع سجا . الزمان : لحظة سجا 53
١٠) المكان : البيت . . الزمان : الآن 56
١١) المكان : مكان باهر . . الزمان : زمان باهر 59
١٢) المكان : أكاديمية الفنون . . الزمان : عام ٢٠٠٨ 63
١٣) المكان : البيت . . الزمان : الآن 66
١٤) المكان : دولش- بغداد . . الزمان : ٢٠٠٥- ٢٠٠٦ 75
١٥) المكان : مكان صوفي . . الزمان : لحظة صوفي 82
١٦) المكان : مكان ابراهيم . . الزمان : لحظة ابراهيم 88
١٧) المكان : بين السجون . .الزمان : ٢٠١١-٢٠١٢ 93
١٨) المكان : مكان عصمان . . الزمان : لحظة عصمان 98
١٩) المكان : قرب البيت . . الزمان : الآن 103
٢٠) المكان : البيت . . الزمان : سعيا وراء الظل الهارب . . 106
٢١) المكان : خروج من كل مكان . . الزمان : مصباح خافت 112
٢٢) المكان : شاطئ دولش . . الزمان : خريف 116
٢٣) المكان : غرفة عصمان . . الزمان : لحظة سونيا 122

٢٤) المكان : خارج السجن . . الزمان : أواخر أيلول ٢٠١٢ 129
٢٥) المكان : غـرفـة صـخـر . . الزمـان : نصف هنا ونصف هناك . . 134
٢٦) المكان : هضبة الهضبة . . الزمان : غروب الشمس 142
٢٧) المكان : بعد المكان . . الزمان : أيلول ٢٠١١ 146
٢٨) المكان : غرفة المخطوف . . الزمان : أيام عمي اسماعيل 152
٢٩) المكان : بغداد . . الزمان : قبل الحرب 157
٣٠) المكان : خارج حدود المكان . . الزمان : نهايات ٢٠١١ 166
٣١) المكان : هناك . . الزمان : ٢٠١٢-٢٠١١ 173
٣٢) المكان : هنا وهناك . . الزمان : لحظة عباس 178
٣٣) المكان : الهضبة . . الزمان :لحظة صخر 184
٣٤) المكان : الأكاديمية . . الزمان : لحظة باهر 188
٣٥) المكان : هناك في الهضبة . .الزمان : نهايات ٢٠١١ 201
٣٦) المكان : غرفة الدكتور عامر . . الزمان : لحظة بدر وصخر 205
٣٧) المكان : أعالي المكان . . الزمان : لحظة حنين 214
٣٨) المكان : مكان التجربة . . الزمان : لحظة الدكتور عامر 233
٣٩) المكان : بيت إبراهيم . . الزمان : الآن 284
٤٠) المكان : قرب الموبايل . . الزمان : أواخر ٢٠١٢ 255
٤١) المكان : البيت رقم ٥ . . الزمان : زمان صخر المفقود 258
٤٢) المكان : بغداد . . الزمان : عام ٢٠١٢ 261
٤٣) المكان : طائرة بدر . .الزمان : كانون الأول عام ٢٠١٢ 264
٤٤) المكان : درب ومنازل . . الزمان : شمس باردة 275
٤٥) المكان : البيت والقصر . . الزمان : كل الزمان 281
٤٦) المكان : البيت . . الزمان : الآن 284

جائزة التوأم

هناك دفعْنا صخراً وأخاه بدراً بالعربة عندما كان عمرهما أربعين يوماً.. واستوقفتنا العجائز لمناغاة هذين الطفلين الجميلين والممتلئين. متشابهان تماماً بالملامح، ولكن أحدهما أسمر الوجه.. والآخر أشقر.. وجلب لهما ذلك الكثير من الانتباه، وحاولت حتى الصحافة الاقتراب منهما، ولكننا لم نفسح المجال لاقتحام خصوصيتنا.. قبل الولادة بدقائق حددت اسميهما، صخراً وصقراً.. ولكن صوفي قالت إن الاسمين سيتشابهان عند تلفظهما بالانكليزية، فغيرت اسم صقر إلى بدر، وبعد أن تَحدد اسماهما لم تقبل أن يتحدد دينهما. قالت إنهما سيبقيان طوال حياتهما يقاتلان ويدافعان بغباء عن شيء لم يختاراه، بل فرض عليهما منذ الولادة.

ISBN 978-614-614-698-4